رسائل السلام
(٤)

ابتسامة الأنين

رواية

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

رسائل السلام

(4)

ابتسامة الأنين

رواية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1436 – 2015

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

لا شك أن الكثير من المتألمين الذين تـذوقوا بعض الجرعـات الشديدة من الحزن والألم والمصائب يشعرون في قرارة أنفسهم ـ عبروا أو لم يعبروا ـ بأنواع من الصراع والاعـتراض على مقـادير اللــه.. فهم يتســاءلون عن ســرها.. وعن ســر نزولهــا بهم دون غيرهم.. وعن علاقتهـا بالرحمـة الإلهيـة الـتي هي منبـع كـل شـيء ومنتهاه..

وكــل تلــك الاعتراضــات المتصــاعدة مــع أنــاتهم تجعلهم لا يعيشون السلام مع أنفسهم، ولا مع الكون، ولا مع رب الكــون، ولا مع النظام الذي أنشأ الله به كونه.. ولـذلك كـانت آثـار ذلـك الأنين أخطر بكثـير من الأنين نفســه.. وكـان أثـر الألم أعظم تـأثيرا على أرواحهم وعلاقتهم بربهم من الألم نفسه.

ولذلك حاولنا في هذه الرسـالة أن نعـالج جـراح الـروح الـتي أحدثها ألم الجسـد.. لنحـول من أنين الجسـد ابتسـامة للـروح ثقـة بربها، وسلاما معه، ومع نظامه الذي أبدعه، ومقاديره التي قدرها.

وقد قاد الرحلة في هذه الرسـالة – كـأكثر رسـائل السـلام – (معلم السلام) الذي أخذ تلميذه المتألم المصـارع إلى (مستشـفى السلام) ليرى كيـف يحـول أهـل السـلام من الألم أملا، ومن الأنين ابتســامة، ومن الحــزن صــلة مــع اللــه، ومن المصــائب جســورا للوصول إلى فضل الله ورحمته التي وسعت كل شيء.

وهذا المستشفى مكون من أربعة حصون .. كل حصن يعــالج ألمــا من آلام الــروح، ويــزرع ابتســامة عذبــة تفيض من قلب المتألم لتمسح آلامه، والصراع الذي أحدثته آلامه، وهي:

حصن الغيبة: وهو الحصن الذي يغيب فيه المتألم عن ألمـه بسبب معرفته بربـه وحبـه لـه ورضـاه عنـه وسـكونه إليـه .. أو بسبب رؤية ما أعد الله لأهل البلاء من أنواع الجزاء.

حصن الأمل: وهـو الحصـن الـذي يمتلئ فيـه المتـألم ثقـة بقـدرة ربـه على أن يخرجـه من بلائـه نتيجـة قراءتـه العرفانيـة لأسـمائه الحسـنى .. وخاصـة الأسـماء الدالـة على القـدرة المطلقة، وعلى الفضل الواسع، والكرم العظيم.

حصن الاستعانة: وهو الحصن الذي يلجـأ فيـه المتـألم إلى ربه بدعائه وعمله الصـالح متضـرعا منيبـا ليبدلـه السـعادة بـدل الشـقاوة، والعافيـة بـدل البلاء.. فيكتسـب بـذلك صـلة بربـه، وعبودية تقربه إليه.

حصن الاستعاذة: وهو الحصن الـذي يفـر فيـه المبتلى من كل ما ينغص علاقته بربه، ويحول بينه وبينه.. وقد رددنا في هذا الحصن بتفصيل على المشـعوذين الـذين اسـتعملوا مـا يسـمى بالرقية وسيلة للخرافة والشعوذة وصرف الخلق عن الله.

وهذه الرسالة تحاول كذلك أن تصحح المفاهيم حـول الرؤيـة الشرعية للطب الروحاني، فهو طب معقـول المعـنى، لا ينكـره علماء النفس، ولا غيرهم من العلماء، لأنه يعتمد على زرع الثقة في نفس المريض بربه، وتجعله يستهين بـالآلام الـتي تـنزل بـه لرؤيتــه مــا هــو أعظم منهــا وأفضــل، وهي بــذلك تــرد على التشـويهات الخطـيرة الـتي أحـدثها الـدجالون والمشـعوذون والخرافيون الذين يسـمون أنفسـهم رقـاة، فشـوهوا الـدين في هذا المجال كما شوهوه في غيره من المجالات.

وقـد أتبعنـا هـذه الرسـالة بثلاث رسـائل أخـرى من رسـائل السـلام تحـاول جميعـا أن تعطي صـورة أوضـح لهـذا الجـانب الخطير من الإنسان.. والذي يجعله لا يعيش السـلام الـذي بـنى الله كونه عليه.

معلم السلام

جاءني معلم السلام في ذلك اليوم المبارك، وقد رآني أشــكو من بعض الآلام، فقــال: هلم بنــا إلى مستشــفى الســلام، لتعــالج أدواءك، وتبتسم لأنينك.

قلت: وهل للسلام مستشفى.. وبماذا يعالج؟

قال: لا مستشفى بلا سلام.. وكل مستشفى يخلو من السلام هو بيت للداء، لا بيت للدواء..

قلت: المستشـفيات ــ يـا معلم ــ خاضـعة لقـوانين معينـة لا تعدوها، فهي تعالج العلـل بمـا توصـلت إليـه الكيميـاء الحديثـة من تركيبات.

قال: هناك كيمياؤكم، وهي قـد تـداوي داء، وتعجـز عن أدواء، وتنشر أدواء.. وهناك كيمياء السـلام.. وهي دواء لكـل علـة، تنشـر العافية المضمخة بعطر السكينة.

قلت: فأين مستشفى السلام؟ ومن أطباؤه؟ وكيف يعالج؟

قال: هذه رحلتنا في هذه الرسالة.

قلت: هل سنرحل من هنا؟ وفي أي طائرة؟ وليس لي جــواز سفر.

قال: لا تحتاج إلى طائرة.. أما جواز سـفرك فهـو الإرادة، ألم تعلم أن الإرادة مفتاح لكل باب.. ونافذة لكل مغلق؟

قلت: عرفت الإرادة.. ولكني لم أر في حياتي شخصا يمتطي طائرة تسمى (الإرادة) ليرحل بها.

قال: من لم يرحل بطائرة الإرادة، فهو لم يفارق مكانه.

قلت: لا ـ يا معلم ـ هم يطيرون في الأجواء، فيقطعون البحار

السبعة.

قال: ولكنهم لم يغادروا الأرض.

قلت: لا ـ يا معلم ـ لقد غادروها.. ورحلوا إلى القمر، ويوشـك أن يرحلوا إلى المريخ..

قال: وما القمر؟.. وما المريخ؟.. كلها حجارة كحجارة جبالكم وقلوبكم.

قلت: فكيف نرحل؟

قال: قبل أن ترحل انظر إلى أعماقك التي تملتئ بهـذا الأنين الذي ينشره الألم، وقل لي: ماذا ترى؟

قلت: أنزل إلى أعماقي !؟

قال: نعم.. لن ترحل إلا بعـد أن تـنزل.. ولن تنبت إلا بعـد أن تدفن.. ولن تنتج إلا بعد أن تغرس.. ولن يقوم بنيانك إلا إذا حفـرت أساسك.

قلت: فعن أي لؤلؤة أبحث في أعماقي؟

قال: لا تحتـاج إلى اللآلئ، فهي حجـارة كالحجـارة، بـل ابحث عن الظلام لتطفئـه بـالنور، وابحث عن الحـراب الـتي توجههـا إلى ربك لتكسرها باليقين.

نزلت إلى أعماقي، فرأيت أناتي حرابا متوجهـة إلى السـماء، تقـول كـل أنـة بلسـان فصـيح: (لم يـا رب تتفنن في إيلامي؟.. لم تملـؤني بـالحزن؟.. لم تملأ مشـاعري بالأسـى؟.. لم تغمـرني بالإحباط؟)

صحت خائفا في وجهها: كفي يا أناتي.. أتدري من تخـاطبين.. إنه الذي ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الانبياء:23)

كانت الأنات تردد توشيحاتها.. ولا تبالي بي، صحت: يـا معلم.. أنقذني من هذه الأنات الكافرة.. فهي تريـد أن تـزج بي في هاويـة جهنم.. إنها لا تستحي من الله.. إنها لا تخجل من ضعفها.

قال المعلم: أناتك هي أنت.. فأنت تختفي في ظل أناتك.

قلت: ولكني أقاومها.

قال: تقاومها بلسانك، وهو مجـرد جارحـة من جوارحـك تتقن النفاق.. أما حقيقتك، فتصيح بما صاحت به أناتك..

قلت: فكيف أنقذ حقيقتي من هذا الانحدار الذي توقعـني فيـه أناتي؟

قال: هيا نرحل إلى مستشـفى السـلام لتنقـذ روحـك، وتنقـذ معها حقيقتـك، وعسـى اللـه أن يهبـك مـا تقي بـه جسـدك، فاللـه شكور حليم.

قلت: هيا نرحل..

قال: امتط إرادتك.. وسر معي.

امتطيت الإرادة الـتي بثهـا في الألم، فـإذا بي، وفي أقـل من طرفـة عين أرى بنيانـا عجيبـا.. لسـت أدري هـل نبت كمـا تنبت الأزهار، أم شيد كما تشيد القصور.. كـان يشـبه زهـرة من الأزهـار الجميلة.. لا تفوح منه إلا عطور الشفاء.

قلت للمعلم: أهذا مستشفى، أم فندق؟

قال: بل مستشفى.

قلت: ولكني لا أشم فيه رائحة المرض.

قال: هو مستشفى، فكيف تشم فيه روائح المرض؟

قلت: المستشفيات عندنا لها روائح مميزة.. تتقزز منها أنوف الأصحاء.

قال: تلك مستشفياتكم الـتي تتعامـل معكم كمـا تتعامـل مـع الآلات.. لا مع الإنسان.

قلت: فما سر هذه العطور الزكية؟

قـال: هي عطـور الحقـائق، فمستشـفى السـلام لا يعطيـك وصفات لتشتري بها أدوية تعالج بهـا الخلـل الـذي أصـاب جسـدك، وإنما يعطيك الوصـفات الـتي تعـالج بهـا روحـك الـتي تسـببت في الخلل الذي حصل لجسدك.

قلت: أهي تعالج المنبع؟

قال: هي لا تتقن فنون الطلاء التي تتقنونها.

قلت: إذن سنرى في هذا المستشفى الحصـون الـتي تحتمي بها الروح من ألم الداء.. فتسالم الله في بلائه..

قال: أجل.. وهي حصون أربعة..

قلت: فما هي؟

قال: حصن الغيبة، وحصن الأمل، وحصـن الاسـتعانة، وحصـن الاستعاذة.

قلت: فما الغيبة؟

قال: هي الغفلة عن الآلام بالحضور مع اللـه، أو بالرضـى عن الله، أو بالسكون لمقادير الله، أو بالنظر في نعم الله.

قلت: فما الأمل؟

قـال: انتظـار الفـرج من اللـه، والتعـرف عليـه ليمتلئ قلبـك

بالأمل الصادق.

قلت: فما الاستعانة؟

قال: هي الاستعانة بالله في رفع البلاء، أو في تلطيفه.

قلت: فما الاستعاذة؟

قال: الاستعاذة من شياطين الروح الذين ينفخون آلام اليـأس والحزن.

قلت: فلم كانت هذه الأقسام أربعة؟

قـال: هـذه هي الأسـس الأربـع في التعامـل مـع البلاء، هي الأسس الصحيحة التي دلت عليها النصوص، وهي التي عاشها أهل الله في صحبتهم لما ينزل عليهم من أمطار البلاء، لكن سوء الفهم تطرق لبعض هذه القواعد، فانخرم عقد نظامها:

فخـــرج الغـــافلون من الثـــورة على البلاء إلى الثـــورة على المبتلي، فحاربوا الله وخاصموه.

وانشغل آخرون بالبلاء عن المبتلي، فحجبوا بحيـاة البلاء الـتي أصابت بعض جوارحهم عن العافية التي تنعم بها كل لطائفهم.

واختار آخرون أن يغفلوا بالمبتلي عن البلاء، لكن سـوء الفهم طـرق لهم أيضـا، فـاعتبروا الثـورة على البلاء ثـورة على المبتلي، ومنازعة الأقدار بالأقدار محاربة لأقـدار اللـه، فحجب سـوء فهمهم عن مقاصد أهل الله، وأساء المعرفة بالله.

قلت: فما علامة الشفاء الـتي تسـمح للمـريض بـالخروج من المستشفى؟

قال: الابتسامة.. ابتسامة الأنين.

قلت: ألا تجرون له أي تحاليل للتأكد من سلامته؟

قال: أما تحاليلكم.. فلا نجريها.. ولكن لنا تحاليلنا الخاصة.

قلت: من أطباؤكم؟

قال: لكل قسم أطباؤه، وسنمر عليهم، ونتعرف بهم، ونستفيد منهم.

قلت: فما أنواع الأمراض التي يستقبلها هذا المستشفى؟

قال: كل الأمراض أمراض.. وكل الأنات أنات.

قلت: لم تفهمني.. نحن لدينا مستشفيات تخصصية.

قال: أنتم تتعاملون مع الجسد المركب.. ونحن نتعامل مع الحقيقة الواحدة، فلذلك لم نحتج لما احتجتم إليه.

قلت: فما نسبة الشفاء في هذا المستشفى؟

قال: سمعتكم تعبرون عن الكمال بالمائة.

ضحكت، وقلت: تقصد مائة بالمائة.

قال: إن أردت الشفاء التام لكل من يدخل، فهو تعبير صحيح.

قلت: فكم من المال يدفع من يدخل المستشفى؟

قال: ما نصحك من طلب منك مالك، ألا تعلم أن العفاف شرط من شروط السلام؟

قلت: فمن أين يعيش أطباء هذا المستشفى؟

قال: من عيون الحكمة النابعة من بحار السلام.

قلت: اعذرني.. لقد نسيت.. تصورت نفسي أجري حوارا مع مستشفى من مستشفياتنا.

***

رأيت أقواما مختلفين يدخولون هذا المستشفى، والكـدورات تملأ نفوسهم، والظلمة تغمر وجوههم، قلت: من هؤلاء؟

قال: أنت.

قلت: كيف.. فأنا هو أنا.

قال: كلهم رأى في أعماقه ما رأيت في أعماقك، فجاء يبحث عن شفاء.

***

رأيت آخـرين يخرجـون مبتسـمين تشـرق أسـارير وجـوههم بالنور، وتسري في أوصالهم العافية، قلت: من هؤلاء؟

قال: هؤلاء الذين أذن لهم بالخروج من المستشـفى، بعـد أن امتلأت أرواحهم بحقائق السلام.

قلت: أطال مكوثهم؟

قال: منهم من يمكث ثانية.. ومنهم من يظـل عشـر سـنين.. ومنهم من يموت في المستشفى.

قلت: فلماذا تفاوتوا.. ألا يقدم لهم علاج واحد؟

قـال: تفـاوتوا بتفـاوت الهمم.. فمنهم من أنس وسـكن، ولم يرحـل.. ومنهم من ارتفعت همتـه.. فـراح يبحث عن دور السـلام الأخرى ليصعد من خلالها إلى الله.

قلت: فما تنصحني حتى لا أقع فيما وقعوا فيه؟

قال: بالرحلة الدائمة والعبور المستمر.. ضع بين عينيك دائما: ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم:42)

أولا ـ حصن الغيبة

دخلنا الحصن الأول من حصون الروح.. كـان النـور يشـع فيـه من كـل النـواحي.. وهـو نـور هـادئ مـريح تكـاد النفس تغيب في جماله.. وكان النور يكتب بإشعاعاته عبارات حاولت قراءتها بعيني، فلم أفلح، قلت لمعلم السلام: ماذا تكتب هذه الأنوار؟

قال: اسمعها ببصيرتك.. ولا تقرأها بعينك.

أصغيت بأذن بصيرتي، فسمعت صوتا حانيا يتوجه إلي قائلا: لا تحـزن إن ألمت بـك الأدواء، وطـافت بجسـمك السـموم، وانتهض جيش الشيطان ليملأ قلبك هما وحزنا.

لا تحزن.. واجعل من أدواء جسمك أدويـة لقلبـك، وحـول من تثاقل ذاتك الطينية سموا لذاتك الروحية.

قلت: يا معلم.. ما هذا الصوت؟

قال: هذا هو صوت أطباء البصيرة.. فهم يخاطبون أعماقك لا جوارحك.

قلت: أكل أطباء هذ المستشفى بهذه الصفة؟

قال: لا.. لكل قسـم طبيعتـه الخاصـة.. أمـا في هـذا القسـم، فلن تسمع إلا بالبصيرة.. ولن تـرى إلا بالبصـيرة.. أليس هـو قسـم (الغيبة)

قلت: إن هذا الصوت يكلفني ما لا يطيق بشـر فعلـه، فكيـف أترفـع عن ذاتي الطينيـة، وأنـا حبيسـها، وكيـف أجعـل من الأدواء دواء.. علمني، فإني لا أكاد أفهم شيئا؟

قال: سر معي، ولا تسأل.

نهضت لأسير، فقال: إلى أين؟

قلت: ألم تطلب مني أن نسير؟

قال: ألا سير إلا بالأرجل؟

قلت: هذا ما نعرفه.

قال: ما وصل من سار برجله، ولا تحقق من أتعب قدميه؟

قلت: فبم أسير؟

قال: بك.

قلت: وهل رجلاي إلا أنا؟

قال: رجلاك منك لا أنت.

قلت: فها أنذا بين يديك سر بي حيث شئت.

قال: لا يمكن لأحد أن يسير بأحد، كل واحد يسير بنفسه.

قلت: إلى أين؟

قال: إلى رياض الأولياء.

قلت: لماذا؟

قال: ليجيبوا عن سؤالك.

قلت: أي سؤال، فقد نسيت؟

قال: أنت تبحث عن الترفع عن البلاء، والترفع سيما الصالحين، ولذلك سنبحث في سيرهم لنرى ترفعهم وابتسامتهم لأنينهم.

قلت: أنا أسمعك، فارو لي أخبارهم مع الأنين.

قال: تسمعها بصيرتك من أفواه أولياء هذا القسم، فأصخ

سمعها.

أصخت سمع بصيرتي، فسمعت صـوتا جميلا يخـاطبني قـائلا: كن ـ أيها المتـألم الغـارق في أوحـال الأنين ــ كتلـك المـرأة الـتي عثرت، وانقطع ظفرها، فضحكت، فقيـل لهـا: أمـا تجـدين الوجـع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبـي مرارة وجعه.

قال معلم السلام: هذه ابتسامة الثواب.. وهي سلوى الفقراء إلى فضل الله.

سمعت صوتا آخر يقـول: كن كـذلك الـذي قطعت رجلـه من ركبته من أكلة خـرجت بهـا، ثم قـال: الحمـد للـه الـذي أخـذ مـني واحدة، ولئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت.

قلت: ما أجمل هذا ! صوت من هذا؟

قال: هذا صوت التسليم والرضى الممزوج بالشكر.

صاح صوت آخر: كن كذلك الذي استسقى بطنه، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعـد حـتى نقب لـه في سـرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته، فدخل عليه أخوه، فجعـل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة قال: لا تبك فإنّ أحبه إلى الله تعـالى أحبـه إليَّ، ثم قال له لما رأى جزعه: أحدّثك شيئاً لعل اللـه أن ينفعـك بـه، واكتم عليَّ حـتى أمـوت، إنّ الملائكـة تـزورني فـآنس بهـا وتسـلم علي فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة.

قلت: الله ! ما أعظم رحمة الله بأوليائه !

قال: هذا صوت السلوى بأهل الله.

صـاح صـوت آخـر: كن كـذلك الـذي قـالت لـه امرأتـه: أهلي فداؤك ما نطعمك. مـا نسـقيك؟ فقـال: طـالت الضـجعة، ودبـرت

الحراقيف، وأصبحت نضواً لا أطعم طعاماً ولا أسيغ شراباً منذ كـذا، وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر.

قلت: هذا التسليم بعينه.. هذا الرضى المحفوف بالسعادة.

صاح صوت آخر: كن كـذلك الـذي نظـر رجـل إلى قرحـة في رجله، فقال: إني لأرحمك من هـذه القرحـة، فقـال: إني لأشـكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني.

قلت: هذا الشكر..

قال: وهو سر من أسرار الابتسامة.

صاح صوت آخر: كن كذلك الذي جمع أصناف البلاء، فقد كان أعمى مجذوما والنمل يأكل لحمه، فرآه بعض الناس، فحزن عليـه، فقال: من هذا الفضولي الذي يدخل بـيني وبـين ربـي، لـو قطعـني إرباً إرباً ما ازددت له إلا حباً؟

قلت: هذا الحب..

قال: وهو منبع من منابع السكينة، ومخدر من مخدرات الألم.

صاح صوت آخر: كن كالذي عبد الله بابتسامة الأنين، فجعلـه الله أعبد أهل زمانه، يروى أنّ يونس ﷺ قال لجبريـل: دلـني على أعبد أهل الأرض. فدله على رجـل قـد قطـع الجـذام يديـه ورجليـه وذهب ببصره، فسمعه وهو يقول: إلهي متعتني بهما ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول.

قلت: هذا صوت الأمل.

قال: وهو صـوت العـارفين باللـه المحسـنين الظن بـه.. وهـو صوت السعادة الطامحة إلى المعالي.

صـاح صـوت آخـر، كأنـه يجمـع الأصـوات جميعـا: كن مثلهم،

فابتسموا في الوقت الذي أن فيه غيرهم، وفرحوا في الوقت الذي حزن فيه غيرهم، وحمدوا الله في الوقت الذي ضجر فيـه غـيرهم، فنالوا الرضى، وفازوا بالجنتين جميعا، جنة الدنيا وجنة الآخرة.

قلت لمعلم السـلام: فمـا كـان حـاديهم في ذلـك.. من فـتر ثغورهم بالابتسامة العذبة، وخدر آلامهم من غير ترياق؟

قال: بلسمان شافيان: أما الأول فقد غابوا بالله عمـا سـواه، حبا له، ورضى به، وسكونا لمقاديره.. وأما الثاني، فنعم اللـه الـتي ينطوي عليها البلاء، فـالمبتلى عامـل عنـد اللـه، وللعامـل حـظ من اسم الله (الشكور) يناله لا محالة، فيغيب بنواله عن كل ألم.

قلت: فأين نجد هذين البلسمين؟

قال: لكل منهما قاعة علاجه الخاصة.. فهلم إليهما.

الغيبة بالله

دخلت القاعة الأولى، وهي أنوار محضة لا يمكن وصـفها، وإذا لافتة مكتوب عليها قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَيْنَـهُ أَكْبَرْنَـهُ وَقَطَّعْنَ أَيْـدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (يوسف:31)

وسمعت صوتا حانيا قويا يقول ـ وكأنه يخاطب جميع مرضـى العالم ـ: (أول ما يكسـر سـورة الأنين الـذي قـد يتخـذه الشـيطان رماحا تحارب بها ربك هـو أن تغيب عن الأنين بـرب الأنين.. فتتخـذ من هذا الذي أراد الشيطان أن يجعله نصـبا ليسـتل عقلـك وقلبـك وروحك، ويضمك إلى حزبـه، معراجـا تعرجـا بـه إلى ربـك، وسـلما تـرتقي بـه إلى سـموات لم تحلم بهـا في حـال طمأنينـة جسـدك ورخائه)

قلت لمعلم السلام: ما هذه القاعة؟

قال: هذه قاعة الغيبـة باللـه، وهي القاعـة الـتي يمـوت فيهـا

الألم انشغالا بالله.

قلت: فما تلك الآية، وما علاقتها بهذه القاعة؟

قال: ما تقول الآية؟

قلت: هـؤلاء نسـوة تهن في جمـال يوسـف، فقطعن أيـديهن لفرط ذهولهن، ومـع ذلـك لم يشـعرن بمـا حصـل في أيـديهن من الألم(1).

قال: فكيف لو رأين جمال رب يوسف، وكيف لـو غـرقن في بحار حبه المقدسة؟

ثم التفت إلي، وقال: أتدري ما قيمة غيبتك عن الأنين؟

قلت: أجل لقد قال بديع الزمان: (كلـما استعظمت الـمصائب الــمادية عظُمت، وكلــما استصـغرتَها صـغرت)(2)، وأعظم احتقـار واستصغار هو عدم الالتفات إليها، أو الاهتمام بها، كمـا لا يهتم بكـل صغير حقير.

ويضرب الإمام بديع الزمان مثلا على ذلك بقولـه: (كلمـا اهتم الانسان بـما يتراءى له من وهم ليلاً يضخـم ذلك في نظـره، بينــما إذا أهملــه يتلاشـى، وكلــما تعـرض الانسـان لـوكر الزنـابير ازداد هجومها، وإذا أهملـها تفرقت)(3)

1) أثبت العلم الحديث هـذا، ففي دراسـة موثقـة تحت عنـوان (إشـارة قرآنيـة إلى ظاهرة شد الانتباه في تقليل الشعور بالألم) انطلقت من الآية التي ذكرناها، جاء فيها أنـه تم إجراء تجربة اسـتخدام العلاج بشـد الانتبـاه برؤيـة منـاظر خلابـة من الطبيعـة وسـماع شريط يحتوي على أصوات رائعة من الطبيعة في التخفيف من الآلام أثناء عمليـة منظـار الشعب الهوائية وذلك بالإضـافة للعلاج المعتـاد. وقـورنت هـذه المجموعـة من المرضـى بمجموعة أخرى ضابطة لم تتلق العلاج الإضافي بجذب الانتباه (تغيير التركيز الإدراكي).

وخلص هـذا البحث إلى أن العلاج بشـد الانتبـاه مـع العلاج التقليـدي أدى إلى تقليص الشعور بالألم بصورة ذات دلالة إحصـائية، وأوصـى البحث بـأن يقـوم الأطبـاء باسـتخدام الإجراءات الطبيعية بالإضافة إلى المسكنات المعتادة.

2) اللمعة الثانية: 17.

3) اللمعة الثانية: 17.

قال: صدقت، وقد سمعته، وهو يصـرح بالـدعوة إلى مـا دعـا إليه الأوليـاء من إحلال الابتسـامة محـل الأنين، فيقـول: (نعم..! إن الإنسان مثلـما يخفف حدَّة خصمه باستقبالـه بالبشـر والابتسـامة، فتتضاءل سَورة العـداوة وتنطفىء نـار الــخصومة، بـل قـد تنقلب صـداقةً ومصـالحة، كـذلك الأمـر في اسـتقبال البلاء بالتوكـل على القدير يذهبُ أثره)(4)

قلت: هل سمعته بأذنك؟

قال: دعك من هذا.. وقل لي: ما تشعر؟

قلت: لا أكتمك ـ يـا معلم ــ أني لا تـزال في روائح الاعـتراض المنتنة.

قال: فما تقول لك؟

قلت: تقــول لي: (مرضــي خطــير، ودائي مســتعص، والآلام تفتـك بي.. فـأنى لي أن أنشـغل، وكـل خليـة مـني تتـألم.. وهـل ينشغل عن النار من اشتمل عليه لهيبها، فلم يدع له متنفسا؟)

قـال: فاسـمع لمـا يصـيح بـه الربـانيون العـازفون على أوتـار الحقيقة مخبرين عن الترياق الفعال لهذا الألم المكنون.

سمعت صوتا يقـول: لقـد أخـبر بعض الصـالحين عن القـدرة العجيبة التي يتحملها المنشغل بالله، لما سئل: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا، قـال: وإن ضـرب بالسـيف قـال: (نعم وإن ضـرب بالسيف سبعين ضربة، ضربة على ضربة)

قـال لي المعلم: أتـدري مـا سـبب بطلان إحسـاس المحـبين بالآلام؟

قلت: لقد مثل الغزالي ذلك بالرجل المحارب، فإنـه في حـال

4) اللمعة الثانية - ص: 17.

غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه الجراح، وهو لا يحس بألم ذلك لشغل قلبه.. ثم بين علة هذه الحالة وقانونها الذي لا يختص بالمحبين لله، فقال: (وكل ذلك لأنّ القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتمّ له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه؟)(1)

وقد ذكر الغزالي الأمثلة الواقعية الكثيرة على هذا، فذكر أن هناك من يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلمه.

وذكر عن بعضهم يجري عليه ذلك أنه قال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحركني.

وذكر عن بعضهم أنه قيل له: هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا غلاما سيدخل عليكم الساعة، فما كان إلا سريعاً حتى دخل الغلام، فقال له: من أين جئت يا غلام؟ فقال من موضع كذا ـ وكان طريقه على السوق ـ فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحداً.

وحكى عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداً منهم، فتقدّمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى فقلت: أنت وحدك؟ فقال: معي ربي وملكاي فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال: أكثر خلقك شاغل عنك.

ودخل بعض الصالحين على أخيه وهو معتكف فوجده ساكناً

---

1) الإحياء: 4/347.

حسن الاجتماع لا يتحرّك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرّك لها شعرة.

قال المعلم: فإذا كان الحب والعشق من أعظم الشواغل، وكان ذلك في ألم يسير بسبب حب خفيف، فكيف يكون الأمر لو تصوّر في الألم العظيم بالحب العظيم؟

قلت: لقد بين بعض الصالحين كيف يتمكن المحب من قهر كل ألوان البلاء، فقال يحكي عن نفسه: مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس، فتبعته فقلت له: لم ضربت؟ فقال: لأني عاشق، فقلت له: ولم سكت؟ قال: (لأنّ معشوقي كان بحذائي ينظر إليَّ، فقلت: فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال: فزعق زعقة خرّ ميتاً.

قال: أتدري كيف يرى الربانيون المنشغل بذاته عن ربه، أو الذين يعبدون الله على حرف، فلم يعبروا من عبادته إلى معرفته، ولم يخرجوا من أنفسهم إليه.

قلت: كيف يرونه؟

قال: يرونهم قاصرين محاطين بأنواع الشوائب، وقد قيل لبعضهم: هاهنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فقصده فقال له: يا حبيب أخبرني عنك هل قنعت به؟ قال: لا، قال: أنست به؟ قال: لا، قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا، قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة؟ قال: نعم، قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة.

قلت: ما مراده؟

قال: مراده أنك لم يفتح لك باب القلب فترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب، وإنما أنت في طبقات أصحاب اليمين، لأن

مزيدك منه في أعمال الجوارح[1].

قلت: هذا كلام الغزالي في الإحياء.

قال: وهو كلام كل عارف، وكل سامع ببصيرته.

التفت لأسأله عن سر ذلك، فلم أره.. تأملت ما قاله، فإذا بي أجد هذا العلاج لا يختص بهذا الجانب فقط، بل إن له علاقة شـديدة بكل ما يرتبط بالسلوك من جوانب.

فالمنشغل عن نفسه ــ مثلا ــ بنظـر النـاس، أو أعـرافهم، أو رؤاهم مستعبد للناس، مملوك للمجتمع، ينصـرف عن الحـق علمـا وفهما وسلوكا وحياة بقدر انصراف المجتمع.

ولهذا اعتبر الغزالي من (شغل نفسه بطلب رضا الناس عنــه وتحسين اعتقادهم فيه) مغرورا، لأنه (لو عرف اللـه حـق المعرفـة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً؛ وأن ضـرره ونفعـه بـــيد الله ولا نافع ولا ضـار سـواه، وأن من طلب رضـا النـاس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، بل رضـا النـاس غاية لا تنال، فرضا الله أولى بالطلب)[2]

قـال لي معلمي صـائحا من أعمـاقي: ولهـذا كـان من سـنن الصالحين الانشـغال باللـه عن النـاس، كانشـغالهم بـه عن النفس، قال بعضهم لأخيه ناصحا: والله ما أقول لك إلا نصحاً إنــه ليس إلى السلامة من الناس من سبـيل، فانظر ماذا يصلحك فافعله؟

ونظر آخر إلى رجل من أصحابه فقال له: اعمـل كـذا وكـذا ـ لشيء أمره به ـ فقال: يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس، فــالتفت إلى أصحابه وقال: لا ينال عبـد حقيقـة من هـذا الأمـر حـتى يكـون بأحد وصفين؛ عبد تسـقط النـاس من عينــه فلا يـرى في الـدنيا إلا

1) الإحياء: 4/350.

2) الإحياء: 4/350.

خالقه، وأن أحداً لا يقدر على أن يضـره ولا ينفعـه. وعبـد سـقطت نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرونه.

وقيل لآخر: إن قوماً يحضرون مجلسـك ليس بغيتهم إلا تتبـع سقطات كلامك وتعنيتك بالسؤال؛ فتبسم وقال للقائل: (هوّن على نفسـك، فـإني حـدثت نفسـي بسـكنى الجنـان ومجـاورة الـرحمن فطمعت، وما حدثت نفسي بالسلامة من الناس لأني قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحيـيهم ومميتهم لم يسلم منهم)

وكيف لا يكون هـذا منطـق المؤمـنين إرضـاء للـه وقناعـة بـه وانشغالا بطلب رضاه ومدحه عن كـل رضـا، وغـيرهم من الرعـاع يقول:

مَنْ رَاقبَ النَّاس ماتَ غمَّا وفاز باللذة الجسورُ

***

قلت له، وقـد خشـيت أن يسـاء فهم كلام الأوليـاء: لكن ــ يـا معلم ـ قد يتصور قومي أن مراد الأولياء بالانشغال عن البلاء عــدم مواجهته والثورة عليه.

قال: لا.. أخطأوا في زعمهم، فـإن مـرادهم عـدم الاسـتغراق في البلاء، والغفلـة عن المصـالح الكثـيرة الـتي قـد يفوتهـا ذلـك الانشغال، وأهمها ترك الرسالة الـتي كلـف بهـا الإنسـان لأجـل مـا حصل لمطيته من عطب.

قلت: فهل تضرب لي عن ذلـك مثـالا أشـرح لهم بـه مقاصـد الأولياء؟

قال: مثل ذلك مثـل من كلـف بمهمـة خطـيرة يتوقـف عليهـا مصير حياتـه جميعـا، فحصـل لسـيارته في الطريـق مـا منعهـا من السير السليم، فماذا يفعل؟

قلت: هو بين أمرين لا ثالث لهما:

إما أن يتوقف مشتغلا بإصلاحها، منشغلا عن المهمة الخطيرة التي كلف بها، ولو أدى ذلك إلى فناء عمره في إصلاحها.

وإمـا أن ينظـر إلى مـدى اسـتعدادها للإصـلاح، فـإن أطـاق إصلاحها أصلحها، لأنها ستختصر له الكثير من مشاق الطريق، فـإن أبت الإصلاح تركها، واعتمد على وسائل أخرى يصل بها إلى تحقيق مهمته.

قال: وهكذا حال المنشغل عن بلائه والمنشغل به، فالمنشغل به ضيع مصلحتين: سيارته التي قد لا يفيده إصلاحها، ومهمتـه الـتي لا تساوي معها سيارته شيئا.

أما المنشغل عنها، فإنه وإن ضيع سيارته، فقد حفـظ مهمتـه، بل قد يرزق بالسعي ما يعوضه عما فاته.

قلت: ولعل هناك ثمارا أخـرى جليلـة لمـا ذكـروه، فالأطبـاء ـ اليـوم، كمـا كـانوا قبـل اليـوم ــ ينصـحون بالانشـغال عن الـداء، ويعتبرونه أسلوبا حكيما من أساليب الشفاء.

فخطر أكثر الأمراض هو ما تسببه لصاحبها من أنواع الإزعاج، وهو ما يؤثر بعد ذلـك على الصـحة، فـإذا مـا انشـغل المـريض عن مرضه بأي شاغل كان ذلك علاجه أو مقدمة لعلاجه.

قال: لقد ذكرتني ببعض الصـالحين كـان لـه أخ، وكـان يقربـه ويقبل عليه، فاعتل، فعاده، فقال:

مَرِضَ الحبـيبُ فَعُدتُهُ فمَرَضْتُ مِنْ حَذري عليهِ

وأتى الحبـيبُ يعودني فبَرِئْتُ مِنْ نَظَري إليهِ

فـالنظر إلى الحـبيب والانشـغال بـه كـاف في إعـادة القـوة الحافظـة للصـحة، وفيـه انشـغال عن الأوهـام الـتي يسـببها فـراغ

القلب.

قلت: الإحصائيات المعاصرة تثبت أن الكثير ممن يــتردد على العيــادات مصــابون بوســواس المــرض، الــذي هيجــه فيهم فــراغ قلوبهم، وانشغالهم بعالم الطين.

قال: ولهذا، فإن كثيرا من نزلاء هذا المستشفى يكتفون بهذه القاعة، فيرجعون إلى أهليهم بوافر الصحة من غير أن يــنزلوا على الأقسام الأخرى.

قلت: لقد قال بعض الصالحين يعبر عن هذا المعنى:

لقد هاجَ الفراغُ عليكَ شغلاً   وأسبابُ البلاءِ من الفراغِ

وقال آخر، وهو يبين قدرة الروح على ترميم أدواء الجسد:

دَوَاؤكَ فيكَ وما تَشْعُرُ   ودواؤكَ منكَ وما تبصرُ

وتحسبُ أنكَ جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ

قــال: إن الانشــغال باللــه، وإحلال الابتســامة بــدل الأنين هــو العلاج الذي لن تجد البشــرية في مســتقبل أيامهــا، بعــد أن تتخلص من زهوهــا، وتتخلى عن عبوديــة مــا ســمته إلــه العلم، إلا ذلــك العلاج(1).

---

1) العلم اليوم يقر بهذا بدرجة ما، ومن أمثلة ذلك الإقرار أن دراسة تجريبية كشفت في مراحلها الأولى أن مرضى القلب الذين يملكون إيمانا دينيــاً قويــاً، لــديهم قــدرة أكــبر على التماثل للشفاء وإكمال الفترة التأهيلية التي تعقب الإصابة.

و يحاول الباحثون في مركز غيسرنغ الطبي وجامعة باكنيل توسيع الدراســة لتحديــد علاقة الإيمان الديني ومدى تأثيرها الإيجابي على المدى البعيد على صحة القلب والأوعية الدموية.

و يأمل تيموتي ماكونيل رئيس وحدة إعادة تأهيل مرضي القلب في مركز غيسرنغر، وهو مستشفى مركز ضخم لأمراض القلب يضم 437 مريضاً في تأمين موافقة مائــة من مرضى القلب لإجراء دراسة موسعة في إطار زمني مدته خمســة أعــوام.و في الدراســة التجريبيــة اســتعان ماكونيــل ب21 مريضــا بينهم من أصــيب مــؤخراً بــأول نوبــة قلبيــة أو أجريت لهم عملية لتوسيع الشرايين.

قلت: صحيح ما قلت، فهذه الأدوية التي سنها النبي ﷺ كلها ترجع إلى تغليب الانشغال بالله عن الاستماع لوساوس الشياطين، فالانشغال بالله يجعل في الإنسان قوة جبارة تقهر كل الأمراض.

قال: لو تأملنا الأدعية التي كان يدعو بها ﷺ لوجدنا فيها الكثير من هذه المعاني.. بل لو تأملنا القرآن الكريم لوجدناه علاجا ربانيا لكل الأدواء، لاشتماله من المعارف الإلهية ما ينفي جميع أنواع العلل، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِلُ مِنَ القُرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ لِلمُؤمنينَ ﴾ و(من) هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فالقرآن الكريم كله شفاء لمن استطب به.

قلت: نعم إن قومي يستشفون بالقرآن، والرقاة ـ بحمد الله ـ ينتشرون في كل مكان، لا يسمعون بعليل إلا زاروه، ولا بمسكون بمسكون إلا أحرقوا من يسكنه؟

قال: لا.. ليس العلاج القرآني ما يتوهمه هؤلاء المشعوذون، وإنما هو ماتفرزه معاني القرآن الكريم في قلب متلقيها من إخلاص العبودية لله، وتفويض الأمر كُله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها.

قلت: ولكن من الذي ينشغل عن النار، وهي تتقد في جسده؟.. ومن الذي لا تحركه الأعاصير، وهي تكاد تجتث من حوله؟.. وكيف لا يلسع بالزنابير من يعيش في قرية الزنابير؟

قال: إن النصوص المقدسة تدلنا على حصون كثيرة يمكن اللجوء إليها لتخفيف حدة البلاء، بل لرفعه، وهي في جمالها وقوتها ومتانتها أعظم من كل لباس يقي من حر النار أو من لسع الزنابير أو من اجتثاث العواصف.

قلت له: فداوني بها.

قال: سأذكر ثلاثة أدوية تجعل القلب منشغلا بالله مجتمعا به

جالسا معه، ومن جلس مع الله فني عن غيره.

وهي ثلاث مراتب، كل ينال منهـا بحسـب درجتـه من الـدين، ومحله من القرب، وقد تتعاقب عليه اللحظات، فينـال حظـه منهـا جميعا: ﴿ كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَـؤُلاءِ مِنْ عَطَـاءِ رَبِّكَ وَمَـا كَـانَ عَطَـاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾(الاسراء:20)

قلت: فما الأولى؟

قـال: محبـة اللـه، وهي أعلى المـراتب، من ينالهـا يغيب عن بلائه، كما يغيب عن نفسه، وعن الكون جميعا.

قلت: والثانية؟

قال: الرضى عن الله، فرحا بما قدر، وسرورا بما أنزل، وهي نتيجة للمعرفة، وثمرة للمحبة.

قلت: والثالثة؟

قال: السكون لمقادير الله، وعدم الاعتراض عليه.

قلت: فهل لهذه الأدوية قاعات خاصة بها.

قال: أجل.. فلكل منزلتـه لا يعـدوها، ألم تسـمع قولـه تعـالى: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (الصـافات:164)، فكـل مـا في هـذه العوالم لا يجاوز مقامه ولا يحيد عنه، فلذلك لا ترى إلا السلام.

حب الله:

دخلت قاعة تكاد تميد بالأشواق.. وقد علقت عليها لافتة كتب عليها بحروف من نور قوله تعالى:﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ ﴾ (المائـدة:54)، فأحسسـت بقلـبي يمتلئ بشـوق عظيم ومحبـة متدفقـة، وكـأن أعضائي جميعا قلوبا تخفق.. سمعت صوتا في أرجاء القاعة يقول: (هنا إكسير الهموم، من ذاقه لم تحل بواديـه المصـائب، ولم تـنزل

بساحته الأحزان)

قلت للمعلم: ما هذا الإكسير؟ وما هذه القاعة؟

قال: هذا إكسير الانشغال بحب الله والشوق إليه، وهو إكسير يغيبك عن البرودة والحرارة، ويفنيك عن الصحة والسقم.. وهذا إكسير الأولياء، فلذلك استغنوا عن الراقي والطبيب.

سمعت أصواتا تتزاحم على بصيرتي، فقلت للمعلم: ما هذه الأصوات؟

قال: أصخ سمعك، فهي أصوات أطباء هذا الباب.

قال الأول: أوحى الله إلى داود ﵇: (ما لأوليائي والهم بالدنيا، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، يا داود إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون)

وقال الثاني يترنم بلحن جميل:

وإنْ خَطَرَتْ يَوماً على خاطِرِ	أقامَتْ بهِ الأفْراحُ، وارتحلَ
ولو نَظَرَ النَّدمانُ ختْمَ إنائِها،	لأسكرهمْ منْ دونها ذلكَ
ولو نَضَحوا مِنها ثَرى قَبْرِ	لَعادَتْ إليهِ الرُّوحُ، وانْتَعَشَ
ولو طرحوا في فئِ حائطِ	عليلاً وقدْ أشفى لفارقهُ
ولوْ قرَّبوا منْ حلها مقعداً	وتنطقُ منْ ذكري مذاقتها
ولوْ عبقتْ في الشَّرقِ	وفي الغربِ مزكومٌ لعادَ لهُ
ولوْ خُضبتْ منْ كأسها كفُّ	لما ضلَّ في ليلٍ وفي يدهِ
ولوْ جليتْ سرَّاً على أكمهٍ	بصيراً ومنْ راو وقها تسمعُ
ولو أنّ ركْباً يَمّمَوا تُرْبَ	وفي الرَّكبِ ملسوعٌ
ولوْ رسمَ الرَّقي حروفَ	جبينِ مصابٍ جنَّ أبرأهُ

وفوقَ لِواء الجيشِ لو رُقِمَ | لأسكرَ منْ تحتَ الِّلوا ذلكَ
تُهَذِّبُ أخلاقَ النّدامى ، | بها لطُريقِ العزمِ منْ لالهُ
وَيَكْرُمُ مَنْ لم يَعرِفِ الجودَ | ويَحلُمُ، عِندَ الغيظِ، مَن لا
ولُو نالَ فَدْمُ القَوْمِ لَثْمَ | لأكسَبَهُ مَعنى شَمائِلِها اللّثْمُ

قلت: عرفتك.. أنت..

قال: دعك من اسمي، واسمع الحقائق من الله، لا من خلقه.

قال الثالث: إن الحب يحول المر حلواً، والتراب تبراً، والكدر صفاءً، والألم شفاءً، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت، وينفخ فيه الحياة..

إن هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء، ويصل من السمك إلى السماك، ومن الثرى إلى الثريا.

.. بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم في ملكهم وأموالهم!! لا ننازعهم في شيء. أما نحن فأسارى دولة الحب التي لا تزول ولا تحول.. !

حياك الله أيها الحب المضني! يا طبيب علتي وسقمي! يا دواء تخوفي وكبري! يا طبيبي النطاسي! يا مداوي الآسي!

قلت: عرفتك.. أنت جلال الدين الرومي.

قال: دع عنك هذا.. فلم أعد جلال الدين، ولا جمال الدين؟

قلت: فما صرت؟

قال: أنا عبد الله.. أنا النقطة التي تحت الباء.. وحسبي بذلك شرفا.

قلت للمعلم: حدثني كيف عاش الأولياء هذه المعاني.

قال: لقد كان بلال وهو في رمضاء مكة يشعر بهـذا الشـعور، حين كان المشـركون يتفـانون معـه بأصـناف البلاء، فيفـنى عنـه بـ (أحد أحد)

وكان لبعضهم علة، فقيل له في ذلك فقال: يا دوست ضـرب الحبـيب لا يوجع.

وكان بعضهم يستشعر هذه المعاني، وهو ينظـر إلى تصـريف الله في جسده، قال: كنت يومـا عنـد خـال لي، وكنـا خـاليين وهـو متزر بمئزر فنظـرت إلى جسـده كأنـه جسـد سـقيم دنـف مضـنى كأجهد ما يكون فقال: (انظر إلى جسدي هذا، لو شـئت أن أقـول إن ما بي من المحبـة للـه تعـالى لكـان كمـا أقـول)، وكـان وجهـه أصفر، ثم أشرب حمرة حتى تورد، ثم اعتل فـدخلت عليـه أعـوده، فقلت له كيف تجدك، فقال:

كيف أشكوا إلى طبيبي ما بي والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة أروحه فقال لي: (كيـف يجـد روح المروحـة من جوفه يحترق من داخل؟)

وكان عابد المصيصة يستشعر هذه المعـاني حين رأى نفسـه ملكا يلتذ بها، قـال علي بن الحسـن: كـان رجـل بالمصيصـة ذاهب نصفه الأسفل لم يبق منه إلا روحـه في بعض جسـده، ضـرير على سرير مثقوب فدخل عليـه داخـل فقـال لـه: كيـف أصـبحت يـا أبـا محمد؟ قال: (ملك الدنيا، منقطع إلى الله عز وجل، ما لي إليه من حاجة إلا أن يتوفاني على الإسلام)

قال لي المعلم: أتعلم سر استغراق هذه المشـاعر للوجـدان جميعا؟

قلت: ما سر ذلك؟

قال: الحب هو أعظم المشاعر الوجدانية التي تستغرق الكيان، فتمنعه من التفكير في غيره، بل لا شيء يساوي الحب في هذا الدور، فلذلك كان أعظم شاغل عن البلاء هو استعماله دواء لقهر وساوس الداء.

قلت: لكن قومي يعرفون الحب أكثر مما يعرفون غيره.

قال: هم يعرفون الحب المدنس.. لا المقدس.. فلذلك يغرقون في دنسه، وفي مستنقعاته.

قلت: فما الحب المقدس؟

قال: هو حب واحد..

قلت: فما هذا الحب الواحد؟

قال: حب الواحد.. فحب كل ما عداه داء وألم، ألم تسمع قول العارف الذي عبر عن اجتماع كل الآمال والأهواء واللذات في حبه لله؟

قلت: تقصد قوله:

كانت لقلبي أهواءٌ مفرّقة

فصار يحسدني من كنت   وصرتُ مولى الورى مُذْ

ما لامني فيك أحبابي   إلّا لغَفلتهم عن عظم

تركتُ للناس دنياهم   شغلاً بحبك يا ديني ودنيائي

أشعلتَ في كبدي نارين   بين الضلوع وأخرى بين

قال: الغارقون في بحر هذا الحب لا يرون غير محبوبهم، وهو لا يغيب عنهم أبدا.. هم يصيحون في كل حين بما قال حاديهم:

تَملَّكتموا عقلي وطرفِي وَرُوحِي وأحشائِي وَكلي
وتيّهتُمَونِي فِي بديع جَمالِكُم وَلَم أدر فِي مَجرَ الهَوَى أينَ
وأوصَيتُمونِي لا أبوح بسرِّكُم فَباحَ بِما أُخفِي تفيضُ
ولَمَّا فَنَى صبري وقلَّ وفارَقَنِي نَومِي وحُرِّمَت
أَتَيت لِقاضي الحُبِّ قُلتُ جَفَونِي وقَالُوا أنت فِي
وعندي شهودٌ للصَبابةِ يزكُّونَ دعَّوايَ إذا جئتُ
سُهادي وَوَجدي واكتئابِي وشوقي وسقمي واصفراري
ومن عجبٍ أَنِّي أَحنُّ إِلَيهِم وأسألُ شوقاً عنهم وهمُ
وتبكيهُم عينِي وهم فِي ويشكو النَّوى نبِي وهم بين
فَإِن طَلبونِي فِي حُقوقِ فإنِّي فَقِيرٌ لا عليَّ ولا معي
وَإِن سجنونِي فِي سجونِ دخَلتُ عليهم بالشفيعِ

لقد قال بعضهم: رأيت جارية حبشية فقلت: من أين؟ قالت: من عند الحبيب قلت: وإلى أين؟قالت: إلى الحبيب قلت: ما تريدين من الحبيب قالت: الحبيب.

وعندما تعجب بعض أصحاب معروف من كثرة مجاهداته في الله سأله: (أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت فقال: ذكر الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا.

قلت: لقد ذكرتني ـ يا معلم ــ بحديث امرأة صالحة[1] فيها

1) أما كامل حديثها فقد ذكرناه في رسالة (بحار الحب)، وقد ذكرنا في بدايتها أنه لا يهمنا في هذه الحكايات التحقيق في سندها، فليست هي بالعلم الذي نبني عليه عقيدة، أو ننهج من خلاله سلوكا.

نبصر مدى القـوة الـتي يمنحهـا حب اللـه في النفس فتواجـه كـل صعب وتتحدى كل ألم.

قال: تقصد (بدعة).. سنزورها في (بحـار الحب)، فحـدثنا عن بعض شأنها هنا.

قلت: قال المحدث بخبرها(1): ضاقت علي نفسي يوما فقلت في نفسي: أخرج إلى المارستان، وأنظر إلى المجانين فيه، وأعتبر بأحوالهم فخرجت إلى بعض المارستانات، وإذا بامرأة مغلولة يـدها إلى عنقها، وعليها ثياب حسان وروائح عطرة، وهي تنشد:

أعيذك أن تغل يدي ... بغير جريمة سبقت
تغل يدي إلى عنقي ... ما خانت ولا سرقت
وبين جوانحي كبد ... أحس بها قد احترقت
وحقك يا مدى أملي ... يمينا برة صدقت
فو قطعتها قطعا ... وحقك عنك لا نطقت

فقلت لصاحب المارستان: (ما هـذه)، فقـال: (مملوكـة خبـل عقلها، فحبست لتصلح)، فلما سمعت كلامه أنشدت:

معشر الناس ما جننت ... أنا سكرانة وقلبي صاح
لم غللتم يدي ولم آت ذنبا ... غير هتكي في حبه
أنا مفتونة بحب حبيب ... لست أبغي عن بابه من
فصلاحي الذي زعمتم ... وفسادي الذي زعمتم
ما على من أحب مولى ... وارتضاه لنفسه من جناح

قال سري فسمعت كلاما أبكاني فلما رأت دموعي قالت: (يا

أما ما قد يبديه البعض من الاستغراب وتوهم التلفيق فيها، فلا نـراه كـذلك، فلأوليـاء الله وأهله من الشؤون ما لا يمكن التعبير عنه.

1) ننقل الحكاية مع بعض التصرف.

سري هذه دموعك على الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟)

فقلت: (هذا أعجب.. من أين عرفتني؟)

قالت: (ما جهلت منذ عرفت أن أهل الدرجات يعرف بعضهم بعضا)

فقلت: (يا جارية أراك تذكرين المحبة فمن تحبين؟)

قالت: (لمن تعرف إلينا بآلائه، وتحبب إلينا بنعمائه، وجاد علينا بجزيل عطائه، فهو قريب إلى القلوب مجيب تسمى بأسمائه الحسنى، وأمرنا أن ندعوه بها فهو حكيم كريم قريب مجيب)

قال معلم السلام: سق هذا الحديث لقومك ليستعملوا هذا العلاج في مداواة الأمراض النفسية والعصبية التي تعج بها مستشفياتكم.. فذلك خير لكم من تلك السموم التي تسممونهم بها.

الرضى عن الله:

خرجت من قاعة الحب بإلحاح شديد من المعلم، فقد أنست لأنوارها وأصوات أوليائها، وما استشعره كياني من مواجيد وأشواق تنسي كل ألم، وتثمر كل راحة.

قال لي المعلم: ألم أقل لك: لا تسكن لشيء.. ارحل دائما، فلا يتعلم من لا يرحل؟

قلت: أجل.. ولكني رأيت نفسي في ذلك المحل، فلم أرد الخروج منه.

قال: ستجد نفسك في كل محل.. ولن تعرفها إلا بعد أن تدخل كل المحلات.

قلت: فأين نسير الآن؟

قال: إلى قاعة (الرضـى)، فهـو العلاج الثـاني الـذي تغيب بـه النفس عن نفسها، فتنشغل عن بلائها.

دخلنا قاعة ممتلئة سكينة وجمالا، وقد علقت عليهـا لافتـة من نـور كتب عليهـا قولـه تعـالى: وَرَضُـوا عَنْـهُ (المائـدة:119)، وسـمعنا أصـواتا عذبـة عنـد مـدخل البـاب تقـول: (إذا رأيت قلبـك ممتلئا بالأغيار، واستحال عليك الاجتماع مع الله، والفناء عن ذاتـك، فانظر إلى صـفات كرمـه، ورتـل أسـماء لطفـه وإحسـانه، وتأمـل مـراده من ذلـك البلاء، فإنـك إن لم تبلـغ درجـة أن ترضـى بـه، فلا تنزل عن درجة أن ترضى عنه)

قلت: يا معلم، لقد ذكرني هذا الصوت الجميل بقـول بعضـهم يوماً عند رابعة: اللهم ارض عني، فقالت: أما تسـتحي من اللـه أن تسأله الرضا، وأنت عنه غير راض؟ فقال: أستغفر الله، فقيـل لهـا: فمتى يكون العبد راضياً عن الله تعـالى؟ قـالت: (إذا كـان سـروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة)

قال المعلم: لقد أشارت إلى أن للمصيبة سرورا عند العارف كما أن للنعمة سرورا، لأن ما يلحظه العارف في ثنايا المصيبة يبدد الظلمات التي ينفخها الحزن واليأس.

قلت: وهل للرضى من لذة؟

قـال: هي لـذة لا تقـل عن لـذة الحب، بـل إنـه لا يمكن أن يرضـى من لا يحب، كمـا لا يحب من لا يرضـى، ألم تعلم بـأن الرضوان أعلى الدرجات؟

قلت: لقد بين الله تعالى أن هذا هو مقام الصادقين مع ربهم، لا يزال رضاهم بالله ورضـاهم عنـه رائـد علاقتهم بـربهم إلى يـوم يلقونه، قال تعالى: قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّـادِقِينَ صِـدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا أَبَـداً مْ وَرَضُـوا عَنْـهُ ذَلِـكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (المائدة:119)

قال: بل نجد في القرآن الكريم أن كـل الآيـات الـتي تتحـدث عن الرضوان المتبادل بين الله تعـالى وعبـاده الصـالحين مرتبطـة بالجنة، وكأنها تشير إلى أن الرضـوان جنـة أخـرى من جنـان اللـه، وهي جنة لا تختص بالآخرة، بل تعجل للمؤمنين في الدنيا.

قلت: لقد ذكر الفخر الرازي ــ تعليقـا على ارتبـاط الرضـوان بالجنة في قوله تعالى: ﴿، جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَـداً مْ وَرَضُـوا عَنْـهُ ذَلِـكَ لِمَنْ خَشِـيَ رَبَّهُ﴾ (البينة:8) فقال: (ثبت عند أرباب الألباب أن جملة الجنـة بمـا فيهـا بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف والجنة مرغوب الشهوة، والرضوان صفة الحق وأي مناسبة بينهما)(1)

قـال: ويـدل على هـذا قولـه تعـالى وهـو يخـاطب النفس المطمئنة التي لا تقبض انتزاعا ـ كما تقبض أرواح المتمـردين على الله ـ وإنما تقبض بأمرها، بـالرجوع إلى بارئهـا فتطـير شـوقا إليـه، قـال تعـالى: ﴿، يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِـيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر:27،28)

وقوله ـ وهو يخبر عن حزبـه الـذي اعتـبر رضـوانه فـوق كـل رضوان ـ: ﴿، لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُـوَادُّونَ مَنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَـانُوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوَانَهُمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الْأِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِـرُوحٍ مِنْـهُ وَيُـدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا مْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا

---

1) التفسير الكبير، والفخر الرازي يخالف ـ بهذا ـ الأسلوب الجاف الذي يتعامـل بـه المتكلمون عادة مـع مثـل هـذه الأمـور، وقـد عقب على قولـه هـذا بقولـه:(وهـذا الكلام يشمئز منه طبع المتكلم الظاهري، ولكن كل ميسر لما خلق له)، وقال في موضـع آخـر: (وأما قوله تعالى:﴿ مْ وَرَضُوا عَنْـهُ ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (المائـدة:119) فهـو إشـارة إلى التعظيم. هذا ظاهر قول المتكلمين، وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بـأنوار جلال اللـه تعالى، فتحت قوله:﴿ مْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنـا اللـه من أهلها)

وقد بين الغزالي علة إنكار بعض المتكلمين للرضى بقولـه:(اعلم أنّ من قـال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر؟ فإنما أتي من ناحية إنكار المحبة، فأما إذا ثبت تصوّر الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أنّ الحب يـورث الرضا بأفعال الحبـيب)، الإحياء: 4/347.

إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادلة:22)

فالرضى عن الله شامل لكل ما جاء عن الله تشريعا كـان أم قضاء، فلا فرق بينهما، فكلاهما مقتضى أسـمائه الحسـنى وصـفاته العليا.

وقد قال تعـالى عن الأول: وَمَـا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (الأحزاب: 36)

وقال عن الثاني: قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ (الأنعام:164)، وقـال في أول السـورة: قُـلْ أَغَيْـرَ اللَّهِ أَتَّخِـذُ وَلِيّـاً فَـاطِرِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُـلْ إِنِّي أُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْـلَمَ وَلا تَكُـونَنَّ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (الأنعـام:14) أي معبودا وناصرا ومعينا وملجأ وهو من المـوالاة الـتي تتضـمن الحب والطاعة.

قلت: لقد ورد في السنة ما يدل على هذه اللذة الـتي يجـدها الراضي، فقـد قـال ﷺ: (إن اللّـه بحكمتـه وجلالـه جعـل الـروح(1) والفـــرح في الرضـــا واليقين وجعـــل الهم والحـــزن في الشـــك والسخط)(2)

فأول جزاء للراضي عن الله أن يرضى الله عنه ويرضيه، فإذا أرضاه رزقه من السعادة والسرور ما يهون أمامه كل ألم.. والرضا عن الله علاج يرسم الابتسامة بدل الأنين، فينشغل الراضي بفضل الله وأوصاف الله عما ألم به.

قال: وقد ورد في الأثر الإلهي: (أنـا اللـه لا إلـه إلا أنـا قـدرت المقادير ودبرت التـدابير وأحكمت الصـنع فمن رضـي فلـه الرضـا مني حتى يلقانى، ومن سخط فله السخط حتى يلقاني)

1) بفتح الراء أي الراحة وطيب النفس.

2) رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي.

قلت: فكيف كان حال الصالحين مع الرضا؟

قال: كل الصالحين متفقون على أن الرضا عن الله نعمة، ولكنه لا يجدها إلا من ذاقها، فلذلك ينقلون للخلق من باب التشويق أذواقهم في ذلك، وقد ورد في الأثر في أخبار موسى ﵇ أن ن بني إسرائيل قالوا له: سل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا، فقال موسى ﵇: (إلهي قد سمعت ما قالوا)، فقال: (يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم)

ويروى عن بعض العباد أنه قال: إني أذنبت ذنباً عظيماً، فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة ـ وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب ـ فقيل له: وما هو؟ قال: (قلت مرة لشيء كان، ليته لم يكن)

وقال ابن مسعود: (الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل)

قلت: فكيف ذاق العارفون من هذه المشارب الطاهرة؟

قال: لا يهم العارف كل ما يصيبه ما دام له فيه حظ من العبودية، كما قال ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر وكان خير له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[1]

وفي قوله ﷺ: (وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن) دليل على أن الخيرية والتي تعني الرضا والسرور لا ينالها إلا من تحقق بحقيقة الإيمان.

ولهذا، فإن الصالحين لا يهمهم شيء مما قد يصيب وجودهم في الدنيا بقدر ما تهمهم علاقتهم بربهم، وقد حدث بعضهم، فقال: سمعت عابدا من أهل البحرين يقول في جوف الليل، ونحن على

1) أحمد ومسلم عن صهيب.

بعض السواحل: (قرة عيني، وسرور قلبي، ما الـذي أسـقطني من عينك يا مانح العصم قال: ثم صرخ وبكى ثم نـادى: طـوبى لقلـوب ملأتها خشيتك واستولت عليها محبتك فمحبتـك مانعـة لهـا من كـل لذة غير مناجاتك، والاجتهاد في خدمتك، وخشـيتك قاطعـة لهـا عن كل معصية خوفا لحلول سخطك)، ثم بكى، وقال: (يا إخوتاه ابكـوا على خوف فوت الآخرة حيث لا رجعة ولا حيلة)

فهمة الصالحين منصرفة للبحث عن رضـوان اللـه، والخـوف من سخطه، ولا يهمها بعد ذلك ما يحل بهـا، فهي تبحث عن رضـى الله عنها لا عن رضاها هي على الله.

قلت: يا معلم.. فكيف أتحقق بهـذا الرضـى الـذي يمسـح عن قلبي كل الآلام؟.. وكيف ألتحق بركب الأوليـاء الشـاربين من هـذه العين؟

قـال: بترتيـل أسـماء لطفـه، والنظـر في جميـل صـنعه، والاستغراق في سابق إحسانه، والأمل في جميل أفضاله.

قلت: كيف أستعمل هذا العلاج؟

قال: أرأيت لو أحسنت إلى أحدهم دهرك جميعـا بمعشـار مـا أحسن الله إليك، بل بمعشار المعشار، أترضى أن يسخط عليك.

قلت: كلا.. فهذا فعل الجحود.

قال: فكيف لا ترضى على من لا خير إلا منه، ولا فضل إلا في يديه الكريمتين؟

قلت: لقد ذكرتني بقول بعض الصـالحين: إنَّ اللـه تعـالى من كرمه قد رضي من عبـيده بما رضي العبـيد من مواليهم فقيل لــه: وكيـف ذاك؟ قـال: أليس مـراد العبـد من الخلـق أن يرضـى عنـه مولاه؟ قيل: نعم، قال: فإن محبة الله من عبـيده أن يرضوا عنه.

قال: أجل.. فالرضى عن الله هو ما يوجبه حسـن الخلـق مـع الله، ولو تأمل المعـترض على ربـه حقيقتـه لوجـدها أهـون من أن تعارض الحق، فكيف يجسر على ذلك، وهو لا يعدو أن يكون حفنـة تراب.

قلت: لقـد قـال بعضـهم في هـذا: (لن يصـيب العبـد حقيقـة الرضـا حـتى يكـون رضـاه عنـد الفقـر كرضـاه عنـد الغـنى، كيـف تستقضـي اللـه في أمـرك ثم تسـخط إن رأيت قضـاءه مخالفـا لهواك، ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لـك فيـه هلكـك، وترضـى قضاءه إذا وافـق هـواك؟ مـا أنصـفت من نفسـك ولا أصـبت بـاب الرضا)

قال: بل، لقد اتفقت كلمة الصالحين على هذا المعـنى، فهـذا أحـدهم يقـول: (الإنسـان خـزف، وليس للخـزف من الخطـر مـا يعارض فيه حكم الحق تعالى)

وعبروا عن أحوالهم في ذلك، فقال عبد الله بن مسعود: (لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت مـا أبقت أحب إليَّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان)

وقال بعض الصالحين: (لو قـرض جسـمي بالمقـاريض لكـان أحب إلي من أن أقول لشيء قضـاه اللـه تعـالى سـبحانه ليتـه لم يقضه)

وحـدث آخـر، فقـال: قـال رجـل: لأمتحنن أهـل البلاء. قـال: فدخلت على رجل بطرسوس وقد أكلت الآكلة أطرافه. فقلت لـه: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت والله وكل عرق وكل عضو يـألم على حدته من الوجع، وإن ذلك لبعين الله أحبه إلي أحبه إلى اللـه، ومـا قدر مـا أخـذ ربي مـني؟ وددت أن ربي قطـع مـني الأعضـاء الـتي اكتسبت بها الإثم، وأنه لم يبق مني إلا لساني يكون له ذاكرا. قال: فقال له رجل: متى بدأت بك هذه العلة؟ فقال: الخلـق كلهم عبيـد

الله وعياله، فإذا نزلت بالعباد علة فالشكوى إلى الله ليس يشتكى إلى العبيد.

قلت: هذا سبيل صالح.. فما السبيل الثاني؟

قال: إذا اشتقت أن تلبس لباس الرضى، وتسكن مع الراضين في جنة الأمن والفرح والسرور، فردد مع النبي ﷺ هذا الدعاء الذي يسأل الله فيه أن يرزقه بالرضى بالقضاء فلا ينال ما عند الله إلا من يد الله، قال ﷺ: (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين)(1)

وردد معه: (اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضى بالقدر)(2)

فإن صدقت في دعائك، وألححت فيه كما يلح الغريق طالبا النجدة، فسيرزقك الله فهم حقيقة الرضا، والشرب من شرابه.

قلت: فكيف يرزقني؟

قال: أول رزق يسوقه إليه هو تعريفك به، فإذا عرفته عرفت حقيقة العلم، قال بعض الصالحين: (الرضى هو صحة العلم الواصل إلى القلب، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضى)، فقد اعتبر الرضى علامة على وصول العلم للقلب، لأن

1) الترمذي والحاكم، والنسائي.

2) البيهقي.

العلم المحجوز في زوايا العقل أضعف من أن يحقق لصـاحبه هـذا المقام الرفيع.

قلت: ولكنا نعرف حقيقة العلم من دون هذا؟

قال: لا.. حقيقة العلم أن تشربه لا أن تسـمعه، وأن تعيشـه لا أن تكتبه.. فالعلم الذي لم يوصل صاحبه إلى الحقيقة كالدواء الذي لم يستعمل، فإن صاحبه يظل مريضا، ولو ظل يردده أبد الدهر.

وقد شـبه الغـزالي من لم يعش علمـه برجـل في بريـة، ولـه عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعا وأهــل حـرب، فحمـل عليـه أسـد عظيم مهيب، (فمـا ظنّـك؟ هـل تـدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها!؟)

وقياسـا على هـذا (لـو قـرأ رجـل مائـة ألـف مسـألة علميـة وتعلمها، ولم يعمل بها: لا تفيده إلا بالعمل)[1]

قلت: فما طريق وصول القلب لهذه المعاني؟

قال: بالمجاهدة، والمصابرة، وقـد قيـل لبعضـهم: (مـتى يبلـغ العبد إلى مقام الرضى)، فقال: (إذا أقام نفسه على أربعـة أصـول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت)

السكون لمقادير الله:

خرجت مع المعلم إلى القاعة الثالثة من قاعات الغيبـة باللـه، وهي قاعة (السكون لمقادير الله)، وقـد علـق على بابهـا لـوح من نور كتب عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَـا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَـى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب:36)

سمعت في مدخلها أصواتا حانية قوية تقـول: (إن لم تسـتطع

1) رسالة (أيها الولد) لأبي حامد الغزالي.

أن تبلغ تلك الدرجات الرفيعة التي نزلها الأولياء، فنـالوا بهـا الفـرح والرضــوان، فلا تــنزل إلى دركــات المعرضــين المعارضــين للــه، فتخسر خسارتين عظيمتين:تخسر ربك الذي لا يرضـى أن يعـارض في ملكه أو يعقب عليه في تدبيره.. وتخسر صحتك وراحتـك الـتي لن يعوضها اعتراضك)

قلت: يــا معلم.. مــاذا تقــول هــذه الأصــوات؟.. ومــا هــذه القاعة؟.. ومـا الفـرق بينهـا وبين القاعـة السـابقة؟.. فـإني لا أرى الرضى إلا سكونا لمقادير الله.

قال: هذه القاعـة تجيب الشـبهة الـتي ينفخهـا الشـيطان في نفسك، وفي كل النفوس الضعيفة، ليقول لها: (كيف ترضــي عنــه، وهو يسومك بأنواع البلاء، أليس هو الطبيب الشافي؟)

قلت: فهي ترد إذن على أحزاب المعارضة لله.

قال: وهي أحزاب كثيرة، كـل حـزب يرفـع رايـة من الرايـات يدعو فيها إلى عزل الله عن التصريف في الكون.

قلت: وأين هي؟

قال: في نفسك.. وفي كل النفوس التي لم تذق لـذة الرضـا عن الله.

قلت: فكيف أقمع هذه الأحزاب المعارضـة للـه.. وليس لـدي شرطة ولا جيش؟

قال: السلام لا يعرف الشرطة والجيش.

قلت: فكيف أقضي على هذه الأحزاب المعارضة لله؟

قال: بالمعرفـة.. ألم يكن أول مـا نـزل على رسـول اللـه ﷺ الأمر بالقراءة؟

قلت: فماذا أقرأ؟ وكيف أقرأ؟

قال: اقرأ المعارف التي تجعلك ساكنا لمقادير الله، لا معارضا لها.

قلت: فأين أجد هذه المعارف؟

قال: ستسمع من أطباء هذه القصر بسمع بصيرتك ما يضع في نفسك بذور ذلك، وليس عليك بعدها إلا أن تسقيها وتتعاهدها إلى أن تنبت شجرة الرضا في نفسك.

سمعت أصواتا كثيرة تزدحم على أذن بصيرتي، وهي من كثرتها شوشت علي، فلم أدر ما أسمع.

قال لي المعلم: هل تسمع ببصيرتك.

قلت: أسمع.. ولكني لا أسمع.

قال: لم؟

قلت: الأصوات تزدحم على بصيرتي، فلا تكاد تفهم ما تقول.

قال: اسكن.. ألست في قاعة السكون لمقادير الله.. فمن لم يسكن لم يسمع.. أو سمع ولم يفهم.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (القيامة:16)؟

قلت: بلى.

قال: فقد أمره بالسكون ليحصل له العلم.

استرخيت.. وسكنت سكونا هادئا أشبه بالنوم، فسمعت أصواتا مختلفة(1)، منها الحانية، ومنها الشديدة تتردد في جوانب

---

(1) اقتبسنا أكثر هذه المعاني من الكتب المرتبطة بهذا الجانب، مثل حكم ابن عطاء الله والإحياء وكليات رسائل النور، وغيرها من المراجع، وقد لخصناها بهذا الأسلوب لتسهل الاستفادة منها.

القاعة تمتلئ بها بصيرتي.

قال الأول: ما أصـابك لم يكن ليخطِئَك، ومـا أخطـأك لم يكن ليصيبك.

قلت: بلى.. هذا صحيح، فقد قال تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (الحديد:22)

ويعقب على ذلـك بـأثر هـذه المعرفـة في النفس الإنسـانية بقوله تعالى: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَـا آتَـاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (الحديد:23)

ويقول تعالى في آية أخـرى: مَـا أَصَـابَ مِنْ مُصِـيبَةٍ إِلَّا بِـإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (التغـابن:11) فالعوض الإلهي في هذه الآية عن النقص الذي جلبتـه المصـيبة هـو الهداية المرتبطة بقلب الإنسان، وهي الهداية الحقيقيـة الـتي تجـر إلى المعرفة التي لا يشوبها الجهل، وإلى العلم الذي لا يختلـط مـع الأهواء.

ويعلمنا في آيـة أخـرى مـا ينبغي أن نقولـه، ثم النتيجـة الـتي جعلها الله لمن يفعل ذلك، فقال تعالى: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِـيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (البقرة:156)

والفضـل الإلهي النـازل على هـؤلاء هـو مـا عـبر عنـه تعـالى بقولـــه: أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَـــلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَـــةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (البقرة:157)

قـال المعلم: فـإذا اسـتقر في النفس الإيمـان بقضـاء اللـه وقدره، وأن الذي أصابه لا بد أن يصيبه، وأنـه أمـر لا مفـر منـه، ولا مهرب منـه لأن اللـه قـد كتبـه في الأزل؛ فـإن نفسـه تهـدأ، وقلبـه يسكن، ويكون هذا بداية ومقدمة للسكون لمقادير الله.

قال صوت آخر: لا تعترض.. فأنت تجمع الجهل بأشكاله وألوانه.. تجهل نفسك ومصيرك، وعواقب أمورك، أما سيدك الذي يدبر أمرك، فعلام الغيب: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:59)

وقال آخر: لا تعترض.. فإن ما تراه مما تكرهه رحمة من رحمات الله، ولطف من خفي ألطافه ساقه إليك في ثوب ما تكره ليمتحن عبوديتك، ويملأ قلبك بحسن الظن به:

رب أمر تتقيه　　　جر أمرا ترتضيه

خفي المحبوب منه　　　وبدا المكروه فيه

قلت: هذا صحيح، وقد قال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:216)، وقال: ﴿، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ (النساء: 19)

وقال آخر: لا تعترض.. فإن كل مقادير الله خير لك إن استقبلتها ببصيرة الإيمان.

قلت: هذا صحيح، فقد قال ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر وكان خير له إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)(1)

وقال آخر: لا تعترض.. وكن كذلك العبد الصالح الذي لم تغره مباهج جنة صاحبه، وقال في ثقة المؤمن: ﴿ عَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ (الكهف:40)

وقال آخر: لا تعترض.. فإن من ظن انفكاك لطفه عن قدره،

---

1) مسلم.

فـذلك لقصـور نظـره، فـإن العـارفين يشـهدون المنن في المحن، والعطايا في البلايا.

وقـال آخـر: لا تعـترض.. فـإن من تمـام عبوديتـك أن تجـري عليــك مقــادير اللــه بأنواعهــا، وتهب عليــك ريــاح البلاء لتمتحن عبوديتك.

وقــال آخــر: كيــف تعــترض، وأنت لن تــرقى في مقامــات العبودية إلا بهذا الذي تعترض عليه؟

وقال آخر: كيف تعترض، وأنت لن تكون صابرا، ولا متوكلا ولا راضـيا ولا متضـرعا ولا مفتقـرا ولا ذليلا ولا خاضـعا إلا باسـتقبالك لمقادير الله ببصيرة الإيمان؟

وقال آخر: كيف تعترض، وأنت تعلم أن رضاك عن ربـك زرع لرضى ربك عنه، بل رضاك عن ربك علامـة على رضـا ربـك عنـك، فلو لم يرض عنك لم ترض عنه.

وقال آخر: لا تعترض.. فإن جميع ما يحدث في الكون أثر من آثار أسماء الله وصفاته، وفيض من فيوضات مشيئة الله وحكمتــه، فإن لم ترض بمقادير الله خاصمت أسماء الله وصفاته، وخاصـمت الله بمخاصمتها؟

وقال آخر: لا تعترض.. فإن حكمه تعالى فيك ماض، وقضــاؤه فيك عـدل، كمـا أخـبرك الناصـح الأمين ﷺ في قولـه: (مـاض في حكمك عدل في قضاؤك)(1)

وقــال آخــر: كيــف لــك أن تعــترض، وأنت تعلم أنــه لا تبــديل لكلماته ولا راد لحكمه، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقال آخر: كيـف لـك أن تعـترض، وقـد علمت كمـال حكمتـه ورحمته ولطفه وحسن اختياره.

---

1) أحمد والطبراني والحاكم.

وقال آخر: لا تعترض.. وسلم لربك، فقد فوضت أمـرك إليـه، ومن ضرورات التفويض الرضى التام باختيارات المفوض.

وقال آخـر: كيـف لـك أن تعـترض، وأنت عبـد محض، والعبـد المحض لا يسـخط جريـان أحكـام سـيده المشـفق البـار الناصـح المحسن، بل يتلقاها بالرضى به وعنه.

وقال آخر: كيف لك أن تعترض، وأنت تدعي محبتـه، والمحب الصادق من رضي بما يعامله به حبيبه.

وقال آخر: لا تعترض.. فإنك باعتراضك تعبد الله على حــرف، فتتلون كما تتلون رياح المقادير، والعبد الكامـل ثـابت على عبوديـة سيده، لا تزعزعه الرياح، ولا تجتثه عن غايته الأعاصير؟

وقال آخر: لا تعترض.. فـإن أول معصـية عصـي اللـه بهـا في هذا العالم حصـاد نبـات الاعـتراض، فـإبليس لم يـرض بحكم اللـه الذي حكم به كونا من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الــديني من أمره بالسجود لآدم.

وقال آخـر: لا تعـترض.. فـإن اعتراضـك عن اختيـار اللـه لـك ناشئ من جهلك بالله، وأنه كلما قـويت معرفتـك صـرت كالريشـة في مهب الرياح، تقلبها الرياح كما شاءت، فلا تعترض ولا تختار.

وقال آخـر: لا تعـترض.. فـإن من عـرف أن البلايـا من مـولاه وسيده(1) الذي هو أرحم به من والدته ووالده، كيف يبقى له بالألم

---

1) ربما ترد شبهة هنا، وهي انه قد يظن أن للشيطان سلطة على عبـاد اللـه، وأن له القدرة على إذيتهم وربما يستدل لهذا بقوله تعالى على لسـان أيـوب (عليه السلام): ﴿وَاذْكُـرْ عَبْـدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّـيْطَانُ بِنُصْـبٍ وَعَـذَابٍ﴾ (صّ:41)، وبمـا روي أن إبليس سأل ربه، فقال هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقـال اللـه: نعم عبـدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عيانا ولا يلتفت إليه، فقـال: يـا رب إنـه قـد امتنع علي فسلطني على ماله، وكان يجيئه ويقول له: هلك من مالـك كـذا وكـذا، فيقـول الله أعطى والله أخذ، ثم يحمد الله، فقال: يا رب إني أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليـه، فقـال يـا رب لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده، فأذن فيه، فنفخ في جلد أيـوب، وحـدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه، فمكث في ذلك البلاء سنين، حتى صـار بحيث اسـتقذره أهل بلده، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد، فجاء الشيطان إلى امرأته، وقـال

إحساس؟ أم كيف لا يتلذذ به كما يتلذذ بالنعمة سائر الناس؟

قلت: لقد ذكرني هذا بقول الشاعر الصالح:

وخفف عني ما ألاقي من العنا بأنك أنت المبتلي والمقدر

وما لامرئ عما قضى الله معدل وليس له منه الذي يتخير

لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هذا البلاء، فذكرت المرأة ذلك لزوجها، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة، وعند هذه الواقعة قال:﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

وهذا خطأ عظيم، فالشيطان لا قدرة له على إيقاع الناس في الأمراض والآلام، بل هو أضعف من ذلك، والله أرحم بعباده من أن يسلمهم للشيطان، وقد قال تعالى في بيان قدرات الشيطان وعلى لسانه:﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ (ابراهيم:22)، ومما استدل به الفخر الرازي على رد تلك الشبهة:

1. أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات، فقد حصل بفعل الشيطان، وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم هو الله تعالى.

2. أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء، ولم لا يخرب دورهم، ولم لا يقتل أولادكم.

وقد أجاب على الاعتراض القائل بأنه (لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان؟) بقوله:(إذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى، فأي فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك؟)

أما المراد من الإخبار بمس الشيطان، فإن القول الصحيح في ذلك هو أن المراد منه هو إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة، وكل ذلك كان يضعه في أنواع العذاب والعناء، وقد اختلف القائلون بهذا في تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوها، منها:

1. أن علته كانت شديدة الألم، ثم طالت مدة تلك العلة، والشيطان كان يذكره النعم التي كانت والآفات التي حصلت، وكان يحتال في دفع تلك الوساوس، فلما قويت تلك الوساوس في قلبه خاف وتضرع إلى الله، وقال: ﴿ أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد.

2. أنها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط في قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال: ﴿ أنى مسنى الشيطان ﴾

وبقول ابن عطاء الله: (ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي عودك حسن الاختيار)

وقال آخر: كيف تعترض، والله يراك ويسمعك، وهو ما أنزل عليك البلاء إلا ليختبر موقفك، فهل ترضى أن تسقط في الاختبار؟

وقال آخر، وهو بديع الزمان: لا تعترض.. فإن السكون والهدوء والرتابة والعطالة نوع من العدم والضرر، وبعكسه الحركة والتبدل وجودٌ وخير، فالحياة تتكامل بالحركة، وتترقى بالبلايا، وتنال حركات مختلفة بتجليات الاسماء، وتتصفى وتتقوى وتنمو وتتسع، حتى تكون قلماً متحركاً لكتابة مقدراتها، وتفى بوظائفها، وتستحق الأجر الأخروي(1).

وقال آخر، وهو كذلك بديع الزمان، ولكن بصوت مختلف: لا تعترض.. واعلم انه ليس لك حق في الشكوى، بل عليك الشكر، عليك الصبر؛ لأن وجودك واعضاءك وأجهزتك ليست بملكك أنت، فانت لم تصنعها بنفسك، وانت لم تبتعها من اية شركة او مصنع ابتياعاً، فهي ملكٌ لآخر. ومالك تلك الاشياء يتصرف في ملكه كيف يشاء.

قلت: عهدي بك ـ سيدي ـ تمثل لما تقول، فاضرب لي على ذلك مثالا.

قال: هب أن صانعاً ثرياً ماهراً بكلّف رجلاً فقيراً لقاء أجرة معينة ليقوم له لمدة ساعة بدور النموذج، لإظهار صنعته الجميلة

---

3. أن الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعني زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع في دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال ذلك.

وكل هذا يمكن قبوله، ووراء هذا أقوال أخرى يجب تنزيه الأنبياء عنها، ولا تصح روايتها.

1) المكتوب الثاني عشر: 54.

وثروتـه القيمـة، فيكلفـه بلبس القميص المـزركش الـذي حاكـه، والحلـة القشـيبة الــمرصعة الـتي نسـجها، ويطلب منـه أن يظهـر أوضاعاً وأشكالاً شتى لبيان خـوارق صـنعته وبـدائع مهارتـه، فيقصّ ويبدل، ويطوّل، ويقصر، وهكذا..

فهل يـحق لذلك الفقير الاجير ان يقول لذلك الصانع الــماهر: (إنـك تتعبـني وترهقـني وتضـيّق عليّ بطلبـك مـني الانحنـاء مـرة والاعتدال أخرى.. وانك تشـوّه الجمـال المتـألق على هـذا القميص الـذي يجمّـل هنـدامي ويـزيّن قـامتي بقصّـك وتقصـيرك لـه.. إنـك تظلمني ولا تنصفني؟)

قلت: فأنزل هذا المثل على ما نحن فيه.

قال: هكذا الأمر بالنسبة للصانع الجليل سبحانه وتعالى - ولله الـمثل الاعلى - الذي البسـك أيهـا المـريض قميص الجسـد، وأودع فيـه الحـواس النورانيـة المرصـعة كـالعين والأذن والعقـل، فلأجـل اظهـار نقـوش اسـمائه الـحسنى، يبـدّلك ضـمن حـالات متنوعـة ويضـعك في اوضــاع مــختلفة. فكمــا انـك تتعـرف على اســمه (الرزاق) بتجرعك مرارة الــجوع، تتعـرف على اســمه (الشـافي) بـمرضك(1).

سمعت صوتا آخر يقول: لم يختر اللـه لـك إلا مـا يصـلح.. فلا تطلب ما لا يصلح لك.

قلت: لقــد ذكــرني هــذا بقولــه ﷺ في الأثــر الإلهي: (إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليـه دينـه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه)(2)

قـال المعلم، وقـد رأى اسـترواحي لسـكوني: قم لنسـر إلى قاعة أخرى من هذا المستشفى.

1) الكلمات: الكلمة السادسة والعشرون: 554.

2) الخطيب في التاريخ وغيره.

قلت: دعني ـ يا معلم ــ لأسـمع لجميـع هـذه الأصـوات، فقـد ملأت نفسي سكينة.

قال: لو ظللت تسمعها دهرك جميعا ما خرجت، فكل الكـون، وكل حقائق الوجود تـدعوك إلى السـكون إلى اللـه.. فارحـل.. فلا ينبغي أن تسكن لغير الله.

الغيبة بنعم الله

دخلنا القسم الثاني من أقسام الغيبة، وهو قسم (الغيبـة بنعم اللـه)، وقـد كتب على بابـه قولـه تعـالى: وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَـةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (النحل:18) ورأيت داخل القاعة جوائز شتى، كل جـائزة تشير إلى فضل من فضل الله ونعمة من نعمه.

قلت للمعلم: ما هذه الجوائز؟

قال: هذه جوائز الفضل الإلهي المخزنة في خزائن البلاء.

قلت: ألهذه الجوائز كـانت تنظـر تلـك المـرأة الصـالحة، حين عثرت، وانقطع ظفرها، فضحكت، فقيـل لهـا: أمـا تجـدين الوجـع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبـي مرارة وجعه.

قال: تلك جائزة من هذه الجوائز.

قلت: فكم هذه الجوائز؟

قال: هي كثيرة.. ولكن أي مريض يمر على هـذا المستشـفى ينال عشر جوائز، كل جائزة منها بالدنيا وما فيها.

قلت: ألهذا أمر اللـه تعـالى بتبشـير الصـابرين، فقـال تعـالى: وَلَنَبلُوَنكُم بِشَيء منَ الخَوف وَالجُوعِ وَنَقصٍ منَ الأمَـوَالِ وَالأنفُسِ وَالثمَراتِ وَبَشرِ الصابِرِينَ الذِينَ إِذَا أَصَــابَتهُم مصِـيبَةٌ قَـالُوا إِنـا لِلـهِ وَإِنـا إِلَيهِ راجِعونَ أُولَـئِكَ عَلَيهِم صَلَواتٌ من ربهِم وَرَحمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ المُهتَدُونَ (البقرة:155-157)

قال: أجل.. فالبشارة لا تكون إلا على نعمة وفضل.

قلت: ألهذا ذكر الله تعالى كثرة الخير المخزن في طيات ما نكره، فقال تعالى: فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (النساء: 19)؟

قال: أجل، وقد قال بعضهم تعليقا على الآية: (لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أم تحبه فيه عطبك)

قلت: ألهذا بشر ﷺ المبتلين بأنهم سيكونون موضع غبطة الخلق يوم القيامة عندما يعاينون ما أعد الله لهم من جزاء، فقال: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)(1)؟

قال: أجل، ولذلك كان من الحزم الانشغال بالمكاسب وتقليل الخسائر.. فانظر إلى مكاسب بلائك، لتنسيك المكاسب ما خسرته من جسدك وراحتك.

قلت: لقد ذكرتني بتعداد بعضهم للمعاني الجمالية المصبوبة في قوالب البلاء، فقال: (إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للإسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني)

قال: هي أربع مكاسب، كل مكسب منها كاف في شغلك عن البلاء، وفي رسم الابتسامة في شفتيك بدل الأنين.

قلت: قرأت عن بعض الصالحين أنه برىء من علة كان فيها، فجلس للناس، وهنؤوه بالعافية، فلما فرغ الناس من كلامهم، قال: (إن في العلل لنعماً لا ينبغي للعاقل أن يجهلها: تمحيص للذنب،

1) الترمذي كتاب الزهد رقم (2403) عن جابر وقال: هذا حديث غريب.

وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وإذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحض على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعد، الخيار)

قال: فللنطلق من هذه المعاني لننال هذه الجوائز العشرة.

قلت: وما هي؟

قال: التميز، والتمحيص، والتأديب، والتذكير، والافتقار، والمحدودية، والسكينة، والتطهير، والمعاينة، والثواب.

نعمة التمييز:

قلت: فما نعمة التمييز؟

قال: هي ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ[1] اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:142)، وقوله تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:16)

قلت: فما وجه الإشارة إلى هذه النعمة؟

قال: الله تعالى يبتلي خلقه بأصناف البلاء ليميز المحق من المبطل، والطيب من الخبيث.

قلت: فما سر ذلك؟

قال: الله تعالى بحكمته جعل هذه الدار محلا لاختبار عباده، لينزل كل واحد منهم ـ في النشأة الآخرة ـ المحل الذي ينسجم مع

---

1) هذه التعبيرات وأشباهها في القرآن الكريم لا تعني عدم علم الله بالشيء قبل حصوله، وإنما تعني تحققه الواقعي، ويشبه هذا ـ كما يذكر الشيرازي ـ علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم. ثم يتحول التصميم الى بناء عملي. والمهندس يقول حين ينفذ تصميمه على الارض: اريد ان ارى عمليا ما كان في علمي نظريا.. وقد فصلنا الحديث عن هذه الشبهة في رسالة:(أسرار الأقدار)

طبيعته، وتبرزه أهليته، فلذلك كانت هذه الدار هي دار التمييز الـتي يتميز فيها المحسن من المفسد، والراضي من الساخط(1).

قلت: ولكن اللــه يعلم بــأحوال عبــاده محســنهم ومســيئهم، وراضيهم وساخطهم.

قال: ولكنه لعدله لا يكتفي بعلمه، بل يجعل من أعمال العبــاد حجة لهم أو عليهم.

قلت: فما وجه كون التمييز نعمة؟

قال: دخل جماعــة على بعض الصــالحين، وهــو في مارســتان قد حبس فيه، وقد جمع بـين يديه حجارة، فقال: من أنتم؟ فقــالوا: محبوك، فأقبل عليهم يرميهم بالحجـارة فتهـاربوا فقـال: مـا بـالكم ادعيتم محبتي، إن صدقتم فاصبروا على بلائي.

قلت: لم أفهم هذا المثال.

قال: فاسمع لآخر يقربه لك، فقد قـال: كنت نائمـا عنـد بعض الصالحين، فانبهني فقال لي: (يـا فلان، رأيت كـأني قـد وقفت بين يــدي اللــه تعــالى فقــال لي: خلقت الخلــق فكلهم ادعى محبــتي، وخلقت الـدنيا فهـرب مـني تسـعة أعشـارهم، وبقي معي العشــر، وخلقت الجنة فهرب مني تسعة اعشار العشــر، وبقي معي عشــر العشر، فسلطت عليهم ذرة من البلاء، فهرب مـني تسـعة اعشـار عشر العشر، فقلت للباقين: معي، لا الدنيا اردتم، ولا الجنة اخــذتم ولا من النار هربتم، فماذا تريدون، قالوا: انك تعلم مـا نريـد، فقلت لهم: فاني مسلط عليكم من البلاء بعـدد انفاسـكم مـا لا تقـوم لـه الجبال الرواسي اتصبرون؟ قالوا: اذا كنت انت المبتلي لنا، فافعــل ما شئت فهؤلاء عبادي حقا)

قلت: لا يزال عقلي كالا دون فهم وجه كون التمييز نعمة.

---

1) وهذا كما ينص عليه قوله تعالى:﴿ لِيَمِـيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَـلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأنفال:37)

قال: فقد قال بعض الصالحين: (النـاس مـا دامـوا في عافيـة مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقـائقهم؛ فصـار المـؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه)

قلت: فما وجه النعمة في هذا، بل إن هذا بلاء.. محض بلاء؟

قال: أرأيت لو جاورك في بيتك الأدنى من لا تطيق عشـرته.. أترضى بذلك؟

قلت: لا.. بل إني سأرحل عنه..

قال: ولو خسرت مالك.

قلت: ولو خسرت مالي..

قال: لم؟

قلت: طلبا للراحة منه.

قال: فهـذا مـنزل محـدود.. لأمـد معـدود.. فكيـف بالمجـاورة المستمرة الدائمة التي لا حدود لها.

قلت: الكامـل لا يرضـى صـحبة النـاقص، والطيب لا يطيـق معاشرة الخبيث.

قال: ولذلك كان التمييز الذي يحصل في الآخرة بين الأجناس والأنواع نعمـة من النعم العظمى الـتي يستشـعرها المؤمنـون، فلا يدخل الجنة إلا الطيبون، بل إنهم في نفس الجنة متميزون بحسب مراتبهم ودرجاتهم.

قلت: ولهذا يبين القرآن الكريم المواقف المختلفة من أنـواع البلاء، ففي موقف الخوف مثلا يخبر تعالى عن صنفين من الناس:

أمـا الأول، وهـو النـاجح في الاختبـار، فيـذكر تعـالى وقوفـه كالطود الأشـمّ أمـام كـل المخـاوف، قـال تعـالى: الَّذِينَ قَـالَ لَهُمُ

النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران:173)

وأما غيرهم من الجبناء الساقطين في الاختبار فقد قال تعالى في شأنهم: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ (المائدة:52)

وقد أخبر تعالى عن الناجحين في الاختبار بأنه من المنعم عليهم، قال تعالى: قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (المائدة:23)، وهذا في مقابلة الساقطين الجبناء الذين قالوا: يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (المائدة:22)،ـ وقالوا بكل تبجح: يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (المائدة:24)

وهكذا في كل المواقف، نجد المؤمنين الصادقين الناجحين فيما أنعم به عليهم من البلاء، ونجد الراسبين الساقطين في الامتحان الذين قال تعالى في شأنهم: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (الحج:11)

فهذا الخاسر لا يعبد الله في الحقيقة وإنما يعبد أهواءه التي قد تتفق أحيانا مع ما يأمر به الله، فيتوهم الخلق أنه يعبد الله، فلذلك يبتلى بما يظهر حقيقته، ويكشف عن سريرته.

نعمة التمحيص:

قلت: فما نعمة التمحيص؟

قال: هي التي أشار إليها قوله تعالى: وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ

آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (آل عمران:141)، فقد أخبر تعالى أن العلة في البلاء الذي حصل للمؤمنين هو تمحيصهم، كما أن علة البلاء الحال بغيرهم هو محقهم.

قلت: فما التمحيص[1]؟

قال: هو التنقية والتطهير والتمييز لتظهر أهلية كل واحد منهم ما يستحقه من جزاء.

قلت: فما يظهر تلك الأهلية؟

قال: لا تبرز الأهلية إلا بأسياف البلاء، ورياح الفتن، وأنواع التمحيص، فالدعاوى سهلة، ولكن الصعب إثباتها، ولذلك رد الله تعالى على من حسبوا الأمر سهلا، تكفي فيه مجرد الدعاوى، فقال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة:214)

قلت: ولكن هذه الآية نزلت في محل خاص.

قال: ولكنها في حقيقتها تفسر سنة الله في تمحيص عباده ليبرز كل شخص ما في صدره من تسليم أو اعتراض، أو عبودية أو ربوبية، كما قال تعالى: وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (آل عمران:154)

فالقلب كالمجتمع كلاهما يحتاج إلى أنواع البلاء والمحن والفتن التي تميز الطيب عن الخبيث، والطاهر من النجس.

سمعت صوتا كأني أعرفه، قلت: ما هذا الصوت يا معلم؟

قال: هذا صوت سيد.

---

1) المحص: في اللغة التنقية، والمحق في اللغة النقصان، وقال المفضل: هو أن يذهب الشيء كله حتى لا يرى منه شيء، ومنه قوله تعالى:﴿ يمحق الله الربا﴾(البقرة: 276) أي يستأصله.

قلت: أهو طبيب من أطباء هذا المستشفى؟

قال: كل الأولياء أطباء بهذا المستشفى.

قلت: فما الذي جعله يتكلم الآن؟

قال: سمع قراءتنا للآية، فأراد أن يتحدث عنها، فأصخ سـمعك إليه.

قـال سـيد: التمحيص درجـة بعـد الفـرز والتميـيز.. التمحيص عمليـة تتم في داخـل النفس، وفي مكنـون الضـمير.. إنهـا عمليـة كشف لمكنونات الشخصية، وتسليط الضوء على هذه المكنونـات، تمهيـدا لإخـراج الـدخل والـدغل والأوشـاب، وتركهـا نقيـة واضـحة مستقرة على الحق، بلا غبش ولا ضباب.

قلت: فما الحاجة إليه؟

قـال: كثـيرا مـا يجهـل الإنسـان نفسـه، ومخابئهـا ودروبهـا ومنحنياتها. وكثـيرا مـا يجهـل حقيقـة ضـعفها وقوتهـا، وحقيقـة مـا استكن فيها من رواسب، لا تظهر إلا بمثير !

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله - سبحانه - بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسـهم مـا لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحـك المريـر:محـك الأحـداث والتجـارب والمواقف العملية الواقعية.

فقـد يظن الإنسـان في نفسـه القـدرة والشـجاعة والتجـرد والخلاص من الشـح والحـرص.. ثم إذا هـو يكشـف - على ضـوء التجربة العمليـة، وفي مواجهـة الأحـداث الواقعيـة - إن في نفسـه عقابيل لم تمحص، وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط ! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه، ليعاود المحاولة في سـبكها من جديد(1).

---

1) في ظلال القرآن: 1/482.

قلت: ألهذا كان الألم علاجا مشخصا للأدواء؟

قال: أجل.. وهو في ذلك كتلك المحاليل الكاشفة الـتي تمـيز أنـواع العناصـر، ليتـبين الأصـيل من الـدخيل، وتتمـيز الصـحة عن المرض.

قلت: فما وجه كونه نعمة؟

قال: لا يمكن العلاج إلا بالتشخيص، فمن السهل ادعاء الصبر، ومن الصعب التحقق به، فلذلك كان التمحيص مقدمة للتأديب.

نعمة التأديب:

قلت: فما نعمة التأديب؟

قـال: هي الـتي أشـار إليهـا قولـه تعـالى: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَــهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (الانبياء:87)

قلت: فما وجه الإشارة فيها؟

قال: لقد جعـل اللـه البلاء الـذي حـل بيـونس ﵇ مؤدبـا لـه، وزاجرا عما وقع فيه.

قلت: فيمكن لهذا الاستشهاد بمـا وقـع لآدم ﵇ من أكلـه من الشجرة بعد أن نهي عنها.

قال: أجل.. فقد ابتلي ليؤدب أمام أوامر ربـه، وليعـرف مـدى عداوة الشيطان له، فكان ظاهر بلائـه نقمـة، وباطنـه رحمـة، قـال تعـالى: فَلَمَّا ذَاقَـا الشَّـجَرَةَ بَـدَتْ لَهُمَـا سَـوْآتُهُمَا وَطَفِقَـا يَخْصِـفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَـا عَنْ تِلْكُمَـا الشَّـجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (لأعراف:22)

قلت: ولكنه ـ مع ذلك ـ وللأسف ـ خرج من الجنة.

قال: من أكبر نعم الله على آدم ﵇ أنه خرج من الجنة.

قلت: ما هذا ـ يا معلم ـ أكانت الجنة نارا حتى يكون خروجه منها نعمة؟

قال: لم تكن نارا، ولكن سكونه إليها هو النار.. لقد انقلب آدم ﵇ بعد خروجه من الجنة شخصا آخر.

قلت: كيف.. فآدم الذي دخل الجنة، هو آدم الذي خرج منها.

قال: ولكنه ـ عندما خرج منها بأسياف البلاء ــ تحقق فيه ما أريد منه من منصب الخلافة العظيم الذي خلق له.

قلت: لقد ذكرتني بكلام لبعضهم على لسان الحضرة الإلهية يقول فيه مخاطبا آدم ﵇: (يا آدم لا تجزع من قولي لك:﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (لأعراف:24)، فلك ولصالح ذريتك خلقتها.. يا آدم كنت تدخل علي دخول الملوك على الملوك، واليوم تدخل علي دخول العبيد على الملوك.. يا آدم لا تجزع من قولي لك: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم﴾ (البقرة:216)) [1]

قال: ولهذا ورد في النصوص الإخبار بابتلاء الله لعباده بسبب الذنوب التي يقعون فيها، وهو ابتلاء يشبه تماما تقريع المعلم لتلميذه رادعا له ومؤديا، وقد قال تعالى:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:30)، فالآية الكريمة تبيّن بوضوح أن المصائب التي تصيب الإنسان هي نوع من التحذير والعقاب الإلهي إلا ما كان من البلاء المتعلق بالمقربين من الأنبياء والصديقين، فله نواح أخرى غير هذا.

قلت: لقد روي أنه لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: (ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب ولما يعفو الله

---

1) الفوائد:35.

عنه أكثر)(1)

قلت: فما وجه كون التأديب نعمة؟

قال: لقد كانت ملاحظة الصديقين لهذا سبب سرور عظيم، فقد لحظوا عناية الله بهم وتأديبه لهم، وغابوا بهما عن ألم الأنين الذي حل بهم.

ولهذا قال على بن أبي طالب: (ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها النبي ﷺ:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:30)، ثم قال: (يا علي ما أصابكم من مرض أوعقوبة أوبلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه)(2)

قلت: إني أرى البلاء لا ينزل على الأفراد فقط، بل هو يعدوها إلى المجتمعات، فهل هو من التأديب؟

قال: أجل.. فإن الله برحمته ولطفه وحكمته يرسل تنبيهاته للمجتمعات حتى تعود إلى ربها وتتأدب بين يديه، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى:﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:41)، وهذا يدل على كون هذا سنة اجتماعية.

وفي قوله تعالى:﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ تنبيه إلى أن العلة في ذلك ليس الانتقام وإنما التأديب، فما:﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ (النساء: 147)

ويشير إلى هذا قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

---

1) ابن عساكر.

2) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه مرفوعاً من وجه آخر.

(لأنفال:53)، وقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (الرعد:11)

قلت: لقد ذكرتني بما يقول أهل الأدب في هذا، فقد قال بعضهم: (المحن آداب الله عز وجل لخلقه، وتأديب الله بفتح القلوب، والأسماع، والأبصار)

وكتب آخر إلى صديق له في محنة لحقته: (إن الله تعالى ليمتحن العبد، ليكثر التواضع له، والاستعانة به، ويجدد الشكر على ما يوليه من كفايته، ويأخذ بيده في شدته، لن دوام النعم والعافية، يبطران الإنسان، حتى يعجب بنفسه، ويعدل عن ذكر ربه، وقد قال الشاعر:

لا يترك اللّه عبداً ليس يذكره ... ممن يؤدّبه أو من يؤنّبه

أو نعمة تقتضي شكراً يدوم له ... أو نقمة حين ينسى الشكر تنكبه

قال: فالبلاء مدرسة من مدارس الله لتأديب عباده.. ألا تدربون جنودكم بالجوع والعطش؟

قلت: بلى.. بل لا يصح أن يحمل جندي اسم الجندية إلا إذا جاع وعطش ونزلت به كل المصائب.

قال: لم؟

قلت: ليتمرن، وتمتلئ نفسه صبرا، وقلبه شجاعة.

قال: فكذلك رحمة الله اقتضت أن يذيقكم بعض البلاء ليتربى في نفوسكم ما يعجز الترف على تربيته.

نعمة التذكير:

قلت: فما نعمة التذكير؟

قال: هي التي أشار إليها قوله تعالى: أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ (فاطر:37)، فمن الأقوال في تفسيرها أن المراد بالنذر الأمراض[1].

قلت: لقد ورد في هذا حديث لا أدري مدى صحته، هو: (الحمى رائد الموت، وسجن الله في الأرض)[2]

قال: وقد ورد في الآثار ما يدل على هذا المعنى أيضا، فقد روي أن بعض الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قال لملك الموت ﵇: أمالك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك؟ قال: نعم، لي والله رسل كثيرة من الإعلال والأمراض والشيب والهموم وتغير السمع والبصر، فإذا لم يتذكر من نزل به ولم يتب، فإذا قبضته ناديته: ألم أقدم إليك رسولاً بعد رسول ونذيراً بعد نذير؟ فأنا الرسول الذي ليس بعدي رسول، وأنا النذير الذي ليس بعدي نذير، فما من يوم تطلع فيه شمس ولا تغرب إلا وملك الموت ينادي: يا أبناء الأربعين، هذا وقت أخذ الزاد، أذهانكم

______

1) ومن الأقوال في تفسير الآية: أن النذير هو القرآن، وقيل الرسول؛ وقال ابن عباس: هو الشيب، وقيل: النذير الحمى، وقيل: موت الأهل والأقارب، وقيل: كمال العقل.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تعارض بينها، فالشيب نذير، لأنه يأتي في سن الاكتهال، قال الشاعر:

رأيت الشيب من نذر المنايا   لصاحبه وحسبك من نذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل في كل وقت وأوان، قال الشاعر:

وأراك تحملهم ولست تردهم   فكأنني بك قد حملت فلم ترد

وأما كمال العقل فبه تعرف حقائق الأمور، فالعاقل يعمل لآخرته ويرغب فيما عند ربه؛ فهو نذير.

وأما محمد ﷺ فبعثه الله بشيرا ونذيرا إلى عباده قطعا لحججهم؛ قال الله تعالى:﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾(النساء:165انظر: القرطبي: 14/354.

2) ابن السني وأبو نعيم في الطب.

حاضرة وأعضاؤكم قوية شداد. يا أبناء الخمسين قد دنا وقت الأخذ والحصاد، با أبناء الستين نسيتم العقاب وغفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير: أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ (فاطر:37))(1)

قلت: فما وجه كون التذكير بهذا نعمة؟

قال: إذا علم المؤمن بقرب أجله سارع إلى المبادرة، قبل أن يفوت الأوان.. وليس ذلك فقط، بل إن البلاء في صوره المؤلمة يجعل صاحبه يقلع عما هو فيه من الغي، فلا يلقى الله وهو في سكرات غيه.

قلت: لقد ذكرتني ببديع الزمان حين قال..

ضحك، وقال مقاطعا لي: لا تحتاج لأن تذكره، فهو طبيب بصير من أطباء هذا المستشفى، فأصخ بصيرتك لتسمع إليه.

قال بديع الزمان: ثم إن الشيخوخة والمرض والبلاء، وما يحدث من وفيات هنا وهناك، تقطّر ذلك الألم المرير إلى نفس كل إنسان، وتُنذره دوماً بمصيره المحتوم، فلا جرم أن أولئك الضالين وأرباب السفاهة والمجون سيتأجج في قلوبهم جحيمٌ معنوي، يعذبهم بلظاه حتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بيد أن الغفلة وحدها هي التي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الأليم(2).

قلت: الله !.. ما أدق بصيرته ! وما أحد نظره !

قال: أصخ سمعك ولا تقاطعه.

أصخت سمعي، فإذا به يقول، وكأنه يخاطب مريضا متألما يذكره بالكنوز المخبأة في طيات المرض: أيها المسكين الشاكي من المرض! إن المرض يغدو كنزاً عظيماً لبعض الناس، وهدية

1) ذكره ابن الجوزي في كتاب:(روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق)

2) الكلمة الثالثة عشرة - ص: 158

إلهية ثمينة لهم.. وباستطاعة كل مريض أن يتصور مرضه من هـذا النوع، حيث أن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الأجلُ مجهولاً وقته، إنقاذاً للإنسان من اليأس المطلق أو من الغفلة المطلقة، وإبقاءاً له بين الخوف والرجاء، حفظاً لدنياه وآخرته من السقوط في هاوية الخسران.. أي أن الأجل متوقع مجيئه كل حين، فإن تمكّن من الإنسان وهو سادر في غفلته يكّبده خسائر فادحة في حياته الأخروية الأبدية. فالمرض يبدد تلك الغفلة ويشتتها، وبالتالي يذكّر بالآخرة ويستحضر الموت في الذهن فيتأهب له. بل يحدث أن يربّحه ربحاً عظيماً، فيفوز خلال عشرين يوماً بما قد يستعصي استحصاله خلال عشرين سنة كاملة(1).

قلت: يا بديع الزمان.. يا من تنور هذا المستشفى ببصيرته.. أخبرني بمثال على ذلك تثبت به قلبي.. فقد عهدتك صاحب أمثلة.

قال: كان هناك فَتَيان - يرحمهما الله -، ورغم كونهما أُميين من بين طلابي، فقد كنتُ ألحظُ بإعجاب موقعَهما في الصف الأول في الوفاء والصدق وفي خدمة الايمان، فلم أدرك حكمة ذلك في حينها، ولكن بعد وفاتهما علمت انهما كانا يعانيان من دائين عضالين، وبإرشاد من ذلك المرض أصبحا على تقوى عظيمة يسعيان في خدمة راقية، وفي وضع نافع لآخرتهما، على خلاف سائر الشباب الغافلين الساهين حتى عن فرائضهم، فنسأل الله أن تكون سنتا المرض والمعاناة اللتان قضياهما في الحياة الدنيا قد تحولتا الى ملايين السنين من سعادة الحياة الابدية (2).

ثم سكت برهة، وقال: ومالي أذهب إلى أصحابي.. سأحدثك عن نفسي.. (حينما وطأت قدماي عتبة الشيخوخة، كانت صحتي الجسدية التي ترخي عنان الغفلة وتمدّها قد اعتلّت أيضاً فاتفقت الشيخوخة والمرض معاً على شن الهجوم عليّ، وما زالا يكيلان

1) اللمعة الخامسة والعشرون: 326، بتصرف.

2) اللمعة الخامسة والعشرون: 326.

على رأسي الضربات تلو الضربات حتى أذهبا نوم الغفلة عنّي. ولم يكن لي ثمـة مـا يربطـني بالـدنيا من مـال وبـنين ومـا شـابههما، فوجدت أن عصارة عمري الـذي أضـعته بغفلـة الشـباب، إنمـا هي آثام وذنوب، فاستغثتُ صائحاً مثلما صاح نيازي المصري:

ذهب العُمر هباءً، لـم أفز فيه بشيء

ولقد جئت أسير الدرب، لكنْ

رحل الرّكبُ بعيداً وبقيتْ

ذلك النائي الغريب وبكيتْ

همتُ وحدي تائهاً أطوي الطريق

وبعينيّ ينابيع الدموع

وبصدري حرقة الشوق

حار عقلي..!)(1)

نعمة الافتقار:

قلت: فما نعمة الافتقار؟

قال: هي التي أشار إليها قوله تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (العلق:6 ـ 7)

قلت: لقد أخبر تعالى بأن رؤية الإنسان لغنـاه، تجعلـه طاغيـة ظالما متعديا لحدوده.

قال: ولذلك يكون الافتقار، وكل ما يؤدي إليه نعمـة من النعم تخلص الإنسان من الطغيان، وتعيده إلى وضعه الطبيعي.

قلت: هذا تشير إليه آيات كثيرة، فالله تعالى يقول، وهو يـبين

1) اللمعة السادسة والعشرون: 345.

سنة اجتماعية لا تكاد تتخلف: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى:27)

قال: هذه حقيقة لا تدل عليها النصوص فقط، بل يدل عليها الواقع.. واقع كل الناس، فهم إن عاشوا الترف نسوا الخالق والمخلوق.. وظلموا وبغوا.

قلت: لقد قد ذكر الفخر الرازي علة لكون التوسع موجبا للطغيان، فقال: (الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر، وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد إلى الطاعة والتواضع)(1)

قال: هذا صحيح، ولهذا كان من العقوبة التي تنزل على عباد الله الغافلين أن تفتح عليهم زهرة الدنيا، ويفاض عليهم نعيمها، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: 44)

ويروى في هذا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم)، ثم تلا قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام:44))(2)

قلت: فقد قيل: إن السبب الذي حمل فرعون على قوله: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (النازعات:24) طول العافية والغنى، فإنه لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه، ولم يضرب عليه عرق.

قال: لو أخذته الشقيقة ساعة واحدة لشغله ذلك عن دعوى

1) التفسير الكبير.

2) ابن أبي حاتم.

الربوبية.

قلت: ألهذا لا ينزل الله تعالى فرجه ابتداء في أكثر الأحوال؟

قال: أجل.. وهذا من رحمة الله بعباده.. لأن ما يأتيهم قبل الفرج من فضله الذي لم يلتفتوا إليه أعظم من الفرج نفسه.

قلت: هو يتركهم حتى يستشعروا فقرهم وحاجتهم الله.

قال: وحينذاك يفيض عليهم عطاؤه وغيثه.

قلت: لقد ذكر تعالى ذلك، فقال: وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (الشورى:28)، وقال: وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (الروم:49)، وقال: فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الروم: 50)

قال: ولهذا، فإن المتوسمين من عباد الله يستدلون بوجود الفاقات على قرب الصدقات، لأن الفاقة تحقق صاحبها بالافتقار، والافتقار يؤهل صاحبه للفضل.

قلت: فالفاقات إذن رسائل رحمة؟

قال: هذا ما يفهمه العارفون منها، فهم يعتبرون أفعال الله تعالى فيهم وفي غيرهم رسائل رحمة ومودة.. ولا يفهمون من تلك الأنات والبلايا إلا أنها حروف من الله تشهدهم وجود فاقتهم، وتشعرهم بحقيقتهم، لتشغلهم بالله عن أنفسهم.

قلت: لقد أشار ابن عطاء الله إلى هذا فقال: (خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك، وترد فيه إلى وجود ذِلتك)

وأشار إلى هذا المعنى في الحكمة الأخرى بقوله: (فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها، والفاقة

الذاتية لا ترفعها العوارض)

قال: نعم، فإنه إذا علم العبد أن العدم سابق على وجوده، وأن وجوده مفتقر إلى المدد في كل وقت، وإلا تلاشى وانعدم، علم أن فاقته ذاتية، وأن الاضطرار لازم لوجوده، وأن ورود العلل المختلفة من الفقر والمرض مذكرات له بما خفي عليك من الفاقة الذاتية، فإن غالب الناس يغفلون عن الفاقة الذاتية إذا دامت عليهم صحة أبدانهم وكثرة أموالهم.

قلت: لقد تحدث بديع الزمان عما يحدثه البلاء من أنواع الفاقة والعجز، والتي تقرب المبتلى إلى ربه.

قال: فأصخ سمع بصيرتك إليه.. ألا تعلم أنه من أطباء هذا المستشفى؟

سمعت صوته، وهو يقول: إن البلايا والضر والأمراض تجعل صاحبها يشعر بعجزه وضعفه، فيلتجىء إلى ربه الرحيم، ويتوجه اليه ويلوذ به، فيؤدي بهذا عبادة خالصة، هذه العبادة خالصة زكية لا يدخل فيها الرياء قط، فإذا ما تجمل المصاب بالصبر وفكّر في ثواب ضره عند الله وجميل أجره عنده، وشكر ربه عليها، تحولت عندئذ كل ساعة من ساعات عمره كأنها يوم من العبادة، فيغدو عمره القصير جداً مديداً طويلاً، بل تتحول - عند بعضهم - كل دقيقة من دقائق عمره بمثابة يوم من العبادة.

قلت: فالبلاء إذن ــ يا بديع الزمان ــ مسجد من مساجد العبودية ومحراب من محاريبها؟

قال: ليس هذا فقط، بل هناك حكم أجل يبرزها فقر الإنسان، لها علاقة بالعرفان.

قلت: أفقر الإنسان يعرفه بالله؟

قال: بل يوصله إليه.

قلت: كيف ذلك؟

قال: (ان الله سبحانه قد أدرج في الانسـان عجـزاً لا حـد لـه، وفقراً لانهاية له، إظهاراً لقدرته الـمطلقة وإبرازاً لرحمته الواسـعة. وقد خلقه على صورة معينة بـحيث يتألم بما لا يحصى من الجهات، كمـا أنـه يتلـذذ بمـا لا يعـد من الجهـات، إظهـاراً للنقـوش الكثـيرة لأسمائه الحسنى. فابدعه سبـحانه على صورة ماكنة عجيبة تـحوي مئات الآلات والدواليب، لكل منها آلامها ولذائـذها ومهمتهـا وثوابهـا وجزاؤها، فكأن الاسماء الإلـهية المتجلية في العالم الذي هو إنسان كبير تتجلى أكثرها أيضاً في هذا الانسان الذي هو عالم أصغر، وكما أن ما فيه من أمـور نافعـة - كالصـحة والعافيـة واللذائـذ وغيرهـا - تدفعه الى الشكر وتسوق تلـك الــماكنة الى القيـام بوظائفهـا من عدة جهات، حتى يغدو الانسان كأنه ماكنة شـكر. كـذلك الامـر في المصائب والأمراض والآلام وسائر المـؤثرات المهيجـة والمحركـة، تسوق الدواليب الأخرى لتلك الماكنة الى العمـل والحركـة وتثيرهـا من مكمنها فتفجّـر كنـوز العجـز والضـعف والفقـر الــمندرجة في الــماهية الانسـانية. فلا تـمنــح الــمصائبُ الانسـانَ الالتــجاء الى البارىء بلسان واحد، بل تـجعلـه يلتـجىء اليه ويستغيثه بلسان كل عضو من أعضائه)(1)

قلت: هـذه نعم جليلـة ينبتهـا غـرس البلاء، المضـمخ بعطـر الافتقار.

قال: ليس هذا فقط بل إنـه يلقن المـريض أهم عـرى الحيـاة الاجتماعية.. فهو لا يربطه بالله فقط، بل يربطه بالمجتمع أيضا.

قلت: كيف ذلك؟

قـال: لأنـه ينقـذ الانسـان من الاسـتغناء عن الآخـرين، ذلـك الاستغناء الذي يسـوق الى الوحشـة ويجـرد الانسـان من الرحمـة،

1) اللمعة الثانية: 19.

فالنفس الأمارة الواقعة في شباك الاستغناء - الناجم عن الصحة والعافية - لن تشعر بالاحترام اللائق تجاه العلاقات الاخوية، ولن تحس بالرحمة والرأفة بالمبتلين بالمصائب والامراض الجديرين بالرحمة والعطف، ولكن متى ما انتاب الانسان المرض وأدرك مدى عجزه، ومدى فقره، تحت ضغوط المرض وآلامه وأثقاله فانه يشعر بالاحترام لأشقائه المؤمنين اللائقين بالاحترام الذين يقومون برعايته، أو الذين يأتون لعيادته، ويشعر كذلك بالرأفة الانسانية وهي خصلة إسلامية تجاه اهل المصائب والبلايا - قياساً على نفسه - فتفيض من قلبه الرحمة والرأفة بكل معناهما تجاههم، وتضطرم عنده الشفقة حارة ازاءهم، واذا استطاع قدّم لهم يد العون، وان لم يقدر عليه شرع بالدعاء لهم، أو بزيارتهم والاستفسار عن راحتهم وأحوالهم مؤدياً بذلك سنةً مشروعة كاسباً ثوابها العظيم) (1)

قلت: هنيئا للفقراء هذه النعم العظيمة التي يحملها فقرهم.

قال المعلم: لقد عرفت عند رحلتك لكنوز الفقراء كيف يطير الافتقار بالمؤمن، فلا يقف به إلا على باب الله تعالى، فيتوجه بكل كيانه إلى الرحيم الرحمن، كما يتوجه الصبي إلى أحضان أمه، فيكسب بالتجائه من اللذة ما ينسيه إلى كل ألم، بل يكون ذلك الألم هو طريق الأشواك القصير المحدود الذي أوصله إلى الجنان المزهرة.

قلت: لكانك تشير بقولك هذا، وبهذه الرحمة المكسوة بكساء الألم إلى قوله تعالى: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (الاسراء: 28)

قال: هذا صحيح، ولذلك كان في الافتقار الذي ينشئه البلاء لذة يشعر بها العارفون لا تقل عن لذة شعور الصبي بالأمن، وهو يعود إلى أحضان أمه الدافئة.

---

1) اللمعة الخامسة والعشرون: 329.

قلت: فهذا من معاني قوله تعالى: وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (البقرة:216)

قال: أجل.. وكل هذا المستشفى تفسير لهذا القول.

قلت: لقد سمعت بعضهم يعبر عن هذا بسجود القلب؟

قال: أجل.. وقد سئل سهل التستري: (أيسجد القلب؟)، فقال: (نعم، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء)

قلت: فهذا السجود الخاشع الدائم الذي يسجده القلب لا يكون إلا بالافتقار إلى الله.

قال: يحكى في هذا عن بعض العارفين أنه قال: (دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه)(1)

قلت: لهذه الآثار الجميلة التي يحدثها البلاء في النفس، ومع الله، ومع المجتمع، كان الحمد لله والشكر له يخرج من أفواه الصالحين غضا طريا مشفوعا بالشعور بالمنة لاعتقادهم أن الله ما ابتلاهم ليعذبهم، وإنما ابتلاهم ليخلصهم من أوزار نفوسهم، وليجعلهم أهلا له، وقد روي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: (إذا رأيت الفقر مقبلا إليك فقل: مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغني مقبلا إليك فقل: ذنب عجلت عقوبته) (2)

---

1) مدارج السالكين: 1/430.

2) وهذا ــ طبعا ــ ليس على عمومه، بل له محله الخاص، وقد ذكرنا المعنى الصحيح لهذا الخبر في رسالة (كنوز الفقراء)

وكان بعضهم إذا اشتد مرضه وجوعه يقول: (إلهي ابتليتني بالمرض والجوع، وكذلك تفعل بأوليائك، فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به علي)

وكان آخر يقول: (إلهي أجعتني، وأجعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح، وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك؟)

وسر ذلك هو خوف الصالحين من الاستدراج بالنعيم، كما قال قائلهم: (والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخفف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه. وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه)

بل هذا ما صرح به ﷺ في قوله: (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)(1)

نعمة المحدودية:

قلت: فما نعمة المحدودية؟

قال: من نعم الله العظيمة في البلاء كونه محدودا.

قلت: من أي الجهات كان محدودا؟

قال: من جهة محله، أو من جهة الزمن الذي يستمر فيه.

قلت: فكيف كان البلاء محدودا من جهة المحل؟

قال: إن الله تعالى برحمته لم يبتل منك إلا أعضاء محدودة، أو محال محدودة، ورزقك بدلها من العوض ما يهون عليك ذلك

1) أحمد والترمذي وابن ماجة عن عمرو بن عوف.

الألم، أو ما تستأنس به بدل ذلك المفقود، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (النساء: 104)

قلت: فما وجه الإشارة في هذه الآية؟

قال: لقد رزق الله المؤمنين الرجاء عوضا عن الألم الذي أصابهم، وهو ما يخفف من حدة البلاء، ويجعله محدودا لا يتجاوز إلى أرواحهم التي هي محل الرجاء.

قلت: فهل تشير إلى هذا آيات أخرى؟

قال: أجل.. آيات كثيرة، فالله تعالى يقول: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (البقرة:155)

فقد ذكر تعالى أن البلاء يكون بشيء من الخوف والجوع، أي بقليل منهما، وبنقص من الأموال والانفس والثمرات، أي ذهاب بعضها فقط وبقاء البعض الآخر.

قلت: هذه إشارة جميلة ودقيقة.. ولكنها قد لا تفهم.

قال: إشارات القرآن الكريم لا يفهمها إلا المتدبرون.

قلت: فلنبسطها حتى يفهموها، ألم يجعل الله تعالى القرآن الكريم ميسرا للذكر؟

قال: إن الله تعالى ذكر في الآية أمرين: ذكر الابتلاء بصيغة المحدودية، وذكر التبشير بصيغة الإطلاق، فلم يحدد الجوائز المرتبطة بالبشارة.

قلت: لم؟

قال: لينمحق البلاء في البشارة، بالإضافة إلى انمحاقه في

محدوديته.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: إذا جاز أن نمثل البلاء بشيء، فإن أقرب شيء إليه هو الحفرة التي تدمل الأرض بالجراح.

قلت: نعم هذا تقريب حسن، فالحفرة كالألم الذي أصاب جسد الإنسان.

قال: فإذا كانت الحفرة محدودة من حيث حجمها، ثم ملأناها بأكياس.. لا من الرمل.. بل من الذهب الخالص.. بل بما هو أشرف من الذهب وأغلى قيمة.. أيبقى للحفرة وجود؟

قلت: لو أن الأمر كذلك لتمنى صاحب الحفرة أن تكون حفرته أخدودا عظيما، بل بحرا عميقا، بل محيطا لا حدود له.

قال: الأمر كذلك.. ولكنكم لا تبصرون.

قلت: فهل هناك إشارة أخرى؟

قال: قوله تعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (البقرة:124)، فقد أخبر الله تعالى بأنه ابتلى إبراهيم ﵇ بكلمات، أي ببعض البلاء، لا بكل البلاء، ومثل ذلك ما ذكر من أنواع البلاء التي حصلت للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فهي كلها من البلاء المحدود، والذي ينتهي غالبا بالفرج التوسعة.

قلت: فهل هناك إشارة أخرى؟

قال: قوله تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (الشورى:30)، فقد أخبر تعالى أن من أسباب المصائب الذنوب، وأنه برحمته لا يعاقب على كل الذنوب، بل لو عاقب عليها لما ترك على ظهرها من دابة، قال تعالى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ (فاطر:45)

قلت: لقـد ورد في تفسـير قولـه تعـالى: وَمَـا أَصَـابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُـو عَنْ كَثِـيرٍ (الشـورى:30)، قـول رسول اللّه ﷺ: (والذي نفس محمد بيده مـا من خـدش عـود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو اللّه عنه أكثر)(1)

وورد فيها ما رواه أبـو جحيفـة قـال: دخلت على علي بن أبي طالب ، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قـال، فسـألناه، فتلا هـذه الآيـة: وَمَـا أَصَـابَكُمْ مِنْ مُصِـيبَةٍ فَبِمَـا كَسَـبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُـو عَنْ كَثِـيرٍ (الشـورى:30)،ـ فقـال: مـا عـاقب اللّـه تعـالى بـه في الـدنيا، فاللّـه أحلم من أن يثـني عليـه العقوبـة يـوم القيامة، وما عفا اللّه عنه في الـدنيا، فاللّـه أكـرم من أن يعـود في عفوه يوم القيامة)(2)

قـال: فـالبلاء بهـذا يصـبح محـدودا غايـة المحدوديـة.. لأنـك لا تقارنه ببلاء مثله، وإنما تقارنه بقدرة الله التي لا تحد، مـع مشـيئته النافذة في خلقه، فالله مع كونه ابتلاك إلا أنه ابتلاك بشيء محـدود لا قيمة له بجنب ما صرف عنك.

قلت: لقد ذكرتني بحكاية رجل الصالح ذكـره بعضـهم، فقـال: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديـك، فالـديك يـوقظهم للصـلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خبـاءهم والكلب يحرسـهم، قال: فجاء الثعلب فأخـذ الـديك، فحزنـوا لـه وكـان الرجـل صـالحاً فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خـيراً، ثم أصـيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يـوم فنظـروا فإذا قد سبـي من حولهم وبقوا هم، قـال: وإنمـا أخـذوا أولئـك لمـا كان عندهم من أصوات الكلاب والحمـير والديكـة، فكـانت الخـيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدّره الله تعالى.

---

1) أخرجه ابن أبي حاتم.

2) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه مرفوعاً من وجه آخر.

فقد كـانت هـذه المصـائب كبـيرة في لحظـة نزولهـا، ولكنهـا كانت بدلا عن مصائب أكبر، فنابت المصائب الصغيرة عن الكبيرة.

قال: بل أشار إلى هذا قوله تعالى في قصـة موسـى ﵇ مـع الخضر ﵇ حين خرق السفينة، وكانت مصـيبة صـغيرة أقـل بكثـير من أن يسلبوا السفينة، قال تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْـرِ فَـأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَـا وَكَـانَ وَرَاءَهُمْ مَلِـكٌ يَأْخُـذُ كُـلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ (الكهف: 79)

أو حين قتـل الغلام، وهـو مصـيبة كبـيرة في نفسـه، ولكنـه صغيرة إذا ما قورن بنتيجته، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَـوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانـاً وَكُفْـراً فَأَرَدْنَـا أَنْ يُبْـدِلَهُمَا رَبُّهُمَـا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ (الكهف: 80 ـ 81)

قلت: فهمت هذا.. وأدركت سر كونه نعمة.

قال: ليس هذا فقط.. بل إن من نعم هذه المصيبة التي حلت بك أنها كانت في الـدنيا، ولم تكن في الـدين، وكـانت في الجسـد، ولم تكن في الروح، وتعلقت بالدنيا، ولم تتعلق بالاخرة.

قلت: لا يفقه سر هذا إلا من عـرف نسـبة الـدين إلى الـدنيا، ونسـبة الـروح إلى الجسـد، ونسـبة النشـأة الأولى إلى النشـأة الآخرة.. فاضرب لي مثالا يقرب لي هذا المعنى.

قال: صاحب السيارة الذي تعرض لحادث، مات فيه من مات لكنه نجا، وتأثرت سيارته، فإن هذا وإن تأسـف على مـا أصـابها، إلا أنه يحمد الله على أن المصيبة حلت بالسيارة، ولم تحل به.

قلت: هذا صحيح.. فكيف نطبق هذا المثل على ما نحن فيه؟

قال: لقد عرفنا أن الجسد مطية الروح ومركوبهـا، وأن غـذاء الروح هو الدين، وسمها هو التعلق بالدنيا.

قلت: أجل.. وقد ذكرتني بكلام جميل لبديع الزمان في هذا.

سمعت صوته، وهو يقول: (إن المصيبة التي تعدّ مصـيبة حقـاً والتي هي مضرة فعلاً، هي التي تصـيب الـدين. فلابـد من الالتجـاء الى الله سبحانه والانطراح بين يديه والتضرع اليه دون انقطاع. أما المصـــائب الـــتي لاتمس الـــدين فهي في حقيقـــة الامـــر ليســـت بمصائب، لأن قسماً منهـا تنبيـه رحمـاني! يبعثـه اللـه سـبحانه الى عبـده ليوقظـه من غفلتـه.. أمـا القسـم الآخـر من المصـائب فهـو كفارة للـذنوب، وقسـم آخـر أيضـاً من المصـائب هـو منحـة إلهيـة لتطمين القلب وافراغ السكينة فيه، وذلك بدفع الغفلة التي تصيب الإنسان، وإشعاره بعجزه وفقره الكامنين في جبلته)(1)

قال: وهناك ناحية أخرى مهمة يمكن الاعتبار منها هنـا تخفـف من البلاء وتجعله محدودا، بل تكاد تلغيه.

قلت: ما هي؟ فقد شوقتني.

قـال: هي محدوديـة آلام الـدنيا مهمـا عظمت بـآلام الآخـرة ومصائبها.

قلت: يشير إلى هذا المعنى آيات كثيرة، فالله تعالى يقـول: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَـدُونَ مَـا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء:25 ـ 207)، أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأمهلناهم برهة من الدهر وحيناً من الزمـان وإن طـال، ثم جـاءهم أمر اللّه، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم.

قال: لأنهم في ذلك الحين يدركون قصر عمر الدنيا التي كانوا يتفانون من أجلها.

قلت: وقـد دل على ذلـك آيـات كثـيرة، فاللـه تعـالى يقـول: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَـوْمَ يَـرَوْنَ مَـا يُوعَـدُونَ لَمْ يَلْبَثُـوا إِلَّا سَـاعَةً مِنْ نَهَـارٍ بَلاغٌ﴾

1) اللمعة الثانية: ص 16. بتصرف.

(الاحقاف:35)، وقوله تعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (النازعـات:46)

قال: وقد أخبر ﷺ أنه (يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسـة ثم يقال له هل رأيت خيراً قط؟ هـل رأيت نعيمـاً قـط؟ فيقـول: لا واللّه يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسـاً كـان في الـدنيا، فيصـبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقـول: لا واللّـه يـا رب)[1]، فلحظـة واحـدة في الجنـة تنسـي أشـد النـاس بؤسـا في الدنيا كل ما عاناه فيها.

قلت: فهمت الناحية الأولى، وعرفت أثرها ووجه كونها نعمـة، فما الناحية الثانية؟

قال: **محدودية الزمان**.

قلت: فسرها لي.

قال: هي ما أشار إليه قوله تعالى: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِـيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (البقرة:156)

قلت: فما وجه الإشارة فيها؟

قـال: كلمـة الاسـترجاع تحمـل دلالـة عظيمـة على محدوديـة البلاء، فالمؤمن المبتلى سـيرجع إلى ربـه، وسـتنتهي برجوعـه كـل أصناف البلايا.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: أرأيت لو أن مسجونا سجن أيامـا معـدودة.. وكـان آمـر السجن رحيما، فكان يرسل له كل يوم من يملؤه بالبشـر، ويقـول لـه: (إن هي إلا أيـام وتعـود إلى أهلـك ومالـك) ألا يستبشـر هـذا المسجود ويستأنس؟

---

1) مسلم.

قلت: بلى..

قال: فالله تعالى المبتلي لم يرسل لنا من يؤنسنا بـذلك، بـل هو الذي ملأنا بالأنس، فأخبرنا برجوعنا إليه ليمسح عنا كـل دمعـة، ويبرئ لنا كل جرح.

قلت: فهمت الإشارة.. فهل هناك إشارة أخرى؟

قال: قوله تعالى:﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى:4)

قلت: هذه الآية في تبشير رسول الله ﷺ.

قال: لا.. هـذه الآيـة تبشـر الكـل.. تبشـر كـل من يسـمع من الله.. فلا يصح أن نحجر على كلام الله.

قلت: فما فيها؟

قـال: ذكـر الآخـرة بعـد ذكـر البلاء يفيـد عظم الجـزاء الـذي يشهده المبتلون بعد أن تنقضي فترة بلائهم.

قلت: ألهذا التفت السحرة إلى المدة التي يمكن لفرعون أن يعذبهم فيها؟

قال: أجل، لقد وجدوها قصيرة لا تساوي شـيئا أمـام مـا عنـد الله، فقالوا له عندما وضعهم في ذلك الخيار الصعب: ﴿ لَنْ نُـؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَـا فَـاقْضِ مَـا أَنْتَ قَـاضٍ إِنَّمَـا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طـه:72)

قلت: ولهذا يعبر تعالى عن عذاب الآخرة وبلائها بكونه:﴿ أَشَـدُّ وَأَبْقَى﴾ (طـه:127)

قال: ليملأ القلوب المتألمة بالأنس بانتهاء عذابها المحدود.

قلت: لا ـ يا معلم ـ فهي آية تخويف لا تأنيس.

قـال: هي تخويـف وتـأنيس.. هي كـالزرع الـذي يسـقى بمـاء واحد، ويفضل بعضه على بعض في الأكل، ألم تسمع قوله تعالى: وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيـلٌ صِـنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُـلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (الرعد:4)

قلت: بلى.

قال: فذلك مطره النازل إلى الأرض، وهذا مطره النازل على القلوب.

قلت: فكيف يزرع هذا البسمة في القلوب المتألمة؟

قال: يروى أنّ يونس ﵇ قال لجبريل: دلـني على أعبـد أهـل الأرض، فدلـه على رجـل قـد قطـع الجـذام يديـه ورجليـه وذهب ببصـره، فسـمعه وهـو يقـول: إلهي متعتـني بهمـا مـا شـئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول.

قلت: ما معنى هذا؟

قال: معناه ما صـرح بـه بـاب مدينـة العلم[1] فيمـا رواه عنـه الأحنف بن قيس قال: ما سمعت بعد كلام رسـول اللـه ﷺ أحسـن من كلام أمير المؤمنين علي حيث يقول: (إن للنكبات نهايات، لا بد لكـل أحـد إذا نكب من أن ينتهي إليهـا، فينبغي للعاقـل إذا أصـابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضي مـدتها، فـإن في دفعهـا قبـل انقضـاء مدتها زيادة في مكروهها)

قلت: لقد استشهد الأحنف لهذا بقول الشاعر:

الدهر تخنق أحيانا قلادته

---

1) إشاة إلى قوله ﷺ:(أنا مدينـة العلم وعلي بابهـا، فمن أراد العلم فليـأت البـاب) رواه ابن عدي والطبراني في الكبير، والحاكم.

فاصبر عليه ولا تجزع ولا تثب

حتى يفرجها في حال مدتها

فقد يزيد اختناقا كل مضطرب

قال: وزيادة على هذا كله، فإن المـؤمن لا يغفـل بـالنظر إلى البلاء الذي نزل به عن الرخاء الذي عاشه، والـذي لا تـزال ترتسـم ذكرياته في ذهنه يستأنس بها.

قلت: ألهذا إشارة من القرآن الكريم؟

قال: أجل، قوله تعالى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِـيرَةٍ (التوبة:25)، فقد وردت هذه الآية في موضع من مواضع الألم تذكرهم بأفضال الله السابقة لتملأهم أنسا بها.

قلت: لقد قال الشاعر في هذا وأحسن:

فلا تجزع وإن أعسرت ... فقد أيسرت في الزمن

ولا تظنن بربّك ظنّ سوءٍ ... فإنّ الله أولى بالجميل

قال: هذه سنة الله في عباده، فهـو يبتلي بالسـراء والضـراء، فمن ابتلي بالسراء لا بد أن يبتلى ببعض الضـراء، ومن رحمـة اللـه محدودية الضراء بجنب السراء.

قلت: لقد أشار ابن مسعود إلى هذا بقوله: (لكل فرحةٍ تَرْحة، وما مُلِىءَ بيتٌ فرحاً إلا مُلِىءَ تَرحاً)

قلت: فما سر جعل البلاء محدودا؟

قال: لأن القصد منه هو الاختبـار، والاختبـار محـدود من حيث

الأسئلة المطروحة فيـه، ومن حيث المـدة الـتي تطـرح فيهـا تلـك الأسئلة.

قلت: فما هي المكاسب التي أنالها من هذه المحدودية؟

قـال: أول مكسـب لـك في هـذا هـو تقليـل عـدد مصـائبك وتحجيمها، بل تقزيمها، كمـا قـال بعض الصـالحين: (إذا نـزلت بـك مصيبة فصبرت، كانت مصيبتك واحدة، وإن نزلت بك ولـم تصـبر، فقد أُصبت بمصيبتين: فقدان المحبوب، وفقدان الثواب)

قلت: لقد ذكرتـني ــ يـا معلم ــ بأحـاديث جميلـة للصـالحين، فإنهم لا يغفلون بما حل بهم من بلاء عما بهم من نعم الله:

فقد حدث بعض الصـالحين، قـال: مـررت بعـريش من مصـر وأنا أريد الرباط، فإذا أنا برجـل في مظلـة قـد ذهبت عينـاه ويـداه ورجلاه، وبه أنواع البلاء وهو يقول: الحمد لله حمدا يـوافي محامـد خلقـك بمـا أنعمت علي وفضـلتني على كثـير ممن خلقت تفضـيلا. فقلت: لأنظرن أشيء علمه أم ألهمه اللـه إلهامـا؟ فقلت: على أي نعمـة من نعمـه تحمـده؟ أم على أي فضـيلة تشـكره؟ فواللـه لـو أرسل السماء علي نارا فـأحرقتني، وأمـر الجبـال فدكـدتني، وأمـر البحار فغرقتني ما ازددت له إلا حمدا وشكرا وإن لي إليـك حاجـة: بنية لي كانت تخدمني وتتعاهدني عند إفطاري انظر هل تحس بها؟ وقال عبد الوهاب بني كان لي فقلت: والله إني لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قربة إلى الله عز وجل. فخرجت أطلبها بين تلك الرمال فإذا السبع قد أكلها. فقلت: إنا لله وإنا إليـه راجعون، من أين آتي هذا العبد الصالح أخبره بمـوت ابنتـه؟ فأتيتـه فقلت له: أنت أعظم عند الله منزلة أم أيوب عليـه السـلام؟ ابتلاه الله في ماله وولده وأهله وبدنه حتى صار عرضا للناس؟ فقـال: لا بـل أيـوب. قلت: فـإن ابنتـك الـتي أمرتـني أن أطلبهـا أصـبتها وإذا السبع قد أكلها. فقال: الحمد لله الذي لم يخرجني من الـدنيا وفي قلبي منها شيء. فشـهق شـهقة فمـات. فقلت: إنـا للـه وإنـا إليـه

راجعون، من يعينني على غسله ودفنه؟ فإذا أنا بركب يريدون الرباط، فأشرت إليهم فأقبلوا إلي فأخبرتهم بالذي كان من أمره فغسلناه وكفناه ودفناه في مظلته تلك، ومضى القوم. وبت ليلتي في مظلته آنسا به حتى إذا مضى من الليل قد ثلثه إذا أنا به في روضة خضراء، وإذا عليه حلتان خضراوان، وهو قائم يتلو القرآن. فقلت ألست صاحبي بالأمس؟ فقال: بلى. فقلت: فما صيرك إلى ما أرى؟ قال: وردت من الصابرين على درجة لم ينالوها إلا بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء.

نعمة السكينة:

قلت: فما نعمة السكينة؟

قال: هي تلك الطمأنينة التي يجدها المؤمن عقب بلائه، وهي تثبيت الله تعالى للقلوب المتألمة، ولولاه لزلزل بها.

قلت: أهي الصبر؟ فالثبات هو ثمرة الصبر.. وهو نعمة تجعل في القلوب قدرة عجيبة على التحمل والتعايش مع البلاء.

قال: هي قريبة من نعمة الصبر.. ولكنها أعظم شأنا.

قلت: كيف؟

قال: السكينة هبة ربانية تنزل على من توفرت فيهم الأهلية، بينما الصبر عمل إنساني وجهد يمارسه المكلف ليتحقق به(1).

قلت: ألهذا ورد الأمر بالصبر، ولم يرد الأمر بالسكينة، فقد قال تعالى: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (البقرة:45)، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ((البقرة:153)، وقال تعالى: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ

1) وقد يتفق الصبر السكينة في كونهما هبة ربانية، كما في قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (البقرة:250)

قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (آل عمران:186)، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران: 200)، ولم يأت في آية واحدة الأمر بالسكينة.

قال: السكينة لا يؤمر بها، لأنها تتنزل.. وما يتنزل لا يؤمر به.. وإن صح أن يؤمر به، فإنه يؤمر بالتحقق بأهلية التنزل.

قلت: وما أهلية التنزل؟

قال: وقوف المؤمن في مواقف الخوف والشدة والزلزلة.

قلت: لقد نهينا عن طلب البلاء.

قال: لا أقصد ذلك.. ولكني أقصد أن تتعرض للبلاء المرتبط بالخوف والشدة والزلزلة.

قلت: فكل الخلق يتعرضون لذلك.. هذا من ضرورات الاختبار.

قال: فيهم من يتعرض لها بالله، وفيهم من يتعرض لها بنفسه.

قلت: فمن تعرض لها بنفسه؟

قال: يوكل إليها.. وقد يلتجئ إلى الصبر.. وقد يضيق به الصبر، فينتحر بجسده أو بروحه.

قلت: فمن تعرض لها بالله؟

قال: تتنزل عليه السكينة لتخبره بتولي الله له، وقيامه بشأنه.

قلت: ألهذا كان النبي ﷺ في مواقف الشدة يطلب السكينة؟.. فقد حدث بعضهم، قال: رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلدة بطنه، وهو يرتجز بكلمة

عبدالله بن رواحة:

لاهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: أجل.. ولهذا وردت السكينة في القرآن الكريم في مواضع الشدة(1).

قلت: وهي في أغلبها تتعلق برسول الله ﷺ والعصبة المؤمنة معه(2).

قال: أجل.. والعصبة المؤمنة معه تشمل صحابة رسول الله ﷺ المنتجبين إلى يوم القيامة.

قلت: الصحابة المنتجبون ماتوا.

قال: من اصطلح على تسميتهم كذلك ماتوا.. ولكن من صاحبوا رسول الله ﷺ بأرواحهم لا تخلو منهم الأرض.. ولو خلت منهم الأرض لأذن الله للقيامة أن تقوم.

نعمة التطهير:

قلت: فما نعمة التطهير؟

قال: الله تعالى برحمته ولطفه يحب عبادة المتطهرين(3)، فلذلك يهيء لهم من أسباب الطهارة ما يغسل به الأدران عنهم.

1) قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(التوبة:26) وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾(الفتح:4)

2) ما عدا ما ورد في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة:248) فإن السكينة هنا ارتبطت بالتابوت، قال ابن عباس:(كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة إلا التي في سورة البقرة)

قلت: لقـد قـال تعـالى في المطـر الـذي أنزلـه يـوم بـدر: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَـاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِـهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْـدَامَ (لأنفال:11)، وقال في الصدقات: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُـزَكِّيهِمْ بِهَـا (التوبـة:103)، وقـال في المحسـنين: لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُـونَ (الزمر:35)

قال: أجل.. فالله تعالى ينزل على عباده من أسباب الطهـارة ما يجعلهم أهلا لكل فضيلة.

قلت: والبلاء من هذه الأسباب؟

قـال: أجـل.. ألم تسـمع قولـه ﷺ: (مـا من مصـيبة تصـيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها)(1)

وعندما نزل قوله تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَـابِ مَنْ يَعْمَلْ سُـوءاً يُجْـزَ بِـهِ وَلا يَجِـدْ لَـهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّـاً وَلا نَصِـيراً (النساء:123) بلغت من المسلمين مبلغا شديدا فقال رسول اللـه ﷺ: (قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصـاب بـه المسـلم كفـارة حـتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يشاكها)(2)

والنصوص الكثيرة تنطق بهذا المعنى، فعندما دخـل عبـد اللـه بن مسـعود على النـبي ﷺ في مرضـه وجـده وهـو يوعـك وعكـا شديدا، فقال: إنك لتوعـك وعكـا شـديدا، إن ذاك بـأن لـك أجـرين قال: (أجل ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطايـاه كمـا تحات ورق الشجر)(3)

---

3) كما قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (التوبة:108)

1) البخاري ومسلم.

2) البخاري ومسلم.

3) البخاري ومسلم.

ولذلك يتخلص المؤمن في مرضه ـ بقدر سعة صبره ورضاه ـ من كل الذنوب التي رانت على قلبه، قال ﷺ: (إنما مثل المـريض إذا برأ وصح كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها)(1)

ويخبر ابن عباس قال: شكا نـبى من الأنبيـاء ــ عليهم الصـلاة والسلام ـ إلى ربه فقـال: (يـا رب، العبـد المـؤمن يطيعـك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون الكافر لا يطيعـك ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوى عنـه البلاء وتبسـط لـه الـدنيا فأوحى اللـه تعـالى إليـه إن العبـاد والبلاء لي وكـل يسـبح بحمـدى فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجز به بحسـناته ويكـون الكـافر لـه الحسـنات فأبسـط لـه فى الـرزق وأزوى عنـه البلاء فأجزيـه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته)

قلت: ألهـذا إذن وردت النصـوص بـالنهي عن سـب المـرض، فقـد دخـل ﷺ على أم السـائب، فقـال: (مـا لـك يـا أم السـائب تزفزفين؟) قـالت: (الحمى، لا بـارك اللـه فيهـا)، فقـال: (لا تسـبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد(2) (3)

---

1) الترمذي: 4/411.

2) ثبت علميا أنه عند الإصابة بالحمى تزيد نسبة مـادة(الأنترفـيرون) لدرجـة كبـيرة كما ثبت أن هذه المادة التي تفرزها خلايا الدم البيضاء تستطيع القضاء على الفيروسـات التي هاجمت الجسم وتكون أكثر قدرة على تكوين الأجسام المضادة الواقية... فضلا عن ذلك فقد ثبت أن مادة (الأنترفيرون) الـتي تفـرز بغـزارة أثنـاء الإصـابة بـالحمى لا تخلص الجسم من الفيروسـات والبكتريـا فحسـب ولكنهـا تزيـد مقاومـة الجسـم ضـد الأمـراض وقدرتها على القضاء على الخلايا السرطانية منذ بدء تكوينها وبالتـالي حمايـة الجسـم من ظهور أي خلايا سرطانية يمكن أن تؤدى إلى إصابة الجسم بمـرض السـرطان ولـذا قـال بعض الأطباء إن كثيرا من الأمراض نستبشر فيها بالحمى كما يستبشر المـريض بالعافيـة فتكون الحمى فيها أنفع من شرب الـدواء بكثـير مثـل مـرض الرمـاتيزم المفصـلى الـذي تتصلب فيـه المفاصـل وتصـبح غـير قـادرة على التحـرك ولـذلك من ضـمن طـرق العلاج الطبي في مثل هذه الحالات الحمى الصـناعية أي إيجـاد حالـة حمى في المـريض يحقنـه بمواد معينة ومن هنا ندرك حكمة رسول الله ﷺ في رفض سب الحمى بل والإشـادة بهـا بوصفها تنقى الذنوب كما تنقى النار خبث الحديد كما أشار هذا الحديث الشـريف، انظـر: الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية " لمحمد كامل عبد الصمد.

3) رواه مسلم.

قال: أجل.. فهو رحمة من رحمات اللـه.. ولا ينبغي أن يسـب عاقل رحمة الله.

قلت: ألهذا ـ أيضا ـ ورد في النصوص كراهية العافية الدائمـة، فقد روي أن رجلا جاءه المـوت في زمـان رسـول اللـه ﷺ، فقـال رجل: (هنيئا لـه مـات ولم يبتـل بمـرض)، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (ويحك وما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرض يكفر به عنه من سيئاته)

وروي عن الربيع بن عميلة قال: كنا مع عمار بن ياسر، وعنده أعرابي، فذكروا المرض، فقال الأعرابي: مـا مرضـت قـط، فقـال عمار: (لست منا، إن المسلم يبتلى بالبلاء، فيكون كفـارة خطايـاه، فتتحات كمـا تتحـات ورق الشـجر، وإن الكـافر يبتلى فيكـون مثلـه كمثل البعير عقل فلا يدري لم عقل؛ ويطلق، فلا يـدري لم أطلـق) (1)

قـال: ليس ذلـك على إطلاقـه.. فاللـه أعلم أين يضـع عافيتـه وبلاءه، والمؤمن لا يختار مع الله.. ولكنه إن ابتلي ببلاء شكر.

قلت: أيشكر أم يصبر؟

قال: النعم تشكر.. وقد عرفت أن البلاء نعمة.

قلت: ولكنه ورد بالأمر بالصبر معه.

قال: الصبر هـو الثبـات في وجهـه.. والشـكر هـو النظـر إلى المحاسن التي يختزنها البلاء.. والصبر هو مقام الغافلين.. والشــكر هو مقام العارفين.

قلت: ألهـذا كـان ﷺ يبشـر المرضـى، فقـد عـاد ﷺ رجلا من وعك كان به فقال: (أبشر، فإن الله يقول: هي ناري أسـلطها على عبدي المذنب لتكون حظه من النار)(2)

1) ابن عساكر.

2) أحمد والحاكم وابن ماجة.

وعاد ﷺ أم العلاء، وهي مريضة فقال: (أبشري يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة)(1)

قال: أجل.. ليخبرهم أن ما نزل بهم نعمة تستحق الشكر لا الأنين.

قلت: والمعاندون المعارضون.. كيف نبشرهم؟

قال: بما يبشر به العارفون.

قلت: فإن أعرضوا؟

قال: تعرض عنهم.. فقد روي أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعوده وهو محموم، فقال: (كفارة وطهور)، فقال الأعرابي: (بل حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور)، فقام رسول الله ﷺ وتركه(2).

قلت: فما سر كون البلاء مطهرا من الذنوب؟

قال: هو ما يحدثه في القلب من ترفع عن الدنيا، وعدم تعلق بها، ونوع من الزهد فيها، فحب الدنيا رأس كل خطيئة.. ألم تسمع ببصيرتك ما يقول الغزالي.. فهو من أطباء هذا المستشفى وكل مستشفى؟

أصخت ببصيرتي، فإذا بي أسمعه، وهو يقول: رأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عن دار الغرور، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها، وأنسه بها حتى تصير كالجنة فى حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه

---

1) مسلم.

2) البيهقي في شعب الإيمان.

عن الدنيا، ولم يسكن إليها، ولم يأنس بها وصـارت سـجنا عليه[1]، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن.

قلت: البلاء نعمة من هذا الوجه يجب الفـرح بهـا.. ولكن الألم مع ذلك موجود.

قـال: هـو ضـرورى، وهـو يضـاهى فرحـك عنـد الحاجـة إلى الحجامة بمن يتـولى حجامتـك مجانـا، أو يسـقيك دواء نافعـا بشـعا مجانا، فإنك تتألم، وتفرح، فتصـبر على الألم وتشـكره على سـبب الفرح، فكل بلاء فى الأمور الدنيويـة مثالـه الـدواء الـذى يـؤلم فى الحال وينفع فى المآل.

قلت: هذا مثال رائع.. وهـو يجعـل المعـنى قريبـا إلى الخيـال كقرب الحس.

قال: وعكس ذلك من دخل دار ملـك للنظـر فيهـا، وعلم أنـه يخرج منها لا محالة، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار..فـإن ذلك وبال عليه وبلاء..

قلت: لم.. فقد رأى حسنا.

قال: لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقـام فيـه، ولـو كـان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه، فأصابه مـا يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه.

وهكذا الدنيا، فهي (منزل وقد دخلها النـاس من بـاب الـرحم، وهم خارجون عنها من باب اللحد، فكل ما يحقـق أنسـهم بـالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بهـا فهـو نعمـة، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بـأن ثـواب المصـيبة أكـبر من المصـيبة لم

1) وفي هذا يقول ﷺ:(الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم.

يتصور منه الشكر على المصيبة)(2)

نعمة المعاينة:

قلت: فما نعمة المعاينة؟

قـال: هي نعمـة رؤيـة اللـه لموقـف عبـده، ومعاينتـه لصـبره ورضاه.

قلت: الله يرى الكل، ويعاين الكل، فإنه لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (آل عمران:5)، فمـا وجـه الاختصـاص في هذه النعمة؟

قـال: اللــه يــرى الكــل.. ولكن لا يشـعر برؤيتـه إلا خــواص الخواص.

قلت: من هم؟

قـال: الـذين رفـع اللــه عن أعينهم الغشـاوة، وعن قلـوبهم الحجب.

قلت: فما يفيدهم استشعار رؤية الله لهم؟

قال: الأنس الذي يقضي على بلائهم.

قلت: هم يأنسون بالله دائما.. فما علاقة ذلك بالألم والبلاء؟

قال: ألم يبتلهم الله لينظر كيف يعملون؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى: وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَــيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التوبة:105)

قـال: أليس الثبـات في وجــه البلاء بــالأنس باللــه عملا من

2) إحياء علوم الدين: 4/130.

الأعمال الصالحة؟

قلت: بلى.. بل هو من أعظم الأعمال الصالحة، ولـذلك يـنزل الله البلاء على عبده بحسب درجة إيمانه.

قال: فإذا شعرت بـأن اللـه الـذي ابتلاك ينظـر إليـك ألا تتقن عملك؟

قلت: تقصد إتقان موقفي مع البلاء.

قال: أجل.

قلت: نعم، فشعوري برؤية الله لي لا يزيدني أنسا فقـط، بـل أشعر بشعور لست أدري مدى صحته.

قال: وما تشعر؟

قلت: ممارسو الرياضات عندنا يستقدمون مشجعيهم، فلذلك كلما كثر مشجعوهم كلما زاد ذلك من حماستهم، فشـعوري برؤيـة الله يعطيني نوعا من هذه القوة.

قال: هذا صحيح.. ولو أن الله أعظم من كل المتفرجين..

قلت: أجل، فلله المثل الأعلى.

قال: لقد دلت النصوص هذا المعنى، فالله تعالى يقــول لنــوح ﵇ وهو يواجه أعظم المصـائب والضـغوط من قومـه حين صـنعه للفلك:﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (هود:37)

قلت: لا شك أن هذه الكلمة كـان لهـا أثـرا خطـيرا في نفس نوح ﵇.

قال: أجل.. وقد قيل مثلهـا لرسـول اللـه ﷺ، فقـد قـال اللـه تعالى له، وهو في مواقـف لا تقـل عن موقـف نـوح ﵇:﴿ وَاصْـبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور:48)

قلت: لقد ذكرتني بسيّد الشهداء الحسين بن علي ، فقد قـال بعد أن تفاقم الخطب أمامه في كربلاء، واستشـهد أصـحابه وأهـل بيته: (هون علي ما نَزَلَ بِي أَنهُ بِعَيْنِ اللهِ)

قال: ولهذا اعتبر ﷺ الإحسان الذي هو قمة الأعمال الصالحة، أو أداء الأعمال بأحسن الكيفيات متعلقا بالشعور برؤية اللـه سـواء كان رؤية معاينة أو رؤية مراقبة.

قلت: ولكن هذه النعمة ـ يا معلم ـ مختصة بالمحسنين، وهـذا المستشفى يداوي عموم الناس، فكيف يعطى لهم مثل هذا الدواء الذي قد لا يستسيغونه؟

قـال: أطبـاؤكم يعطـون مرضـاكم أدويـة كثـيرة لا تستسـيغها أجسامهم، ولا تأنس لها، بل هي تثير فيهـا عللا كثـيرة، فهـل منعهم ذلك من استعمالها؟

قلت: لا.. فشـعورهم بخطـر الـداء الـذي يقفـون في وجهـه يدعوهم لممارسة كل الأساليب.

قال: فكذلك الأولياء يعالجون الخلـق بأدويـة كثـيرة، منهـا مـا يفهمونه، ومنها ما لا يفهمونه، فما استسـاغوه انتفعـوا بـه، ومـا لم يستسيغوه أعطاهم نوعا من الشوق لاستساغته.

قلت: فما ينفع الشوق؟

قال: من لم يحترق جوفـه بلهيب الأشـواق، لم يستسـغ تلـك الأذواق.

قلت: كيف؟

قال: لا يعرف لذة الماء إلا من أحرق العطش جوفه.

قلت: فهمت.

قال: ما فهمت.

قلت: سر الإغـراب والغمـوض الـذي يضـع هالـة جميلـة على كلام الحكماء من أهل الله.

قال: هو يضع تلك الهالة لتثير الأشواق.. فـإذا ثـارت الأشـواق كان الوصول بقدرها.

نعمة الثواب:

قلت: فما نعمة الثواب؟

قـال: حينمـا تـزاح الغشـاوة الـتي تكسـو العيـون في الـدنيا، فتفسد بسببها المقـاييس يـدرك الخلـق الكنـوز الـتي كـان يخفيهـا البلاء، فيودون ما أخبر عنه ﷺ بقوله: (يود أهل العافية يوم القيامـة حين يعطى أهـل البلاء الثـواب لـو أن جلـودهم كـانت قرضـت في الدنيا بالمقاريض)[1]

قلت: هذا حديث عظيم.

قال: فبشر به.

قلت: كيف؟

قال: علقه على أبواب المستشفيات.. واكتبه على كل وصفة مريض.. واذكره لكل مبتلى.

قلت: لا أعرف أن مثل هذا من الأعمـال الخيريـة الـتي يـؤجر عليها.

قـال: هـذا من أعمـال الرسـل وخلفـاء الرسـل، فهم الـذين أرسلوا بالبشـارة وللبشـارة.. أليس دين اللـه أعظم بشـارة؟.. ألم يرسل المسيح عليه السلام لأجل هدف واحد هو البشارة؟

1) الترمذي كتاب الزهد رقم (2403) عن جابر وقال هذا حديث غريب.

قلت: أجل، بل إن لفظ (الإنجيل) نفسها تعني البشارة.

قال: ألم يأمر النبي ﷺ بكل ما يملأ المبتلى بالبشر والأنس؟

قلت: بلى.

قال: فهذا من ذاك.

قلت: فما الثواب المعد لأهل البلاء غير ما ذكرنا من النعم؟

عدم الحساب:

قال: أول ثواب عدم حسابهم يوم القيامة.

قلت: هـذه نعمـة عظيمـة لا يمكن تصـورها، فـإن أعظم مـا يخافه كل مؤمن هو الحساب.. أن تنشر صحفه، فيعـاين جرائمـه.. أو يفضح بين الخلائق.. إنـه موقـف صـعب جـدا.. فأحـدنا لا يطيـق الوقوف في محكمـة الـدنيا ليحاسـب، فكيـف يطيـق الوقـوف في محكمة الآخرة؟

قال: ومع ذلـك، فقـد وردت البشـارات لأهـل البلاء النـاجحين بهذا النوع من الثواب، فقد روي أن امرأة جاءت إلى النـبي ﷺ بهـا لمم فقالت: (يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني) قـال: (إن شـئت دعوت اللـه أن يشـفيك، وإن شـئت فاصـبري ولا حسـاب عليـك)، قالت: (بل أصبر ولا حساب علي)(1)

وفي حـديث آخـر، قـال ﷺ: (يـؤتى بالشـهيد يـوم القيامـة، فينصب للحساب، ويؤتى بالمتصـدق، فينصـب للحسـاب، ثم يـؤتى بأهـل البلاء، فلا ينصـب لهم مـيزان ولا ينشـر لهم ديـوان، ويصـب عليهم الأجر صبا، حـتى إن أهـل العافيـة ليتمنـون في الموقـف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض، من حسن ثواب الله لهم)(2)

---

1) أحمد وابن حبان والحاكم.

2) الطبراني في الكبير.

قلت: هذه بشارة عظيمة ترفع المبتلى إلى درجات تفوق درجات الشهداء والمتصدقين.

قال: ليس ذلك على الله بعزيز، فإن من المبتلين من يموت في اليوم مائة مرة، بينما الشهيد لا يموت إلا مرة واحدة(1).

قلت: أهذا احتقار للشهادة؟

قال: لولا عظمة الشهادة ما ذكرها رسول الله ﷺ في هذا الموقف.

قلت: فما سر هذا الجزاء؟

قال: ألم نعلم أن البلاء الذي يقع على المؤمن المحتسب يطهره من ذنوبه.

قلت: عرفنا ذلك عند معاينة نعمة التطهير.

قال: فلذلك إن عظم البلاء، وصبر عليه المبتلى، لقي الله وليس عليه ذنب يحاسبه عليه.

قلت: لقد روي في هذا عن أنس قال دخلت مع النبي ﷺ نعود زيد بن أرقم وهو يشتكي عينيه فقال له: (يا زيد، لو كان بصرك لما به كيف كنت تصنع؟)، قال: (إذا أصبر وأحتسب)، قال: (إن كان بصرك لما به ثم صبرت واحتسبت لتلقين الله عز وجل وليس لك ذنب)(2)

قال: ولكن هذه البشارة العظيمة لها فئة محدودة.

قلت: وكيف عرفت ذلك.. هل اطلعت على قوائم أهل الآخرة فترى من يعفى منهم من الحساب؟

---

1) بل إن البلاء العام الذي يصاحبه الرضا شهادة في سبيل الله، قال ﷺ: (الطاعون شهادة لكل مسلم) البخاري ومسلم.

2) أبو يعلى، وابن عساكر.

قال: أنا أضعف من أطلع.. ولكن الله أطلعنا.

قلت: أين؟

قال: ألم تقرأ قول رسول الله ﷺ: (عُرِضَت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط(1)، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدوا في الإسلام فلم يُشركوا بالله شيئاً-وذكروا أشياء- فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: (ما الذي تخوضون فيه؟) فأخبروه فقال: (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)(2)

قلت: إذن هم سبعون ألفا.. هو عدد لا بأس به.

قال: وقد ذكرهم رسول الله ﷺ بأوصافهم ليتنافس في الوصول إلى درجاتهم.

قلت: أجل، فهم الذين لا يطلبون من أحد أن يرقيهم أو يكويهم، فهم لا يسألون أحداً إلا الله، حتى في ساعات الضعف والمرض.

الجنة:

قال: وأما الثواب الثاني الذي الذي وردت به النصوص، فهو دار السعادة الأبدية.

قلت: الجنة !؟

1) تصغير رهط وهو ما دون العشرة أنفس.

2) البخاري ومسلم.

قال: لقد أخبر ﷺ أن البلاء الذي يصاحبه الرضا والصبر يقود صاحبه إلى الجنة، ومما يروى في ذلك قوله ﷺ: (إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة، يريد عينيه)(1)

قلت: هذا ثواب عظيم.. فالجنة هي الدار التي تهفو لها القلوب.

قال: ومن رحمة الله بعباده أن جعل لها هذا الجزاء الذي لا يستدعي غير الثبات.

قلت: ولكن يبدو أن هذا الجزاء العظيم لا يكون إلا في البلاء العظيم المستمر، ولأهل العزيمة في الصبر.

قال: هذا صحيح، وهو ما توحي به النصوص، فقد روي عن عطاء قال، قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة مِنْ أهل الجنة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع اللَّه تعالى لي، قال: (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت اللَّه تعالى أن يعافيك)، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع اللَّه أن لا أتكشف، فدعا لها)(2)

وعن أبي سنان قال: دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة (يعني الخولاني) فأخرجني وقال لي: ألا أبشِّرك؟ قلت: بلى، قال: قال رسول اللّه ﷺ: (قال اللّه: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد)(3)

رفع الدرجات:

---

1) رواه البخاري والترمذي.

2) البخاري ومسلم.

3) أحمد والترمذي.

قلت: فما الثواب الثالث؟

قال: رفع الدرجات.

قلت: وما رفع الدرجات؟

قـال: ترقيـة العبـد من محـل في الجنـة إلى محـل أعلى.. ألا تعرفون الترقيات؟

قلت: بلى.. نعرفها.. ونتنافس فيها.

قال: فقل لقومك: (تنافسوا في درجات الجنة.. ودعــوا عنكم الصراع على تلك الدرجات التي ينشغل بها الأطفال)

قلت: هم لا يسمعون مني.

قال: فأسـمعهم قولـه ﷺ: (إن العبـد إذا سـبقت لـه من اللـه منزلـة لم يبلغهـا بعملـه ابتلاه اللـه في جسـده أو في مالـه أو في ولده، ثم صبره على ذلك، حتى يبلغه المنزلة الـتي سـبقت لـه من الله تعالى)(1)، وقوله ﷺ: (ما من مسلم يصاب بشيء في جســده فيصبر إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه به خطيئة)(2)

قلت: يبدو أن هذا الجزاء العظيم يرتبط كذلك بالبلاء العظيم.

قال: أجل، فقد أخبر ﷺ أن الرجل يكون له عند الله المنزلـة، فما يبلغها بعمل فما يزال يبتليه بمـا يكـره حـتى يبلغـه إياها، وبـأن عظم الجزاء مع عظم البلاء(3).

قلت: ألهذا أخبر ﷺ أن أكثر الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل، فالأمثل.

---

1) رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط.

2) ابن جرير.

3) الترمذي وقال حديث حسن غريب.

قال: أجل، فقد قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: (الانبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)(4)

قلت: فالطامحون للدرجات العليا معرضون للبلاء إذن أكثر من غيرهم.

قال: يروى في ذلك أن رجلا قال لموسى: يا موسى، سل الله لي حاجة يقضيها لي هو أعلم بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذ هو بالرجل قد مزق السبع لحمه وقتله؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعالى له: (يا موسى انه سألني درجة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما ترى لأجعلها وسيلة له في نيل تلك الدرجة)، فكان أبو سليمان الداراني إذا ذكر هذا الحديث يقول: سبحان من كان قادرا على أن ينيله تلك الدرجة بلا بلوى، ولكنه يفعل ما يشاء.

صلاة الله:

قلت: فما الثواب الرابع؟

قال: هو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة:155 ـ 157)

قلت: فما في هذا من الثواب؟

قال: لقد أخبر تعالى عن صلاته ورحمته بهؤلاء الصابرين، وهل هناك جزاء أعظم من صلاة الله على عبده.

قلت: فهل صلاة الله على عبده جزاء؟

4) أحمد والبخاري وابن ماجة والترمذي وابن حبان والحاكم.

قال: جزاء فوق الأجزية.. بل لا تعدلها أي جائزة أخرى.

قلت: فما تعني؟

قـال: هي تقـريب اللـه لعبـده، والقـرب لا يسـاويه جـزاء ولا يطاوله ثواب، فهو إخـراج من الظلمـات إلى النـور، ومن الحجـاب إلى المشـاهدة، ألم تسـمع قولـه تعـالى: ﴿ هُـوَ الَّذِي يُصَـلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمـاً ﴾ (الأحزاب:43)؟

قلت: بلى، فما يعني هذا؟

قـال: البلاء نافـذة عظيمـة من نوافـذ التعـرف على اللـه والتقـرب منـه، والتعـرف على اللـه هـو النـور الـذي يرفـع كـل الظلمات، والحق الذي يقتل كل باطل.

قلت: لقد ذكرتني بحكمة لابن عطاء الله يقول فيهـا: (إذا فتحَ لكَ وِجْهةً من التَّعرُّفِ فلا تبالِ معها أن قلَّ عملُكَ؛ فإنه ما فَتَحَها لك إلا وهو يريد أن يتعرَّفَ إليكَ.. ألم تعلم أن التَّعَرُّفَ هو مُورِدُهُ عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تُهديه إليه مما هو مُورِدُهُ عليكَ)

استمرار الثواب:

قلت: يا معلم.. كل ما ذكرته، وما وردت بـه النصـوص ثـواب عظيم، ولكنه مع ذلك قد يحال بين المريض وبين كثـير من أعمـال البر، وتلك خسارة عظيمة.

قال: لا.. فالله الشكور الحليم لا يضيع عمل عبده إن قعـد بـه الداء عنه، ألم تسمع قوله ﷺ: (إن العبد إذا مرض أوحى الله تعالى إلى ملائكته: أنا قيدت عبدي بقيد من قيودي، فإن أقبضه اغفر لـه، وإن أعافه فحينئذ يقعد لا ذنب له)(1).

---

1) الحاكم عن أبي أمامة.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (ما من مسـلم يصـاب في جسـده إلا أمر الله تعالى الحفظـة: اكتبـوا لعبـدي في كـل يـوم وليلـة من الخير ما كان يعمل، ما دام محبوسا في وثاقي)(1)

وفي الأثر الإلهي: (قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدا من عبـادي مؤمنا فحمدني وصبر على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضـجعه ذلـك كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب للحفظة: إني أنـا قيـدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك من الأجـر وهو صحيح)(2)

بل إن رسول الله ﷺ أخبر بـأن مجـرد الاسـترجاع عنـد تـذكر المصيبة له ثوابـه عنـد اللـه، قـال ﷺ: (مـا من مسـلم ولا مسـلمة يُصاب بمصيبة فيذكرها، وإن طال عهدها فيحدث لـذلك اسـترجاعاً إلا جدّد اللّه له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب)(3)

---

1) الحاكم عن ابن عمرو.

2) أحمد والطبراني في الكبير وأبو نعيم عن شداد بن أوس.

3) أحمد وابن ماجة.

ثانيا ـ حصن الأمل

دخلنا الحصن الثاني من حصون الروح.. وقد كانت تفوح منـه روائح عطرة تنشرح لها الصدور.. وتشع من جنباته أنـوار تسـر لهـا العين، ويبتهج لها القلب.

وقد شد انتباهي في هذا الحصن وجود مرضى فيـه، وهـو مـا لم أره في القسـم السـابق، ولكنهم مرضـى، لا كالمرضـى.. يجلسون مسترخين ـ كما نسترخي أمـام شـواطئ البحـار ـ ولكن البحار التي كانوا ينظرون إليها، والتي كـان نسـيمها يهب عليهم لم تكن كالبحار.. كان كل شيء ليس ككل شيء.

قلت: ما هذا القسم يا معلم؟

قال: هذا حصن الأمل.

قلت: فهل ينتظر هـؤلاء المرضـى دورهم في العلاج؟.. إني لا أرى الضـيق في وجـوههم كمـا أراه في عيـون المرضـى الـذين ينتظرون في قاعات الانتظار عندنا.

قال: هؤلاء يتنعمون بانتظارهم.

قلت: يتنعمون!؟.. لم أعلم إلا أن الانتظار ضيق للصدر، وقتل للوقت، فكيف يكون نعمة؟

قال: انتظاركم ضيق للصدر وقتـل للـوقت، أمـا انتظـار أهـل السلام فهو عمل وعبادة وقرب.. وهـو لـذلك روح من روح الجنـة، وعطر من عطرها.

بينمـا أنـا كـذلك سـمعت صـوتا جميلا مـادت لجمالـه أجسـاد المرضى المسترخين، وكان ينشد:

إذا ضاق أمر فانتظر فرجا   فأصعب الأمرأدناه من

فلما سكت هب صوت آخر يردد بلحن عذب:

كن عن أمورك معرضا وكل الأمور إلى القضا
فلربما اتسع المضيق: وربما ضاق الفضا
ولرب أمر متعب لك في عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء فلا تكن متعرضا
الله عودك الجميل فقس على ما قد

فلما سكت هب صوت ثالث يردد بلحن عذب:

رب أمر ضاقت النفس جاءها من قِبَل الله
لا تكن في وجه روح ربما قد فرجت تلك
بينما المرء كئيب دنف جاءه الله بروح وفرج

قلت: أهذا مجلس إنشاد.. أم مجلس علاج؟

قال: في هذا القسم يعالج المرضى بكل المراهم.. كل ما يزيد في أملهم في الله، وفي تحقيق مرادهم يذكر هنا.

قلت: ولكن هؤلاء بجلوسهم هذا واسترخائهم وقعودهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويضيعون ما أمر الله به أن يؤدى، ألم يعرفوا أن وظيفة الإنسان في الحياة هي عبادة الله؟

قال: بلى.. وهم يعبدون الله في استرخائهم، كما يعبدون الله بقيامهم.

قلت: لم أعلم أن هناك عبادة تسمى الاسترخاء.

قال: ألم تقرأ قوله تعالى: الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامـاً وَقُعُـوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ (آل عمران:191)

قلت: بلى.. فالله يثني على هؤلاء خير ثناء.

قـال: فـإن العابـد للـه حقـا من لا يغفـل عن عبادتـه في كـل محل.. فالله لا يعبد فقط بالقيام.

قلت: نعم.. هو يعبد بالركوع والسجود.

قــال: وبالاســترخاء والقعــود والانتظــار كمــا ينتظــر هــؤلاء المرضى.. ألم تسمع قولـه ﷺ: (سـلوا اللـه من فضـله فـإن اللـه يحب أن يسأل، وأفضل العبـادة انتظـار الفـرج)(1)، فقـد اعتـبر ﷺ انتظـار الفـرج عبـادة، ومـا الانتظـار إلا جلـوس لا يختلـف عن هـذا الجلوس.

قلت: ولكن ما سـر اعتبـار هـذا الانتظـار عبـادة.. بـل أفضـل عبادة؟

قــال: لأن القصــد من العبــادة هــو خلاص القلب من كــل الشوائب، وقطعه لكل العلائق.. أيمكن للشـخص أن يصـلي، وهـو يحادث صاحبه؟

قلت: لا.. إن الصلاة يبطلها هذا الشـغل وغـيره.. فهي أفعـال تتنافى مع روح الصلاة.

قال: فكذلك العبد إذا خلص قلبه لله منتظرا فرجه.. فهـو في ذلك الحال لا ينظر إلا لله.. ولا ينتظر إلا من الله.

قلت: عرفت كونه عبادة.. ولكن كيف يكون أفضل العبادة؟

قال: لأنـك في الصـلاة قـد تغفـل عن صـلاتك.. قـد لا تحـدث صاحبك، ولكنـك تحـادث نفسـك وتمازحهـا.. ولكن القلب المتعلـق بالله قلب عارف.. لا يغفل عن الله لحظـة.. وأنت في الصـلاة قـد تشوب صلاتك بنـوازع الشـرك.. بينمـا في هـذا الانتظـار لا تحـدثك نفسك بأي رياء أو مسمعة.. وأنت في الصلاة..

---

1) الترمذي.

قلت: فهمت هذا يا معلم.. وقد عرفت سر تفضـل اللـه على عباده الصالحين بقطع العلائق عنهم.

قال: لقد ورد في بعض الكتب الإلهية: (لأقطعن أمل من أمل سواي وألبسه ثوب المذلة بين النـاس، أتقـرع بـالفقر بـاب غـيري وبابي خير لك؟)

قلت: هذا صحيح، فإن كل أمل في غير الله يأس، وكل رجـاء في غيره طمع، وكل استعانة بغيره خذلان.

قال: ولهذا لم تجد خبرتكم الطبية العظيمة، ولا مستشفياتكم الضخمة، ولا جيوشـكم الهائلـة من الأطبـاء في دحـر جيش اليـأس القاتل الذي يدفع أعدادا هائلة منكم إلى الانتحار.

قلت: هذا صحيح.. ولكن مـا عسـى الأطبـاء أن يفعلـوا.. لقـد استعملوا كل قواهم العقلية.

قال: فلم لا يبعثونهم إلى هذا المستشفى؟

ضحكت، وقلت: ومن يسـمع بهـذا المستشـفى.. إنـني أقـف فيه.. ولكن لا أعلم عنه شيئا.. ففي أي مكان هو؟.. لعلي أفلح في إقناعهم بالإرشاد إليه.

قال: هو في كل مكان..

قلت: ولكنا لا نراه..

قال: لأنكم لا تبصرون..

قلت: نحن نبصـر.. بـل نزيـد في قـوة أبصـارنا كـل يـوم بمـا نخترعه من ألوان العدسات المكـبرة.. فنحن نـرى المجـرات كمـا نرى دقائق الميكروبات.

قال: أنتم تبصرون بأبصاركم، ولا تبصرون ببصائركم.. فلـذلك

تعشى عيونكم عن رؤية مثل هذه الأدوية.

بينما أنا كذلك إذ سمعت صوتا عذبا تميد له قلـوب الجالسـين يردد قولـه ﷺ: (احفـظ اللـه يحفظـك، احفـظ اللـه تجـده أمامـك، تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة، فإذا سـألت، فسـل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، جف القلم بما كان وما هو كائن، فلو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يكتبه اللـه عـز وجـل لـك، لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل لله بالصدق واليقين، فافعـل، فإن لم تستطع، فإن في الصبر على ما تكـره، خـيراً كثـيراً، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسـر يسـراً)(1)

قلت: الله !.. لكأني أسمع هذا الحديث لأول مرة.. ما أحسـن قراءة هذا الصوت لهذا الحديث.

قال: هذا صوت القلب..

قلت: أليس هذا صوتا للسان؟

قال: هو صوت اللسان النابع من القلب.

قلت: لقد رأيت هؤلاء المسترخين يميدون كما تميـد السـنابل تحركها الأعاصير.

قـال: أرواحهم تبـع لأجسـادهم.. ومن يسـمع مثـل هـذا ولا يميد!؟.. أتعلم لمن قال رسول الله ﷺ هذا الحديث؟

قلت: بلى.. لقد قاله لابن عباس .

قال: فأي شيخ هو؟

قلت ضاحكا: شيخ.. لا.. لقد كان غلاما صغيرا.

قال: أرأيت كيف يربي ﷺ الأمل في الله في قلوب الأطفال..

1) الحديث بهذا اللفظ رواه الطبراني في الكبير وابن حبان.

سمعت أنكم تلقحون صبيانكم في صغرهم لتحفظوهم من شـرور الأوبئة.

قلت: بلى، فنحن نلقحهم ضـد السِلِّ والتيتـانس، وشـلل الأطفال، والجدري، والشاهوق، والحميراء، والخناق.. وقد نلقحهم في حال الضرورة ضد التهاب السحايا، والكوليرا، والتيفوئيد، والحمَّى الصفراء، والكَلَب..

قال: فلا تنسوا أن تضيفوا هذا اللقاح.

قلت: أي لقاح؟

قال: لقاح الأمل في الله.. وفي حفظ الله.. وفي فرج الله.. فهذا اللقاح هو الذي يقي أرواحهم من فيروسات اليأس القاتلة.

قلت: فهمت كل هذا ـ يا معلم ـ ولكني لا أعرف أن مثل هذا يمكن اعتباره علاجا؟

قال: لم؟

قلت: لأن العلاج هو الذي يقضي على المرض، أما هذا، فلا يفعل شيئا.. بل المرض هو المرض.

قال: فهل جميع أدويتكم تقضي على الأمراض؟

قلت: منها ما يقضي، ومنها ما يخدر.

قال: أفلا تلجأون إلى هذا النوع من الأدوية المخدرة في كثير من الأمراض؟

قلت: بلى.. نلجأ إليها.. بل لا تكاد تخلو وصفة منها.

قال: فاعتبروا هذا من ذاك.

قلت: ولكني أعتبر هذا نوعا من الكذب على النفس.. وكأني

أقول لها: لقد شفيت، مع أن الطعنات التي يواجهها بهـا المـرض لا تزال تنخر قواها.

قال: لا.. ليس هذا من الكذب.. بل هو من سياسة النفس.

قلت: ما معنى هذا؟

قال: ألم تسمع قوله ﷺ: (إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئا، وهو يطيب بنفس المريض)(1)

قلت: بلى..

قال: فقد شرع ﷺ في عيادة المريض أن ننفس عنه، ونبسط له جناح الأمل، فالأمل وحده سعادة، وما أضيق العيش لولا فسـحة الأمل(2).

قلت: ولكن الجسد ـ مع ذلك ـ يبقى عليلا، فهـو كـالتبن الـذي يخفي النار التي تلتهمه.

قال: والأمل هو الماء الذي يطفئ تلك النار، فلذلك قد يكــون فيه من القوة بحيث يستطيع القضاء على المرض..

قلت: إذن دور هو القسم من أقسام المستشـفى هـو البحث عن كل ما يشرح صدر المريض من الأعشاب والأغذية.

قال: لا.. ليس هذا فقط.. وهذا ميدان أطباء هـذا القسـم من المختصين.. ولكن هناك شيء آخر، وهو أهم من تلك الأدوية.

---

1) الترمذي وابن ماجة.

2) ويدل لهذا قوله تعالى ـ وهو يبين قيمة الأمل وثمرته النفسية ـ:﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْـرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُـوبُكُمْ بِـهِ وَمَـا النَّصْـرُ إِلَّا مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ الْعَزِيـزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمـران:126)، أي ومـا أنـزل اللّـه الملائكـة وأعلمكم بـإنزالهم إلا بشـارة لكم وتطييبـاً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند اللّه الذي لو شاء لانتصـر من أعدائـه بـدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم. فمع أن النصر من عند الله، إلا أن إحبار المؤمنين بمـدد الله من الملائكة كان له تأثيره الجميلة في نفوس العصبة المؤمنة.

قلت: أهم من تلك الأدوية!؟

قال: أجل.. فتلك الأدوية قد يفلح مفعولها، وقد لا يفلح.. بينما هذه الأدوية التي سنزور أقسامها لا شك في جدواها.

قلت: فما هو منبع هذه الأدوية؟

قال: حسن الظن بالله.

قلت: لم كان حسن الظن منبع الأمل؟

قال: لأنه يجعل القلب متوجها لخير الله منتظرا فضله، والله عند ظن عبده، وقد قال ﷺ في الأثر الإلهي: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني)[1]

***

سمعت أصواتا جميلة تترنم بلحن، لست أدري هل كان من السماء أم من الأرض، تقول:

أحسن الظن برب عودك	حسنا أمس وسوى
إن ربا كان يكفيك الذي	كان بالأمس سيكفيك غدا

قلت: الله ! ما هذا لصوت الجميل.. ومن أين يصدر.. لا أرى مذياعا هنا.. ولا آلة تسجيل.

قال: أصوات البصائر لا تحتاج إلى الآلات.

قلت: فمن لحن هذا اللحن؟

قال: ألحان القلوب لا تحتاج إلى ملحنين، فهي عذبة بذاتها.

قلت: فلم كان حسن الظن بالله منبع انتظار الفرج

1) البخاري ومسلم، وتتمته:(فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)

وأساسه؟

قال: لأن الشعور بقرب الله ورحمته، والتفكر في فضله ورأفته، يجر إلى إحسان الظن به، وإحسان الظن به، سبيل للاستعانة به.. فلا يمكن أن تستعين بمن تشك في فضله أو قدرته.

بينما أنا كذلك إذ رأيت شخصا يربت على كتفي، لعله أول شخص ينتبه لي في هذا المستشفى، فالكل كان غارقا في توحده، قال لي: (استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عز وجل، في كشفها، فإن ذلك أقرب بك إلى الفرج)، ثم مضى.. لا يهتم بردي.. ولا ينتظر سؤالي.

بعدها سمعت صوتا جميلا.. لا يقل عن الصوت السابق جمالا يردد:

يا صاحب الهم إن الهم منفرج أبشر بخير فإن الفارج اللهُ

إذا بليت فثق بالله وارض به إن الذي يكشف البلوى هو اللهُ

اليأس يقطع أحيانا بصاحبه لا تيأسن فإن الفارج اللهُ

الله يحدث بعد العسر ميسرة لا تجزعنّ فإن الكافي اللهُ

والله ما لك غير الله من أحد فحسبك الله في كلّ لك اللهُ

قلت: الله.. ما أجمل هذه القصيدة.. كثيرا ما كنا نترنم بها.. ولكني أسمعها بلحن لم أسمعه من قبل..

قال: هذه ألحان القلوب كما قلت لك.

قلت: لقد اكتفى الشاعر بذكر أوصاف الله ليغرس الأمل في القلوب.

قال: حسن الظن بالله يستدعي التعرف على اللـه، فلا يمكن أن تحسن الظن بمن لا تعرفه.

قلت: هذا صحيح، فالمريض المتألم لا يرتـاح إلا إذا وصـف لـه الطبيب الخبير النطاسـي، والسـائل المحتـاج لا يطمـع إلا إذا أخـبر عن الغني الكريم.

قال: وهكذا، فإن المتـألم لا يشـعر بالأمـل فيمـا عنـد اللـه إلا بمعرفته.

قلت: ولكن معرفة الله بحر لا ساحل له.

قال: ولهذا سنكتفي ـ هنا ـ بـالاغتراف من بعض أسـماء اللـه الحسنى التي ورد التنصيص عليها، والتي تدل على قدرة الله الـتي لا يعجزها شيء، وعلى فضله العظيم الذي لا يحده شيء.

قلت: تعــني أن حســن الظن يعتمــد على معرفــة القــدرة والفضل.

قال: أجل.. فقد يكون العاجز كريما.. فيقف عجزه حـائلا بينـه وبين كرمه.. وقد يكون البخيـل مالكـا القـدرة على التكـرم عليـك، ولكن بخله يحول بينه وبين ذلك.

قلت: ولهـذ كـان حسـن الظن لا يكتمـل إلا فيمن لـه القـدرة المطلقة، والفضل العظيم.

قال: وليس ذلك إلا الله.

قلت: فكيف أتحقق بهذا؟

قال: بترتيل أسماء قدرته وفضله.

قلت: فهل لهذه الأسماء أقسام في هذا المستشفى؟

قال: أجل.. هلم بنا إليها.

القدرة المطلقة

دخلنا القسم الأول من أقسام حسن الظن بالله، وقد كتب على بابه ـ بحروف تحمل قوة عظيمة، ممزوجة بلطف عظيم ـ: ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران:40)

قلت للمعلم: لا شك أن هذا هو قسم القدرة المطلقة.

قال: أجل، وهو من الأقسام الهامة التي يحتاج المرضى اليائسون من المرور عليها.

قلت: لم؟.. وأي داء يعالجون؟

قال: أول ما ينفخه الشيطان من بذور اليأس في نفسك هو إخبارك باستحالة إصلاح ما حل بك، فلذلك كان علاج هذا الداء بقتل هذه البذور في مهدها قبل أن تنبت.

قلت: وما تنبت؟

قال: شجرة اليأس القاتل.

قلت: وكيف تقطع هذه الشجرة إن نبتت؟

قال: بدلالاتها على القادر الذي لا يستحيل معه شيء.

قلت: أالله؟

قال: وهل هناك قادر غيره.. فاعتقاد المؤمن بقدرة الله المطلقة، والتي لا يقف المستحيل أمامها تجعله يشعر باستناده إلى ركن عظيم، وهذا الشعور هو الذي يولد فيه الأمل من جهة، ويحضه على التوجه إلى الله من جهة أخرى، وفي كلا الأمرين

يبتسم أنينه، وتنفرج أسارير قلبه.

***

بينمـا كنت أسـتمع للمعلم رأيت رجلا يمـر على المرضـى، ويقول لهم: (اذكروا زكريا.. اذكروا زكريا)

قلت: أرغب هذا عن دين محمـد ﷺ إلى دين زكريـا ؑ.. مـا باله لا يدعوهم إلى ذكر الله.. ويدعوهم إلى ذكر زكريا؟

قال: ذكر زكريا هو ذكر لمحمد.. وذكرهم جميعا هو ذكر للـه.. فلا يحجب أهل الله عن الله.. الصراع هو الذي تكون فيه الحجب.

قلت: أستغفر الله.. لكن لماذا خص زكريا ؑ؟

قال: هـو ينبههم إلى التـدبر في قصـة زكريـا ؑ عنـدما رأى مريم ـ عليها السلام ـ وعنـدها من رزق اللـه مـا احتـار في سـببه، فقال لها:﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَت هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَـرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران:37)

ففي ذلك الحين امنزج الشـعوران لـدى زكريـا ؑ: الشـعور بقدرة الله المطلقة التي لا يقف في وجهها الـزمن ولا المسـتحيل، والشعور بفضل الله العظيم، فهو يرزق من يشاء بغير حساب.

وعندما امتزج الشـعوران توجـه للـه طالبـا مـا كـان يتصـوره مستحيلا يستحي أن يسأل الله تحقيقـه، قـال تعـالى مؤرخـا لتلـك اللحظة التي كانت فتحا عظيما على زكريا ؑ:﴿ هُنَالِـكَ دَعَـا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَـالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَـدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَـةً إِنَّكَ سَـمِيعُ الـدُّعَاءِ﴾ (آل عمران:38)

قلت: حينهـا جاءتـه الملائكـة ــ عليهم والسـلام ــ بالبشـارة، وبتحقيـق الأمـل الـذي كـان حـبيس القلب، واسـتحيا اللسـان من إبرازه، قال تعالى:﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَـائِمٌ يُصَـلِّي فِي الْمِحْـرَابِ

أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ (آل عمران:39)

قال: وحينها ـ كذلك ـ انحلت عقدة لسان زكريا ﵇ متعجبا من هذا، لا منكرا له، فسأل الله عن كيفية ذلك كما سأله الخليل ﵇ من قبل عن كيفية إحياء الموتى، فرده الله إلى مشيئته المطلقة، قال تعالى: قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ (آل عمران:40)

قلت: وحينها أجابه الملك: كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (آل عمران:40)

قال: أعرفت الآن لم كتبت هذه الآية في مدخل هذا القسم؟

قلت: أجل..

قال: ولهذا يملأ القرآن الكريم نفوسنا وضمائرنا بقدرة الله المطلقة، لنتوجه بكل كياننا إليه، فلا نعتقد أن هناك مستحيلا أمام الله، وأمام قدرة الله، قال تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً (فاطر: 44)

***

مر رجل آخر على المرضى، وهو يقول لهم: (اذكروا السموات والأرض.. اذكروا العرش والكرسي)

قلت: لم يذكرهم بهذا؟

قال: لينبههم إلى قدرة الله المطلقة.

قلت: يا معلم، لم نرى القرآن الكريم يمتلئ بذكر السموات والأرض في مواضع الحديث عن القدرة؟

قال: لأن أكبر ما ترونه هو السموات والأرض، وهما ماهما.

قلت: يــا معلم.. نحن نــرى الأرض، ولكنــا لا نــرى إلا جــزءا بسيطا من السماء.

قال: نعم.. أنتم لا ترون إلا جـزءا بسـيطا من السـماء الـدنيا، وهي لا تساوي شيئا أمام ملك الله الواسع.

قلت: لقد ورد في النصـوص ذكـر الكرسـي، وهـو خلـق غـير السموات والأرض، بل أخبر تعـالى أنـه أوسـع منهمـا، قـال تعـالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة:255)

قال: ومع ذلك، فإنه لا يساوي شيئا أمام العرش(1)، فعن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي، فقال رسول اللّــه ﷺ: (والذي نفسـي بيـده مـا السـموات السـبع والأرضـون السـبع عنـد الكرسـي إلا كحلقــة ملقــاة بــأرض فلاة، وإن فضــل العــرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة)(2)

قلت: ولكن الله مع ذلك يخاطب عباده بما تعيه عقولهم.

قال: ليقرب لهم الحقيقة الـتي لا يمكن تقريبهـا.. لأن تقريبهـا يؤدي إلى التشبيه، والله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ﴾ (الشورى:11)

قلت: ولهذا يضـرب اللـه تعـالى المثـل على قدرتـه بإمسـاك السموات والأرض وحفظهما، تقريبـا لعظمـة القـدرة من القلـوب، وإلا فإن قدرة الله لا نهاية لهـا، ولا حـدود تحـدها، ألم تسـمع قولـه تعـالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَـزُولا وَلَئِنْ زَالَتَـا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (فاطر: 41)

قلت: لقد أخبر تعـالى أنــه لا يــؤوده ولا يثقلـه حفظهمـا، قـال

---

1) النصوص الكثيرة تدل على أن العرش مخلوق يدار الكون منه بأمر الله تعـالى ، فهو أشبه بـ (سنترال) الكون، وليس كمـا يتصورالمشـبهون أنّـه مكـان يجلس عليـه اللـه تعالى !

2) ابن حبان، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساكر.

تعالى: وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَـا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (البقرة:255)

وعندما افترى الغـافلون من اليهـود مـا افـتروا على اللـه من ركونه إلى الراحة بعد خلـق السـموات والأرض(1) رد عليهم قـائلا: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَمَـا مَسَّـنَا مِنْ لُغُوبٍ (قّ:38)

وعنـدما تعجب الغـافلون من إمكانيـة إحيـاء المـوتى بعـد أن يصبحوا رمما بالية، رد عليهم الله تعـالى بقولـه تعـالى: وَهُـوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الروم:27)

قال: سبب ذلـك أن هـؤاء المتعجـبين قـارنوا قـدرتهم بقـدرة الله، وعلمهم بعلم الله، ونسوا أن ينظروا إلى أنفسهم ليروا الآيات العظيمة التي ينطوي عليها وجودهم، فلـذلك نـرى القـرآن الكـريم ينبه كثيرا إليها، قال تعالى: وَضَرَبَ لَنَـا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ قَـالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (يّـس:78)

ثم أمـر رسـوله ﷺ بـالرد عليهم بإعـادة النظـر إلى منشـئها الأول، فقال تعالى: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْـقٍ عَلِيمٌ (يّـس:79)

أو بتقليب أطـرافهم في السـماء والأرض، قـال تعـالى: أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الاحقاف:33)

والقـرآن الكـريم لا يسـوق هـذه التنبيهـات لهـؤلاء الغـافلين وحدهم من اليهود والمنكرين للبعث، بـل يسـوقها لكـل ضـمير قـد توسوس له خواطر السوء أن هناك شيئا ما من شـئون الحيـاة قـد

1) ذكر المفسرون في سبب نزول الآيـة أنّ اليهـود كـانوا يتصـوّرون أنّ اللـه خلـق السماوات والأرض في سـتّة أيّـام (سـتّة أيّـام من أيّـام الأسـبوع)! ثمّ اسـتراح في اليـوم السابع (السبت) فوضع رجلا على رجل أخرى.

يعجز الله، أو قد يستحيل على الله.

ولذلك يخبر تعالى أن الخلق ما قدروه حق قـدره حين نسـبوا العجز له في أي محال من المحال، قال تعالى: مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحج:74)، وقال تعالى:وَمَا قَـدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام:91)

فلذلك يذكرهم بقدرته التي لا تحد، قـال تعـالى: وَمَـا قَـدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعـاً قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر:67)

بل يقسـم اللـه تعـالى على قدرتـه الـتي لا تحـد، ليؤكـد هـذا المعنى في الضمير المؤمن، قال تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَـارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ((المعارج:40)

***

سرت مع معلم السلام في أرجاء هذا القسم، فرأيت بابـا قـد كتب عليه (باب معاينة مظاهر القدرة)

قلت للمعلم: هيـا بنـا نـدخل إلى هـذه القاعـة ففيهـا معاينـة مظاهر القدرة.

قال: أخاف أن لا تخرج منها.

قلت: لم؟

قال: كثير ممن دخل هذه القاعة وعـاين بعض مظـاهر قـدرة الله لم يطق فراقها، فلم يخرج منها منذ دخلها.

قلت: لا تخف ـ يا معلم ـ فقد أخبرتـك أني لا أسـكن إلا لغايـة الغايات وقدس الأقداس.

قال: فادخل، ولا تطل المكث، فالأقسام الأخرى في انتظارنا.

دخلت القاعة، وهي كقاعات السنما إلا بفارق بسيط هو أن السينما تنقل الصور إلى العيون، أما هذه القاعة، فتنقل العيون إلى الصور، كانت صورا كثيرة مزدحمة تملتئ بها القلوب والعقول.

أما الحضور.. فقد كانت أفواههم مشدوهة لعظم ما يرون.. وقد غابوا عن كل الآلام التي لا تخفيها الإعاقات التي تنم بها جوارحهم.

سألت المعلم: من هؤلاء؟

قال: هؤلاء مرضى يئس أطباؤكم من علاجهم.. فهداهم الله لهذا المستشفى.

قلت: ولكن عللهم لا تزال تنخر في أجسادهم.

قال: وما يهمهم من عللهم.. هم يعيشون في سعادة لا يعيشها أعظم ملوككم.

أشار إلى أحدهم، فقال: أتعلم من هذا؟

قلت: لا.. ولكن يبدو أن المشيب بدأ يشتعل في شعره ليقضي على سواد شبابه.

قال: هذا الرجل الذي تراه، جلس هنا منذ ثمانين سنة، ولم يفارق مجلسه.

قلت: ثمانين.. عجيب هذا.. لا يبدو عليه التقدم في العمر.

قال: إنما يعمر الجسد البالي.. أما المعاينون، فقد ذاقوا إكسير الشباب الدائم، فلا ينشغلون بشيخوخة ولا هرم.

قلت: يا معلم.. دعني أجلس معهم.

قال: ألم نتفق على عدم السكون لشيء؟

قلت: أجل..

قال: فهيا.. فبالله إن تسر ترى العجائب.

***

خرجت من القاعة، وعند خروجي ربت على كتفي شيخ وقور بحنان، وقال: (أليس في قدرة هذا الذي خلق كل هذا أن يخفف عني ما أنا فيه، أو يرمي بدائي إلى الهاوية التي لا حدود لها!؟)

قلت: نعم.. فمن أنت؟.. فما أعظم وقارك؟

تركني وانصرف، قال المعلم: هذا نزيل أقنعه الأطباء بكل أجهزتهم أنه ميئوس منه، وقد جاء إلى هنا.. وهو يعيش في سلام منذ جاء.

***

بعد خروجي لقيني شاب لا يقل عن الشيوخ وقارا، وقال: بعد هذه المظاهر التي تدل على قدرة الله المطلقة، والتي لا يعجزها شيء، هل تظل أيها المتألم حبيس آلامك، متصورا استحالة تفريجها.

أليس الذي خلق السموات والأرض، ودبر أمر الدقيق والجليل، أعظم من أن يقف المستحيل في طريقه، وأكبر شأنا من أن يعجزه ما نفخه شيطان اليأس في نفسك.

أردت أن أسأله عنه، فقاطعني، وقال: قد تقول: (نعم إنه قادر على كل شيء، ولكن من أنا حتى يتوجه إلي فاكا أزمتي، مفرجا كربتي، وما أنا إلا قطرة من بحر محيطه، أو هباءة في فضاء أثيره.. إذا راودك هذا الخاطر، وأوحت لك شياطين الإنس والجن بهذه الوساوس، فاذهب إلى ذلك القسم، فستجد فيه

ضالتك)

الفضل الواسع

دخلنا القسم الثاني من أقسام حسن الظن بالله، وقد كتب على بابه ـ بحروف تحمل رحمة ممزوجة بحكمة ـ قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: 105)

قلت للمعلم: لا شك أن هذا هو قسم الفضل الواسع.

قال: أجل، وهو من الأقسام الهامة التي يحتاج المرضى اليائسون إلى المرور عليها.

قلت: لم؟.. وأي داء يعالجون؟

قال: الفضل مكمل للقدرة.. ولا تبرز القدرة إلا بالفضل.. ولا يكتمل الفضل إلا بقدرة.

قلت: اشرح لي هذا، فإني أرى القدرة منفصلة عن الفضل انفصالا تاما.

قال: من كان قادرا، ولكنه بخيل، فإنه لا يصدر منه شيء، فإن صدر كان محفوفا ببخله.. ومن كان متفضلا، ولكنه عاجز كتم عجزه فضله، أو رماه عجزه بالبخل.

قلت: ففضل الله عظيم كقدرته؟

قال: لا يوازي قدرته إلا فضله، ألم تقرأ قوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: 105)

قلت: هذه الآية هي آية هذا الباب، وهي تذكر فضل الله الواسع العظيم.. ولكن القرآن الكريم يذكر أن فضل الله موزع حسب مشيئة الله، فهو:﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (آل عمران: 74)

قال: لا تفهم من هذه الآية غير ما تريـد.. فضـل اللـه واسـع، ولكن من الخلق من تعرض له، فصـار مخصوصـا بالرحمـة، ومنهم من أعرض فصـار مخصوصـا بالشـقاوة.. فضـل اللـه كـالمطر من تعرض له ترابـا أنبت طيبـا، وأثمـر طيبـا، ومن تعـرض لـه صـخورا قاسية، فإن المطر ينزل عليه، ولكنه لا يؤثر فيه.

قلت: أرى القرآن الكريم يقصر الفضـل على اللـه، كمـا قـال تعالى: لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْـدِرُونَ عَلَى شَـيْءٍ مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْــلَ بِيَــدِ اللَّهِ يُؤْتِيــهِ مَنْ يَشَــاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْــلِ الْعَظِيمِ (الحديد:29)

قال: أجل ففضل الله بيد الله.. وهذا معنى جميل، تطرب لــه النفوس، لأنه ينفي الوسـائط بين عبـاد اللـه، وفضـل اللـه، فيكفي العبد أن يتوجه لله صـادقا مخلصـا لـيرى يـد اللـه، وهي تمتـد إليـه بالفضل والكرم والجود، كما قـال تعـالى: وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقرة:186)

وهذا الشعور هو الذي يتولد منه الرجوع إلى الله والاســتمداد منه..

بينما نحن كذلك مر علينا رجـل، والابتسـامة تشـع من عينيـه، وهو يقول: الله ! ما أعظم فضل اللــه !..إنـه الجـدار الـذي تتحطم أمامه كل الآلام.

ثم قصدني، وكأنه يعرفني، وربت على كتفي، وقال: ابتســم ـ أيها المتألم لأناتك ــ وطـالع أسـماء ربـك الـتي تنطـق بهـا حـروف المكونات، وتضرع إليه بهـا كمـا يتضـرع الكـون جميعـا، ففي نفس تضرعك تكمن الاستجابة، وفي نفس طلبك تتحقق الأماني.

قلت: من هذا؟، ومن أين خرج؟

قال: هذا الرجل كان في أقسام أسماء الفضل.. وهي أقسام

تعرف بفضل الله انطلاقا من أسماء الله.

قلت: أهناك أقسام غير هذه؟

قال: أجل.. فهناك أقسام تعرف فضـل اللـه من خلال أكـوان الله.

قلت: فأي القسمين نزور؟

قال: سنقتصر من زيارتنا في هذا المحـل على أسـماء وردت في أكثرها النصـوص المتعلقـة بتفـريج الكـروب، وإجابـة الـدعوات وتنزل الفضل، لـنزرع في قلوبنـا قـرب اللـه منـا، وفضـله العظيم علينا.

قلت: والفضل الذي تختزنه أكـوان اللـه مـتى نـراه.. أو مـتى نزوره؟

قال: سنزوره في درس آخر من دروس السلام، عندما نسبح في (بحار النعم)

الحي القيوم:

دخلنا قسما من أقسام الأسماء المرتبطـة بفضـل اللـه، وقـد كتب على بابه: (الحي القيوم)

قلت للمعلم: هذان اسمان من أسماء الله الحسنى.

قال: نعم.. هما اسمان.. وهما اسم واحد؟

قلت: ما هذا التناقض؟

قال: كل واحـد منهمـا إذا انفـرد كـان اسـما من أسـماء اللـه الحسنى، وفي اجتماعهما يتشكل اسم جديد له دلالة جديدة.

قلت: فما هي الدلالة الجديدة التي يحملها؟

قال: لا تعرفها إلا إذا عرفت دلالة كل اسم منفردا.

قلت: فما **الحي**.. ولماذا كان من أسماء الفضل؟

قال: هـو من الأسـماء الدالـة على الفضـل وغـيره، فلا يمكن للقادر أن يكون قـادرا إلا إذا كـان حيـا.. فالحيـاة هي الصـفة الـتي تعتمد عليها جميع الصفات.

قلت: عرفت هـذا.. فنحن لا يمكن أن نقـوم بـأي عمـل إلا إذا كنا أحياء.

قال: مـع فـارق عظيم بين حيـاتكم البدائيـة البسـيطة وحيـاة الله.. ألا تعلم أن اللـه لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ (الشورى:11)

قلت: فما علاقة الحياة بفضل الله؟

قال: لا يمكن أن تدعو ميتا.. ولا أن يستجيب لك ميت.

قلت: صدقت.. لقد عبر الشاعر عن ذلك، فقال:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

قال: بل عبر الحق تعالى عن ذلك، فقـال: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ (الفرقـان:58)، فقـد ربـط بين التوكـل والحيـاة.. والتوكـل هـو اسـتعانة باللـه واستسـلام مطلـق للـه نـاتج عن ثقـة عظيمة بفضل الله.

قلت: ألهذا إذن يقترن هذا الاسم بالأمر بدعاء الله، كمـا قـال تعالى: هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَـهُ الـدِّينَ الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (غافر:65)؟

قال: أجل، أي لأنه حي، فادعوه، لأن الدعاء لا يكـون إلا لحي، وقد ورد الدعاء بهذا الاسم في هذا الباب، فقد روي أن رسول الله

ﷺ قال: (ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريـل، فقـال يـا محمـد: قـل توكلت على الحي الذي لا يموت والحمد للـه الـذي لم يتخـذ ولـدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن لـه ولي من الـذل، وكـبره تكبيرا)(1)

وفي حديث آخر، قـال ﷺ: (ألا أعلمـك كلمـات تـذهب عنـك الضر والسقم، قل: توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمـد للـه الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرا)(2)

وقد روي في الاستعاذات المأثورة: (أعوذ بعزتك الـذي لا إلـه إلا أنت الذي لا تموت والجن والإنس يموتون)(3)

قلت: فما **القيوم**.. ولماذا كان من أسماء الفضل؟

قال: هو القائم بنفسه المقيم لغيره.

قلت: فما القائم بنفسه؟

قال: هو الذي عظمت صفاته، فاستغنى عن جميع مخلوقاته.

قلت: فكيف قام غيره به؟

قال: هو الذي أوجد الأشياء، وأمدها وأعدها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها.

قلت: فالقيوم إذن هو الغني عن الأكوان من كـل وجـه، وهي التي افتقرت إليه من كل وجه.

قال: ومن كـان كـذلك، فحـري أن يسـتغاث بـه، ويلجـأ إليـه،

---

1) ابن أبي الدنيا في الفرج والبيهقي في الأسماء.

2) ابن السني في عمل يوم وليلة.

3) البخاري.

ويطرق بابه.

قلت: فلهذا الاسم إذن تـأثيره الخـاص في زرع الثقـة بقـدرة الله المطلقة، وفضله العظيم.

قال: أجل.. فقد جمع هذا الاسم بين المعنيين جميعـا، ولـذلك كان من الأسماء التي ورد الدعاء بها في الكربات.

قلت: عرفت المفردات، فما **معنى التركيب**؟

قـال: يتشـكل من ذينـك الاسـمين اسـم جديد[1] لـه دلالتـه الخاصة والمؤثرة.

قلت: فما هي؟

قال: هي مثل دلالة اجتمـاع القـدرة مـع الفضـل، فقـد يكـون قادرا غير متفضل، أو متفضلا غير قادر.

قلت: وهنا: قد يكون حيا غير قيوم، أو قيوما غير حي.

قال: أجل، فإذا كان حيا لم ترجه لحياته فقط، فقد يكون حيـا ضعيفا.. ولو كان قيوما غير حي، لا ترجوه كذلك، لأنه لا يسمعك إلا إذا كان حيا.

قلت: وبكونه حيا قيوما تجتمع فيه جميع مواصفات من يدعى فيجيب.

قال: أجل، ولهذا ورد في النصوص مـا يشـير إلى كـون هـذا الاسم المقترن يحمل معـنى اسـم اللـه الأعظم الـذي إذا دعي بـه أجـاب، وإذا سـئل بـه أعطى[2]، ففي الحـديث أن النـبي ﷺ سـمع

---

1) انظر في اقتران الأسماء ودلالاتها رسالة (أسرار الأقدار)

2) اختلف العلماء في (الاسم الأعظم) الذي إذا دُعي به لا يرد، اختلافا عظيما:

فمنهم من أنكره مثل أبي جعفر الطبري، وأبي الحسن الأشـعري، وجماعـة بعـدهما كأبي حاتم ابن حبان، والقاضي أبي بكر الباقلاني، فقالوا: لا يجـوز تفضـيل بعض الأسـماء

رجلاً يقول: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك المنان يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكـرام، يا حي يا قيوم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النـار)، فقـال النـبي ﷺ: (لقد سأل الله باسـمه الأعظم الـذي إذا سـئل بـه أعطى، وإذا دعي به أجاب) (1)

قلت: فما السر في هذه الأفضلية؟

قال: لأن الحياة مستلزمة لجميع صـفات الكمـال، ولا يتخلـف عنها صفة منها إلا ضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حيـاة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة، لذلك اقـترن هـذا الاسـم بالتوكـل في قولـه تعـالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان:58).. وأما القيوم: فهـو متضـمن كمـال غناه، وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتـاج إلى غـيره بوجـه من الوجوه، القائم على غيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته.

ولهـذا، كـان ﷺ إذا أهمَّهُ الأَمْـرُ، رفـع طرفـه إلى السـماء فقال: (سُبْحَانَ الله العظيمِ)، وإذا اجتهد فى الدعاء قال: (يا حَيُّ يـا قَيُّومُ)

على بعض، وحملـوا مـا ورد من ذلـك على أن المـراد بـالأعظم العظيم، وجعلـوا اسـم التفضيل على غير بابه، وهو أسلوب معروف عنـد علمـاء العربيـة، وأن أسـماء اللـه كلهـا عظيمة.

ومنهم من ذكر أن الأعظمية الواردة في الأخبار إنمـا يـراد بهـا مزيـد ثـواب الـداعي بذلك، كما إذا أطلق ذلك في القرآن، المراد به مزيد ثواب القارئ.

ومنهم من ذكر أن المراد بالاسم الأعظم، كل اسم من أسماء الله تعالى دعـا العبـد به مستغرقاً بحيث لا يكون في فكره حينئذ غير الله تعالى، فإن من تأتى له ذلك استجيب له، ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق، وعن الجنيد وعن غيرهما.

ومنهم من ذهب إلى أن الله تعالى استأثر بعلم الاسم الأعظم، ولم يُطْلِعْ عليه أحداً من خلقه وأثبته آخرون، واضطربوا في ذلك.

ومنهم من ذهب إلى تحديد الاسم، واختلفوا في ذلك اختلافا شديدا، منها هذا الاسـم المركب، وسنعرض للمسألة بتفاصيلها في محلها الخاص من هذه الرسائل.

1) أهل السنن الأربع وابن حبان وأحمد والحاكم.

وكان ﷺ يستغيث بالله مستنجدا متوسلا بهذا الاسم، ففي الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا حَزَبَهُ أمرٌ قال: (يا حَيُّ يا قَيُّومُ برحمتِكَ أستغيثُ)(1)

رأيت كثيرا من الناس يجتمعون في حلقة رجل يبدو عليه الوقار، قلت للمعلم: من هذا؟

قال: هذا طبيب من أطباء هذا المستشفى.

قلت: هلم نستفيد منه..

قال: حسبك بهذا هنا.. فالأقسام الأخرى في انتظارنا.

الصمد:

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسماء المرتبطة بفضل الله، وقد كتب على بابه: (الله الصمد)

قلت للمعلم: لقد ورد ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم مرة واحدة، قال تعالى:﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الاخلاص:2)؟

قال: ولكن في سورة اختصت بالتعريف بالله، وهي تعدل ثلث القرآن(2)، فلذلك كانت له لذلك مزية خاصة.

قلت: لقد ورد في اللغة لهذا الاسم دلالات كثيرة جدا، ولذلك ورد اختلاف كبير في تحديد معناه.

قال: ما نحتاج إليه هنا دلالة واحدة وهو الصمد الذي يعني في اللغة القصد، فيكون الصمد بذلك بمعنى المصمود أي المقصود في الحوائج والنوازل، المستحق أن يُلجَأ إليه لتحقيق الحاجات ونيل الرغبات وتفريج الكربات ودفع الملمات.

---

1) الترمذيّ.

2) لقوله ﷺ:(أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فإنه من قرأ قل هو الله أحد الله الصمد في ليلة فقد قرأ ليلته ثلث القرآن) أحمد والترمذي والنسائي.

قلت: لقد قرأت كلاما جميلا لابن عباس في تعريف هذا الاسم.

قال: وما قال؟

قلت: قال: (هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو اللّه سبحانه، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحان اللّه الواحد القهار)

قال: ولهذا ورد في النصوص ما يدل على أن هذا الاسم هو الاسم الأعظم، فقد سمع النبي ﷺ رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد فقال: (لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب)(1)

وهو من الأسماء التي كان ﷺ يتوسل بها في علاج المرضى، ففي الحديث أن رسول الله عاد رجلا، فقال: (بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد من شر ما تجد) ثلاث مرات (2).

الكافي:

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسماء المرتبطة بفضل الله، وقد كتب على بابه (الكافي)

قلت للمعلم: ما الكافي(3)؟

1) أبو داود والترمذي وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم،.

2) ابن زنجويه في ترغيبه، والعقيلي، والبغوي.

3) كلمة (كافي) مأخوذة من (كفاية)، وهي تعني الإقدام على عمل معين والتمكن منه ، قال الراغب في مفرداته: (الكفاية) هي رفع حاجة والوصول إلى

قال: هو الذي يكفي عباده ما يحتاجون إليـه، بحيث يسـتغنون به عن غيره، كما قال تعالى: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (الزمر:36)

قلت: لم كان كذلك؟

قال: لأنه حي قيوم عالم بجميع المعلومـات، قـادر على كـل الممكنات، غني عن كل الحاجات، يعلم حاجات العباد، ويقـدر على دفعها، وهـو ليس بخيلا ولا محتاجـا حـتى يمنعـه بخلـه وحاجتـه عن إعطاء ذلك المراد.

قلت: ألهذا وعد الله كل من ينصره بكفاية الله فقال تعالى: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقرة:137)

قال: بل أخبر تعالى بأنـه كفى رسـوله ﷺ أمـر المسـتهزئين، قال تعالى: إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (الحجر:95)

قلت: فما يكفينا الله؟

قال: كل شيء.. فكفاية الله لعباده شاملة لكل شـيء، فاللـه هو الذي يكفي عباده كل ما يهمهم من العظيم والحقير، ولهذا كان ﷺ إذا أوى إلى فراشـه؛ قـال: (الحمـد للـه الـذي أطعمنـا وسـقانا وكفانا وآوانا؛ فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي)(1)

وقد ورد في قصة الغلام مع الساحر والراهب: أنه كلما ذهبوا به إلى مكان لقتله؛ قال: (اللهم اكفنيهم بما شئت)(2)

قلت: فهذا يدعو العارفين إلى الاكتفاء بالله.

قال: أجل.. ولذلك أخبر الله تعالى عن اكتفاء المؤمـنين باللـه

المقصود، وكفية على وزن كنية تعني الغذاء الكافي ، وكفي على وزن خفي تعني المطر.

1) مسلم.

2) مسلم.

وبحفظ الله، قال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران:173)

وقال عن رسوله ﷺ: إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة:40)

قلت: ولهذا إذن ورد الدعاء بهذا الاسم في السنة، وقد أخبر ﷺ عن تأثيره العجيب في دفع الضرر، فقال ﷺ لفاطمة الزهراء : (إذا أخذت مضجعك فقولي: (الحمد الله الكافي، سبحان الله الأعلى، حسبي الله وكفى، ما شاء الله قضى، سمع الله لمن دعا، ليس من الله ملجأ ولا وراء الله ملتجأ، توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم، الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا)، ثم قال ﷺ: (ما من مسلم يقولها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فتضره)[1]

***

بينما نحن كذلك إذ سمعت حركات في القاعة، فسألت المعلم: فقال: هذا عبد الوكيل قد جاء، ومعه عبد الحسيب.

قلت: ومن عبد الوكيل.. ومن عبد الحسيب.. فلا أعلم في الأسماء التي تختزنها ذاكرتي هذين الاسمين؟

قال: هما طبيبان من أطباء هذه القاعة.

1) ابن السني.

قلت: وما علاقتهما باسم الله الكافي؟

قال: سيشرحانها لك، فهذه وظيفتهما.

قال عبد الوكيل: (الوكيل) من الأسماء القريبة من اسم الله الكافي.

قلت: فما يعني؟ وما وجه القرابة بينهما؟

قال: الوكيل هو من توكل إليه الأمور، وتفوض إليه، كما قال تعالى:﴿وكفى بالله وكيلاً﴾(الأحزاب: 3) أي القائم بأمور عباده، المتكفل بمصالحهم، الكفيل بأرزاقهم، فالخلق والأمر له، لا يملك أحد من دونه شيئاً.

قلت: فما علاقته بالكافي؟

قال: من توكل لك، فقد كفاك، ولهذا ورد هذا الاسم في ذكر من الأذكار العظيمة التي تتعلق بهذا الجانب، وهو (حسبنا الله ونعم الوكيل)

قلت: هو ذكر قرآني أثنى الله على من قاله، فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:173)

قال: وكان هذا الالتجاء سببا في حصول خير عظيم للمؤمنين، قال تعالى:﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: 174)

قلت: كان هذا الذكر هو الذي نطق به إبراهيم ﵇ في أحرج مواقف حياته، قال ابن عباس في الآية السابقة: (قالها: إبراهيم ﵇ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ (آل عمران:173))(1)

---

1) البخاري.

قال: ولهذا أخبر ﷺ أن لهذا الـذكر تـأثيره العميـق في النفس بإعطائها القوة وتخليصها من العجر، قال ﷺ: (إن الله تعالى يحمد على الكيس ويلوم على العجز فإذا غلبك الشيء فقل: حسبي الله ونعم الوكيل)(1)

وقد ورد في النصوص استعمال هذا الذكر في الموضع الــذي نحن فيه، فقد كان ﷺ إذا أصابه غم أو كرب يقول: (حسـبي الـرب من العبـاد، حسـبي الخـالق من المخلـوقين، حسـبي الـرازق من المرزوقين، حسبي الله الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم)(2)

***

بمجرد انتهاء عبد الوكيل قال عبد الحسـيب: الحسـيب(3) من كفاك جميع ما أهمك من أمر دينك ودنيـاك، وهـو الـذي يجلب لـك المنافع، ويدفع عنك المضار، وهو الذي يحميـك من كـل المخـاطر، ويؤمن لك كل السبل، وهو الذي..

قلت للمعلم: ألهـذا قـال تعـالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُـوَ حَسْبُهُ ((الطلاق:3)

قال: أجل.. من توكل على الله فهو حسبه.

الشافي:

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسـماء المرتبطـة بفضـل اللـه، وقد كتب على بابه (الشافي)

قلت للمعلم: الله ! ما أجمل هذا الاسم.. ومـا أعظم تفريجـه

---

1) الطبراني في الكبير.

2) ابن أبي الدنيا في الفرج من طريق الخليل بن مرة عن فقيه أهل الأردن بلاغا.

3) قد يحمل هذا الاسـم معـنى الكفايـة ومعـنى المحاسـبة، كمـا في قولـه تعـالى:﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (النساء:6)

لكربات المعتلين.. فإن المريض لا يحن لاسم كما يحن للطبيب؟

قـال: ولهـذا ورد اسـم (الطـبيب) مقترنـا باللـه، فاللـه هـو الطبيب: طبيب القلوب والنفوس والأجساد، فقد ورد في الحـديث عن أبي رمثة قال: دخلت مع أبي على رسـول اللّـه ﷺ فـرأى أبي الذي بظهره(1)، فقـال: (دعـني أعالجـه فـإني طـبيب)، فقـال ﷺ: (اللّه الطبيب)(2)

وقد ذكر ﷺ علة كون الله هو الطبيب الحقيقي، فقـال: (اللـه الطَّبِيبُ، بل أنت رجلٌ رفيقٌ، طَبِيبُها الذي خلقها)

قلت: ما سر هذا؟، فالنبي ﷺ جعل اسم الطبيب خاصا بالله.

قال: لأن الطبيب هـو العـالم بحقيقـة الـدواء والـداء، والقـادر على الصـحة والشـفاء، وليس ذلـك إلا اللّـه، فهـو العـالم وحـده بتفاصيل العلل، جميع العلل، والعـالم وحـده بعلاجهـا: أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ((الملك:14)

قلت: ولهذا توسل إبراهيم عليه السلام إلى الله بالشفاء، فقال: وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (الشعراء:80)

قـال: أجـل.. يشـفي من كـل شـيء.. من أمـراض الحس وأمراض المعنى، هو خالق الدواء، وملهم الأطبـاء، ورازق الشـفاء، فما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء.

قلت: لقد ورد في النصوص ما يدل على هـذا، فقـد وورد في القرآن الكريم التنصيص على ما جعل الله في العسل من الشفاء، فقال تعالى: ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (النحل:69)

1) وهو خاتم النبوة.

2) الترمذي والنسائي مختصرا ومطولا، وقال الترمذي: حسن غريب.

وورد طلب الشفاء من الله تعالى في الأمراض الحسية، قال ﷺ: (من عاد مريضاً لم يحضر أجله فقال سبع مـرات: أسـأل اللـه العظيم رب العـرش العظيم أن يشـفيك إلا عافـاه اللـه من ذلـك المرض)(1)

وأما المعنويـة والنفسـية، فقـد قـال تعـالى في بيـان خصـائص كلامه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِـفَاءٌ لِمَـا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (يونس:57)

قـال: ولهـذا ورد هـذا الاسـم في أدعيـة الاستشـفاء، ففي الحـديث أن النـبي ﷺ كـان يعـوِّذ بعض أهلـه يمسـح بيـده اليمـنى ويقول: (اللهم رب النـاس أذهب البـأس واشـفه وأنت الشـافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً)(2)

المغيث:

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسـماء المرتبطـة بفضـل اللـه، وقد كتب على بابه (المغيث)

قلت للمعلم: الله ! ما أجمل هذا الاسم.. لكأني بـه يمـد يـده إلى ضعف الإنسان وقصوره وحاجاته الكثيرة لينقذه منها؟

قال: أجل.. فله هذه الدلالة النفسية العميقة الـتي تشـهد لهـا كل الحقائق، وكل الفطر، وكل الموجودات:

فالله تعالى هو الذي يغيث عبـاده عنـدما تـنزل بهم الكربـات، وعندما تمتد أيديهم إليه طالبـة نجدتـه، قـال تعـالى: إِذْ تَسْـتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْـتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِـدُّكُمْ بِـأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَـةِ مُـرْدِفِينَ (لأنفال:9)

ولله تعالى هو الذي يغيث البشـر بـإنزال الغيث، قـال تعـالى:

---

1) أبو داود، والترمذي، وقال: حسن غريب، والحاكم عن ابن عباس.

2) البخاري وغيره.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ (لقمان:34)، وقال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى:28)

قلت: ولهذا كان ﷺ في الاستسقاء يصرخ مستغيثا بالله، فقد روي أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة، ورسول الله ﷺ يخطب، ثم قال يا رسول الله: هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: (اللهم أغثنا.. اللهم أغثنا.. اللهم أغثنا)

بينما نحن كذلك إذ ظهرت أنوار عظيمة تحمل صورا مختلفة تملأ القلوب أنسا وثقة، قلت للمعلم: ما هذه الصور؟

قال: هذه بعض مظاهر اسم الله المغيث، وهي تدعوا للتأمل فيها لامتلاء القلب معانيها.

قلت: فهيا نلبي نداءها.. فما أعظم أن تمتلئ قلوبنا بالثقة بالله.. وفي إغاثة الله.

قال: سنقتصرعلى أربعة مظاهر لاسم الله المغيث وردت بها النصوص، ولها علاقة بهذا الباب، أما ما عداها فسنمر بالكثير منها في دروس السلام، فلا تعجل، ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه:114)

فارج الكرب:

رأيت صورة سواد عظيم يغمر الكون فيملأه بالكآبة، وإذا بإغاثة إلهية تنزل على ذلك السواد، فترفع ما علاه من الظلام، وتحوله إلى نور تمتلئ بجماله أرجاء القاعة.

سألت المعلم عن سر هذه الصورة، فقال: هذا مظهر من مظاهر الإغاثة أرسله فارج الكروب، ليمحو الغين الذي ران على الكون والقلوب.

قلت: وما الكروب؟

قال: الكرب هو الغم الشديد، والمصيبة العظيمـة، ولـذلك لم يــرد في النصــوص المقدســة إلا في مواضــع الشــدة الشــديدة، والدواهي العظيمة.

قلت: نعم، فقد ورد في حـديث الشـفاعة الطويـل قولـه ﷺ: (يجمع الله الأولين والآخـرين في صـعيد واحـد فيسـمعهم الـداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون)(1)

قال: وورد قبل ذلك في قوله تعـالى مخـبرا عن إنجائـه لنـوح ﵇ من الكرب: ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَـاهُ وَأَهْلَـهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (الانبياء: 76)، وقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَـهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾(الصافات:76)

وأخبر عن إنجائه لموسى وهارون ـ عليهمـا السـلام ــ، فقـال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (الصافات: 115)

قلت: الله !.. ما أعظم رحمة الله بأنبيائه !

قال: وبجميع خلقه، ألم يخبر تعالى عن سـنته في إنجـاء كـل الخلق من كل الكربات، فقـال تعـالى: ﴿ قُـلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَـا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام:64)

قلت: بلى.. واستشـعار هـذا المعـنى ينفي اليـأس من قلب المؤمن عندما تحل به المصيبة العظيمة الـتي يـرى اسـتحالة حلهـا بالأسباب التي لديه.

قال: ولهذا علمنا رسـول اللـه ﷺ أذكـارا نقولهـا عنـد الكـرب تذكرنا بالله وبقدرة الله التي لا يعجزها شيء، قال ﷺ لأسـماء بنت عميس : (ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب؟ الله اللــه ربي لا

1) البخاري ومسلم.

أشرك به شيئا)(1)

وقال ﷺ: (يا بني عبد المطلب، إذا نزل بكم كرب أو جمة أو جهد أو لأواء فقولوا: الله الله ربنا لا شريك له)(2)

وقال ﷺ: (من قرأ آية الكرسي، وخواتيم سـورة البقـرة عنـد الكرب أغاثه الله تعالى)(3)

وقال ﷺ: (دَعَـواتُ المكـروبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَـكَ أرجُـو، فَلا تَكِلْنِى إلى نَفْسى طَرْفَةَ عَيْنٍ، وأصْلِحْ لى شَأنى كُلَّهُ، لا إله إلا أنْتَ)(4)

وقال ﷺ: (إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج اللـه عـز وجل عنه، كلمة أخي يونس: ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الانبياء:87))(5)

قلت: الله ! الله ! ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه.

قال: أجل.

قلت: هذا ترياق عجيب، فكيف نغفل عنه؟

قال: وهل تغفلون عن هذا فقط؟.. من نسـي اللـه غفـل عن كل شيء.

قلت: فما سر ارتباطها بتفريج الكربات؟

قال: سنرحل إلى هذا في درس من دروس السلام(6).

---

1) أحمد وأبو داود.

2) الطبراني في الكبير.

3) ابن السني.

4) أبو داود.

5) ابن السني في عمل يوم وليلة.

6) انظر:رسالة (كنوز في بطن الحوت)

باعث اليسر:

رأيت صورة عقد كثيرة يستحيل على أي يد أن تفكها.. وفجأة وجدت هذه العقد تنحل عقدة عقدة.. بل يذهب كل ما بها من آثـار العقد.

سـألت المعلم عن سـر هـذه الصـورة، فقـال: هـذه مظـاهر العسر الذي يعقد القلوب بعقده.. فإذا علمت القلوب شدة عقدها، ويئست منها بعث الله بيسره، فالله هو الذي يعقب العسر باليسر، ألم تسـمع إلى قولـه تعـالى: سَـيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْـدَ عُسْـرٍ يُسْـراً (الطلاق:7)

تدخل رجل من الحاضرين، وقد سمع هـذا الكلام من المعلم، فقال: بل يعقب العسر بيسرين(1)، قـال تعـالى: فَـإِنَّ مَـعَ الْعُسْـرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (الشرح: 5ـ 6)، قال ابن عبـاس يفسـر هذه الآية: (يقول اللّه تعالى خلقت عسرا واحـدا، وخلقت يسـرين، ولن يغلب عسر يسرين)

وقال ابن مسعود: (والذي نفسـي بيـده، لـو كـان العسـر في حجر، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه؛ ولن يغلب عسر يسرين)

بل ورد في الحديث أن رسـول اللـه ﷺ خـرج يومـا مسـرورا وهو يضحك ويقول: (لن يغلب عسر يسرين فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (الشرح: 5، 6)(2)

تدخل آخر، فقال: والله تعالى واضع المخارج، فهو الذي يضـع المخارج عندما تنسد الأبواب، وتضيق المسالك، قال تعـالى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (الطلاق: 2)

---

1) نص المفسرون على أن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرفا ثم كرروه، فهـو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره. وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر.

2) عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي.

ولذلك أمرنا أن نقـول: رَبِّ أَدْخِلْنِي مُـدْخَلَ صِـدْقٍ وَأَخْـرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (الاسراء: 80)

قلت للمعلم: من هذين؟

قال: هذان مقيمان بهذا القسم لا يبرحانه.. يعبدان الله بهذين الاسمين.

كاشف الضر:

رأيت صورة قـروح وأدواء كثـيرة تمـزق لهـا قلـبي.. ثم رأيت مرهما ينزل من السماء.. فيقع على تلك القـروح، فيشـفيها شـفاء تاما، ولا يدع أثرا لعلة.

سألت المعلم عن سر هذه الصـورة، فقـال: هـذا مظهـر من مظهر الإغاثة أرسله كاشف الضر، ليمحو القـروح الـتي تجثم على القلوب والأجساد.. فالله تعـالى هـو كاشـف الضـر، بـل لا يكشـف الضر غـيره، ألم تسـمع قولـه تعـالى: وَإِنْ يَمْسَسْـكَ اللَّهُ بِضُـرٍّ فَلا كَاشِفَ لَـهُ إِلَّا هُـوَ وَإِنْ يَمْسَسْـكَ بِخَيْـرٍ فَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (الأنعام: 17)، وقوله تعالى: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِـفَ لَـهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِـيبُ بِـهِ مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (يونس:107)

قلت: بلى، ولهــذا كــان من دواعي تســليم المؤمــنين للــه وإذعانهم له وحده مـا نص عليـه العبـد الصـالح بقولـه: أَأَتَّخِـذُ مِنْ دُونِـهِ آلِهَـةً إِنْ يُـرِدْنِ الـرَّحْمَنُ بِضُـرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَـفَاعَتُهُمْ شَـيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (يّـس:23)

قال: بل هذا ما أمر كل مؤمن أن يقولـه، قـال تعـالى: وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ قُـلْ أَفَـرَأَيْتُمْ مَـا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَـلْ هُنَّ كَاشِـفَاتُ ضُـرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْـبِيَ اللَّهُ عَلَيْـهِ يَتَوَكَّلُ

الْمُتَوَكِّلُونَ (الزمر:38)

تدخل رجل من نـزلاء المستشـفى، فقـال: إن هـذه الحقيقـة يذعن لها الكل حتى أولئك الذين يجهلون الله عند الرخـاء، فإنـه إذا ما حلت بهم الشدائد لا يجـدون غـير بـاب اللـه، قـال تعـالى: وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَـا لِجَنْبِـهِ أَوْ قَاعِـداً أَوْ قَائِمـاً فَلَمَّا كَشَـفْنَا عَنْـهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُونَ (يـونس:12)،ـ وقـال تعـالى: وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُـرٌّ دَعَـوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْـهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْـهُ رَحْمَــةً إِذَا فَرِيــقٌ مِنْهُمْ بِــرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (الروم:33)،ـ وقال تعالى: وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَـانَ ضُـرٌّ دَعَـا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَـدْعُو إِلَيْـهِ مِنْ قَبْـلُ وَجَعَـلَ لِلَّهِ أَنْـدَاداً لِيُضِـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ قُـلْ تَمَتَّعْ بِكُفْـرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (الزمر:8)،ـ وقـال تعـالى: فَـإِذَا مَسَّ الْأِنْسَـانَ ضُـرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَـالَ إِنَّمَـا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ بَـلْ هِيَ فِتْنَـةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (الزمر:49)

تدخل آخر، فقال: والله تعـالى لا يعـاتب هـؤلاء على تـذكرهم إياه وقت الكرب والشدة، بل يعاتبهم على نسـيانهم وغفلتهم حـال الأمن والعافية.

جاء ثالث، وهـو يقـول: يخبرنـا القـرآن الكـريم عن رجـل من الزمن السالف رأى قرية قـد دب إليهـا الخـراب، وكسـاها المـوت بسرابيله، بل كفنها بأكفانه، فتأسف حزنا عليهـا، فأماتـه اللـه مائـة عام، ليراها وقد دبت إليها الحياة، فلا يحزن ولا ييأس، قال تعالى: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَـهُ قَـالَ كَمْ لَبِثْتَ قَـالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُـرْ إِلَى الْعِظَـامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُـوهَا لَحْمـاً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَـهُ قَـالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقرة:259)

شارح الصدور:

رأيت صـورة غيـوم كثـيرة لكنهـا غـير ممطـرة، ولا تبقى في السماء، بل كانت تنزل إلى الأرض، ثم تدخل إلى الصدور، فيصــيح أصحابها من الألم والضيق.. فيأتي نسـيم عليـل يـذهب مـا بهـا من ضيق، ويملأها انشراحا وعافية.

قلت للمعلم: لا شـك أن هـذه صـورة بعض الغـازات السـامة التي يتفنن قومي في اختراعها.. ولكن ما سر ذلك النسيم؟

قـال: لا.. هـذه صـورة الضـيق الـذي يملأ القلـوب والصـدور، وذلك النسيم، هو مظهر من مظاهر الإغاثة الإلهية، فالله تعالى هــو شارح صدر المتألمين، قـال تعـالى:﴿ قَـالَ رَبِّ اشْـرَحْ لِي صَـدْرِي﴾ (طـه:25)، وقال تعالى:﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُـوَ عَلَى نُـورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْـلٌ لِلْقَاسِـيَةِ قُلُـوبُهُمْ مِنْ ذِكْـرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر:22)، وقال تعالى:﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح:1)

والله تعالى هو المنجي من الهم والغم، قال تعالى:﴿ ثُمَّ أَنْـزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً ﴾ (آل عمران:154)، وقال تعالى:﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ (طــه:40)، وقـال تعـالى:﴿ فَاسْـتَجَبْنَا لَـهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الانبياء:88)

تدخل أحد الحاضرين، فقال: ولهذا أرشدنا رسول اللــه ﷺ أن نستعين بالله في دفع الهم والغم، قال ﷺ: (ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: (اللهم إني عبـدك وابن عبـدك وابن أمتـك ناصـيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هـو لـك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقـك أو أنزلتـه في كتابـك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدلــه مكانه فرجا) فقيل: يا رسـول اللـه ألا نتعلمهـا؟ فقـال: (بلى ينبغي

لمن سمعها أن يتعلمها)[1]

1) أحمد.

ثالثا ـ حصن الاستعانة

ذهبنا إلى الحصن الثالث من حصون الروح، وهو حصن (الاستعانة بالله)، وقد كتب على بابه بحروف من نور: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:5)

قلت للمعلم: لم كانت الاستعانة بالله تالية لحسن الظن بالله؟

قال: أول نتيجة للمعرفة بالله هي حسن الظن به والثقة فيه، وهما مفتاح الأمل الذي يجعل القلب متوجها لله طالبا غوثه مستمدا عونه.. فمن ثمرات حسن الظن بالله الاستعانة به، كما أن من ثمرات سوء الظن بالله عدم الالتفات إليه.

ولهذا عقب الله تعالى العبادة بالاستعانة في سورة الفاتحة، فقال:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:5)،ـ فمن عبد الله كما أمر لا بد أن يصل إلى نصيبه من المعرفة الذي يضعه في عبودية الاستعانة بالله.

قلت: فما ثمرة الاستعانة بالله؟

قال: القوة التي تتحدى كل الصعاب، وتنفرج لها كل الكروب، أرأيت لو استعنت بأقوياء قومك على بناء بيتك.. ألا تبنيه؟

قلت: بل أبنيه.. وأبني قصورا معه.. فلا قوة كقوة الاستعانة.

قال: هذا أثر الاستعانة بالبشر، وبجهد البشر، فكيف بالاستعانة بالله الذي يملك الكل؟

قلت: فما يحقق هذه الاستعانة بالله؟

قال: الإيمان بالله، ألم تسمع قوله ﷺ في الحديث الذي يبين فيه أسس القوة التي يتمتع بها المؤمن، فقد قال ﷺ: (المؤمن

القوي خير وأحب إلى الله من المـؤمن الضـعيف، وفي كـل خـير، احرص على ما ينفعك واستعن باللـه ولا تعجـز، وإن أصـابك شـيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شـاء فعل، فان لو تفتح عمل الشيطان)(1)

قلت: فما حدود القوة التي أحققها بالاستعانة؟

قال: لا حدود لهذه القوة، فكل ما يخطر ببالك قليـل بالنسـبة للحقيقة.. ألم يواجه الأنبياء ــ عليهم الصـلاة والسـلام ــ الانحـراف بجميع أشكاله، مستعينين بقوة الله !؟.. ألم تسمع قوله تعالى عن رسول الله ﷺ في لحظة من اللحظات الحرجة الـتي مـر بهـا: إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَـانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَـا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَـأَنْزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَيْـهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَـةَ الَّذِينَ كَفَـرُوا السُّـفْلَى وَكَلِمَـةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة:40)

وقوله عن موسـى عليه السلام وهـو بين عـدو يـتربص بـه، وبين بحـر يحول بينه وبين الفرار: كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (الشعراء:62)

وقول موسى عليه السلام لقومه من الجبناء: اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْـبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَـا مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِينَ (لأعراف:128)

قلت: فما مكامن القوة في الاستعانة بالله؟

قال: لا تكمن قوة الاستعانة بالله في المدد الذي يحصل ثمرة لها فقط، وإنما قوتها في نفس الاستعانة بمـا تحدثـه من أمـل في القلب، وانشراح في الصدر، وابتسامة للأنين.

بينما أنا كذلك إذ رأيت طبيبـا يظهـر عليـه من خلال مظهـره، ومن خلال صعوبة نطقه بالعربية أنه أعجمي، فسألت المعلم عنـه،

---

1) أحمد.

فقال: هذا طبيب من قومك(1).

قلت: وما الذي حضر به إلى هنا؟

قال: هو أستاذ زائر بهذا القسم.. ألا تعرف الأستاذ الزائر؟

قلت: بلى.. فجامعاتنا تفعل هذا.. حيث تستقدم بعض الأساتذة ليحاضروا في جامعاتها مدة، ثم يعودون إلى مراكز عملهم الأصلية.

قال: فهذا الطبيب كان يتصور العلاج عملية رياضية محضة، تكفي فيها المواد الكيميائية، ولا علاقة لها بالحالة النفسية أو التوجه الإيماني(2)، ولكنه تحول بعد ذلك ليقر بدور الإيمان والاستعانة بالله في الشفاء، فلهذا استقدمته إدارة المستشفى ليدلي بشهادته هنا.. فهلم نقترب لنسمع ما يقول.

تقدمنا، فسمعته يقول: لقد درست ـ عندما كنت أتعلم الطب ـ أحد المبادىء المادية الأساسية التي تفسر ما يحدث من تغيرات داخل الجسم عندما يصيبها عطب أو تلف، تفسيراً مادياً صرفاً، كما فحصت قطاعات مجهرية لهذه الأنسجة، وتبينت أن الظروف المناسبة تعينها على أن تلتئم بسرعة وتتقدم نحو الشفاء، وعندما اشتغلت جراحاً في أحد المستشفيات بعد ذلك، كنت أستخدم المبدأ السابق استخداما يتسم بالثقة فيه والاطمئنان إليه. ولم يكن عليّ إلا أن أهيئ الظروف المادية والطبية المناسبة، ثم أدع الجرح يلتئم، وكلي ثقة بالنتيجة المرتقبة.

قلت: هذه هي المعرفة التي يؤمن بها أكثر الأطباء، ويكتفون بها.

---

1) هو بول إرنست أدولف، أستاذ مساعد التشريح بجامعة سانت جونس وعضو جمعية الجراحين الأمريكية.

2) عن كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) جمعها: جون كلوفر مونسما، ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة.

قال المعلم: ولكن هذا الطبيب انتقل إلى مرحلة أخرى، سار من خلالها نحو الإيمان، فاسمع لما يقول.

قال الطبيب: ولكنني لم ألبث غير قليل حتى اكتشفت أنني قد فاتني أن أُضِّمن علاجي وأفكاري الطبية أهم العناصر وأبعدها أثراً في إتمام الشفاء ألا وهو الاستعانة بالله.

قلت: فهل ذكرت لنا سر تحولك هذا؟

قال: سأذكر مثالا على التجارب التي مرر بها، والتي جعلتني أتحول إلى هذه القناعة.. عندما كنت أعمل جراحاً في أحد المستشفيات، جاءتني ذات يوم جدة جاوزت السبعين تشكو من شدخ في عظام ردفها، وبعد أن وضعت فترة تحت العلاج أدركت من فحص سلسلة الصور التي أخذت لها على فترات تحت الأشعة أنها تتقدم بسرعة عجيبة نحو الشفاء، ولم تمض أيام قليلة حتى تقدمت إليها مهنئاً بما تم لها من شفاء نادر عجيب، عندئذ استطاعت السيدة أن تتحرك فوق المقعد ذي العجلات، ثم سارت وحدها متوكئة على عصاها، وقررنا أن تخرج تلك السيدة في مدى أربع وعشرين ساعة وتذهب إلى بيتها، فلم يعد بها حاجة إلى البقاء في المستشفى.

وكان صباح اليوم التالي هو الأحد، وقد عادتها ابنتها في زيارة الأحد المعتادة حيث أخبرتها أنها تستطيع أن تأخذها والدتها في الصباح إلى المنزل لأنها تستطيع الآن أن تسير متوكئة على عصاها.

ولم تذكر لي ابنتها شيئاً مما جال في خاطرها، ولكنها انتحت بأمها جانباً وأخبرتها أنها قد قررت بالاتفاق مع زوجها أن يأخذا الأم إلى أحد ملاجيء العجزة لأنهما لا يستطيعان أن يأخذاها إلى المنزل.

ولم تكد تنقضي بضع ساعات على ذلك حتى استدعيت على

عجل لإسـعاف السـيدة العجـوز، ويـا لهـول مـا رأيت.. لقـد كـانت المرأة تحتضر، ولم تمض ساعات قليلة حتى أسلمت الروح.

إنهـا لم تمت من كسـر في عظـام ردفهـا، ولكنهـا مـاتت من انكسار في قلبها، لقد حاولت دون جدوى أن أقـدم لهـا أقصـى مـا يمكن من وسائل الإسعاف، وضاعت كل الجهود سدى.

لقد شفيت من مرضها بسهولة، ولكن قلبها الكسير لم يمكن شفاؤه برغم ما كانت قـد تناولتـه في أثنـاء العلاج من الفيتامينـات والعقاقير المقوية وما تهيأ لها من أسباب الراحة، ومن الاحتياجـات التي كـانت تتخـذ لتعينهـا على المـرض وتعجـل لهـا الشـفاء.. لقـد التأمت عظامها المكسورة التئاماً تاماً ومع ذلك فإنها ماتت.

صحت: لماذا؟

نظـــر إلي، وقـــال: إن أهم عامـــل في شـــفائها لم يكن الفيتامينات ولا العقاقير ولا التئام العظام، ولكنه كان الأمل، وعندما ضاع الأمل تعذر الشفاء.

قلت: فما نواحي الأمل التي غابت عن ذهن هذه العجــوز في تصورك كطبيب؟

قال: أثرت هـذه الحاثـة في نفسـي تـأثيراً عميقـاً، وقلت في نفسي: لو أن هذه السيدة وضـعت أملهـا في اللـه مـا ضـيعها ومـا انهارت ولما حدث لها ما حدث.. وبرغم أنني كنت أومن بالله خالق كل شيء بحكم اشتغالي بـالعلوم الطبيـة، فـإنني كنت أفضـل بين معلوماتي الطبية والمادية، وبين اعتقادي في وجود الله كما لــو لم تكن هنالك صلة بين هذين الأمرين.

قلت: فقد وصلت إذن إلى ضرورة الإيمـان للشـفاء والعافيـة والسعادة؟

قـال: لقـد أيقنت أن العلاج الحقيقي لابـد أن يشـمل الـروح

والجسـم معـاً وفي وقت واحـد، وأدركت أن من واجـبي أن أطبـق معلوماتي الطبية والجراحيـة إلى جـانب إيمـاني باللـه وعلمي بـه، ولقد أقمت كلتا الناحيتين على أساس قويم.. بهذه الطريقة وحدها استطعت أن أقدم لمرضـاي العلاج الكامـل الـذي يحتـاجون إليـه.. ولقد وجدت بعد تدبر عميق أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة.

قلت: أهذه قناعتك وحـدك؟.. أم تـرى من زملائـك من اقتنـع بهذه القانعة؟

قال: الواقع أن النتيجة التي وصلت إليها تتفق كل الاتفاق مـع النظرية الطبية الحديثة عن أهمية العنصر السـيكولوجي في العلاج الحديث، فقـد دلت الإحصـائيات الدقيقـة على أن 80 بالمائـة من المرضى بشتى الأمراض في جميع المدن الأمريكية الكـبرى ترجـع أمراضهم إلى حد كبير إلى مسببات نفسـية، ونصـف هـذه النسـبة من الأشخاص الذين ليس لديهم مرض عضوي في أيـة صـورة من الصور.. وليس معنى ذلك أن هـذه الأمـراض مجـرد أوهـام خياليـة حقيقة، وليست أسبابها خيالية ولكنها موجودة فعلاً ويمكن الوصول إليها عندما يستخدم الطبيب المعالج بصيرته بها.

***

قلت للمعلم: هاهو الطب بدأ يسـلم وجهـه إلى اللـه، ويرتفـع عنه ذلك الغرور الذي أصابه بعد اكتشـافه لأسـباب العلـل، وكيفيـة علاجها.

قال: وسيرى من آيات الله ما يحمله إلى الله حملا.. ويوشـك لو امتد بك العمر أن تـرى المستشـفيات مسـاجد يعبـد فيهـا اللـه، ويذكر فيها بالله، لا تختلف عن سائر المساجد.

قلت: أرى بابان مقابلان.. إلى أين يؤديان؟

قال: إلى ركنين عظيمين من أركان الاستعانة.

قلت: ما أولهما؟

قال: التضرع إلى الله ودعاؤه وطلب مدده وعونه، وهو الـذي يقصد بالاستعانة عند الإطلاق.

قلت: وما الثاني؟

قال: العمل الصالح، فالله تعالى يمد بعونـه من أطاعـه، كمـا يحرم منه من عصاه، وقد ورد في الحـديث القدسـي: (يقـول اللـه تعـالى: من شـغله ذكـري عن مسـألتي أعطيتـه فـوق مـا أعطي السائلين)(1)

قلت: فكيف يكون العمل الصالح ركنا من أركان الاستعانة؟

قال: ألا تمد بالعون من استغاث بك طالبا النجدة؟

قلت: بلى.. وهـذا هـو الـركن الأول.. وسـؤالي عن الـركن الثاني.

قال: ألا تمد بالعون من نطق لسان حاله بالحاجة مـع صـلاحه وعفافه؟

قلت: لم أفهم هذا.

قال: إذا سألك مسكين ألا تعطيه؟

قلت: بلى.. وهذا هو الركن الأول.

قال: فإذا رأيت فقـيرا طيبـا عفيفـا اسـتحيا من مـد يـده.. ألا

---

1) البخاري في خلق أفعال العباد، وابن شالهين في الترغيب في الـذكر، وأبـو نعيم في المعرفة.

تعطيه؟

قلت: بل أقدمه على السائل.

قال: لم؟

قلت: الله تعالى هو الذي أمرنا بذلك، فقد قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 273)

قال: فكذلك من عرف بسيما الصلاح كان الله في عونه، سأل، أو لم يسأل.

الدعاء

اقتربنا من الباب الأول من أبواب الاستعانة بالله، وقد كتب عليه بحروف من نور قوله تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة:186)

فقال لي المعلم: أول مفتاح من مفاتيح الاستعانة بالله هو الدعاء، فبه تطرق أبواب الجود، وتمد أيدي العون، وترسل أمداد الإغاثة.

قلت: ما سر أمر الله لنا بالدعاء، مع كونه لا يتضمن إلا مصالحنا، وهي من الفطرية بحيث لا تحتاج إلى الإلحاح في طلبها؟

قال: هذا سر من أسرار كرم الله.. فالكريم ليس من أعطاك بعد أن تسأله، وإنما الكريم هو الذي يسألك أن تسأله.

قلت: كيف؟

قال: لأنك إذا اضطررت إلى سؤال من لم يطلب منك أن

تسأله قد يشق عليك السؤال خوفا من الرد.. ولكنه إن فتح لك المجال بطلبه حل عقدة لسانك بالسؤال.

قلت: لهذا ـ إذن ـ كان من رحمة الله ودلائل فضله أنه يحثنا على دعائه وطلب الحاجات منه، واعدا إجابة من دعاه وتحقيق سؤله، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:60)

قال: ليس ذلك فقط، بل اعتبر عدم رفع الأيدي بالدعاء نوعا من أنواع الكبر، فقال تعالى تتمة للآية التي ذكرتها: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:60)

قلت: لم كان عدم رفع الدعاء كبرا؟

قال: لأنه ناتج عن إعظام النفس لنفسها، فلم تر الله كفؤا لتسأله حاجاتها.

قلت: أتتجرأ النفوس على هذا؟

قال: وكيف لا تتجرأ.. والكبر ابن إبليس.. ألم يكن في وسع إبليس أن يقول ما قال آدم ﷺ طالبا مغفرة الله؟

قلت: بلى..

قال: فما الذي منعه من ذلك.. متحملا غضب الله في سبيل ذلك؟

قلت: الكبر الكاذب الذي امتلأت به نفسه.

قال: فهكذا من يرث من إبليس كبره.

قلت: لقد أدركت الآن سر قول الشاعر الصالح:

لا تسألنَّ بُنيَّ آدم ... وسل الذي أبوابه لا
الله يغضب إن ... وبُنَيُّ آدم حين

قال: أجل.. فترك الـدعاء نـوع من أنـواع الكـبر، أو درك من دركات الغفلة، وكلاهما موجب لغضب الله.

***

سمعت صوتا في القاعة يـردد بصـوت جميـل: ورد في بعض الكتب الإلهية أن الله تعالى يقـول: (وعـزتي وجلالي لأقطعن أمـل كل مؤمل غيري باليأس، ولألبسنه ثوب المذلة عند الناس، ولأخيبنه من قـربي، ولأبعدنـه من وصـلي، ولأجعلنـه متفكـرا حـيران يؤمـل غـيري في الشـدائد، والشـدائد بيـدي، وأنـا الحي القيـوم، ويرجـو غيري، ويطرق بالفكر أبواب غـيري، وبيـدي مفـاتيح الأبـواب، وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني)

قلت للمعلم: ما هذا؟.. أيتلى غير القرآن الكريم؟

قال: معناه موجود في القـرآن الكـريم، ألم يقـل اللـه تعـالى موبخا المتكبرين الذين أصابهم ببلائه لـيرفعوا أيـديهم إليـه طـالبين نجدته، ولكن كبرهم حال بينهم وبين ذلك: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَـذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾(المؤمنون:76)

بل بين تعالى أن غاية البلاء المرسل على الخلق هـو دعـوتهم إلى طرق أبـواب اللـه، والاسـتمداد من فضـله، ليكـون ذلـك سـببا لاتصالهم بالله وعبوديتهم له، فقـال تعـالى:﴿ وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُـنَا تَضَـرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:42 ـ43)، أي هلا إذ جاءهم بـأس اللـه ورأوه في الدنيا تضرعوا ورجعوا إلى الله سـبحانه وتعـالى، فعلمـوا أنـه ربهم وإلههم ومولاهم، وأنه كما أنه قادر على نفعهم قـادر على ضـرهم، فاستفادوا من ذلك بالعودة إلى الله، وطاعة رسله..

***

جاءني رجل.. وكأنه يعرفني، فقال: ولكن..

قلت له: ولكن ماذا؟

قال: مع أهمية الدعاء وتأثيره الفاعـل في تحقيـق المطـالب، وفي بث السكينة في النفوس المضطربة، إلا أن وحي الشيطان لا يزال يتسرب إليـك ــ أيهـا المتـألم لـدائك ــ لينفخ فيـك داء اليـأس القاتل، ويبعدك عن جوار ربك القوي إلى جوار نفسك القاصرة.

قلت ـ وقد تصبب مني العرق حياء ـ: أجـل، وأسـتغفر اللـه.. فما المخرج؟

قال: لقد توصل أطباء هذا المستشفى ـ انطلاقا من القــرآن الكـريم ــ إلى وضـع أربعـة أدويـة تعـالج الأوهـام الـتي يبـني بهـا الشيطان الأبراج التي تحول بينك وبين الاستمداد من ربك.

قلت: أأنا الآن مريض بأربعة علل؟

قال: كـل من رأى يـده قاصـرة عن الـدعاء، أو لسـانه خافتـا بالطلب، فهو مريض بأحد أوهام أربعة.

قلت: فما الأول؟

قال: وهم الضـعف الـذي يقـول لـك: (اعمـل وراع الأسـباب، فالكون كله أسباب، لا مكان فيه للخوارق)

قلت: فما الوهم الثاني؟

قال: وهم المعارضة الذي يقول لـك: (من أنت حـتى تعـارض مقـادير ربـك، فقـد جـف القلم بمـا كـان، ولن يـؤخر دعـاؤك، ولن يقدم)

قلت: فما الوهم الثالث؟

قال: وهم النقص الذي يقول لك: (الدعاء سـلوى القاصـرين،

أما الكمل، فليس لهم خيار مع ربهم، ولا يريدون إلا ما أراد:

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختبرني)

قلت: فما الوهم الرابع؟

قال: وهم اليأس الذي يقول لك: (كل الناس يرفعون أيـديهم، ولكن كل أيديهم ترجع صفرا.. فالتمس لك أسبابا أخرى)

قلت: هذه الأمراض، فأين الأدوية؟

قـال: فبـأي الأمـراض أصـبت أنت حـتى أدلـك على موضـع الدواء.

قلت: لعلي مريض بجميعها.. لا أدري.

قال: فسر إلى هـذه العيـادات الأربـع بصـحبة معلمـك، ففيهـا أدوية الأوهام الأربع.

وهم الضعف:

سرنا إلى القاعة التي يعالج فيها وهم الضـعف، فقـرأت على بابه مكتوبا: (هذا وهم ينفخـه الشـيطان في النفـوس الـتي تتصـور الكـون بصـورة معـادلات رياضـية، تتحكم في اللـه، ولا يتحكم اللـه فيها، فلذلك قد تنكر الخوارق، أو لا تنسـبها إلا للأنبيـاء والصـديقين، أمـا من عـداهم فهم تحت رحمـة القـوانين حلـوة كـانت أو مـرة، والتعامــل معهــا ينبغي أن يكــون بالســعي والاجتهــاد لا بالســؤال والتواكل)

قلت للمعلم: إن هــذا الكلام يحتــوي على بعض الحــق على الأقل، فالله تعالى قدر للكون مقادير ثابتـة ووضـعه بنظـام دقيـق، كما قال تعالى: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (القمر:49)

وأخبر أن مـا يـنزل من فضـله يـنزل بمقـادير محـددة، فقـال

تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر:21)

بل أخبر أن الغيث النازل نازل بمقادير دقيقة محددة، فقال تعالى: وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (الزخرف:11)

قال: ولكن مع ذلك، فإن الله تعالى رب القوانين، وهو الذي يتحكم فيها، وليست هي التي تتحكم فيه، ولذلك من الخطأ اعتقاد عدم ربوبية الله على القوانين، والله هو رب كل شيء.. أرأيتم لو أن أحدكم وضع نظاما من أنظمة هذا الجهاز الذي تدمنون على الجلوس بجانبه.

قلت: الحاسب الآلي..

قال: أجل.. فهل يمكن له أن يضع له من الاختيارات والخصائص ما يشاء.. ثم يغيرها كما يشاء؟

قلت: مثل ماذا؟

قال: بأن يغير نوع الخط مثلا أو لونه، أو يضع صورا بدل صور أخرى.

قلت: ذلك بإمكانه.. بل بإمكانه أشياء أخرى كثيرة.

قال: فلو أن أحدا من مستعملي برنامجه تعود على لون معين.. فتصور أن ذلك اللون هو اللون الوحيد لذلك النظام.

قلت: هذا إما جاهل أو مكابر.. ومن البساطة الرد على دعواه.

قال: كيف؟

قلت: نتصل بمصمم النظام ليضع له واجهة أخرى تفند رأيه

ومذهبه.

قال: فهذا الاتصال هو الدعاء.. والله هو واضع قـوانين الخلـق وبرامجهم.

قلت: ولكن.. كيــف نــرد على من يعتــبر الــدعاء نوعــا من التواكل والقعود؟

قال: لا.. الدعاء نوع من الاستعانة بالله، وهـو لمـا يحدثـه في النفس من الأمل قوة فاعلة لها تأثيرهـا الإيجـابي في الخـروج من الأزمات.. واسمع لما يقول الشهود.

قلت: أهنا شهود أيضا؟

قال: الشهود في كل مكان..

رأيت أعجميا يقول بعربية مختلطة بعجمة: (الـدعاء ــ إضـافة إلى قدرتــه في بث الطمأنينــة في النفس ـــ يــؤدي إلى نــوع من النشاط الدماغي في الإِنسان، وإلى نوع من الانشراح، والانبســاط الباطني وأحياناً إلى تصـعيد روح البطولـة والشـجاعة فيـه. الـدعاء يتجلى بخصائص مشخصة فريدة.. صفاء النظرة، وقوة الشخصـية، والانشراح والسرور، والثقة بالنفس، والاستعداد للهداية، واستقبال الحـوادث بصـدر رحب، كـل هـذه مظـاهر لكـنز عظيم دفين في نفوسنا، وانطلاقاً من هذه القوّة يستطيع حـتى الأفـراد المتخلفـون أن يستثمروا طاقاتهم العقلية والأخلاقية بشكل أفضل، وأكثر)(1)

سرنا قليلا، فرأينا أعجميا آخر يقول بعربيـة مختلطـة بعجمـة: (حينما ندعو فإننا نربط أنفسنا بقوة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها.. إنّ أحدث العلوم الإِنسانية ـ أعني علم النفس ــ يعلّمنـا نفس تعـاليم الأنبيـاء، لمـاذا؟ لأن الأطبـاء النفسـانيين أدركـوا أن الــدعاء والصـلاة والإِيمـان القـوي بالـدين يزيـل عوامـل القلـق

1) نقلا عن: الأمثل للشيرازي: 1/462.

والاضطراب والخوف والهيجان الباعثة على أكثر أمراضنا)(2)

قلت: فالدعاء إذن عامل قوة لا عامل الضعف.

قال المعلم: الضعيف المؤمن بالله المتوكل عليـه قـد يتوجـه للأعمال العظيمة، ويقوم بها خير قيام، لأنـه لم يقم بهـا بذاتـه، بـل قام بها بمعونة الله، وبمدده وفضله.. بينمـا القـوي ــ الـذي يتصـور نفسه قويا ــ قـد يقـف أمـام أبسـط الأمـور، لأن المعـادلات الـتي رسمها له شيطان الأسباب لا تسمح له بالإقدام.

بينما نحن كذلك دخل طبيب بمئزره الطبي، فرنت له العيون، فقلت للمعلم: من هذا؟

قال: هـذا الطـبيب مختص بـذكر النمـاذج الـتي تحطم أوهـام المختبئين تحت عباءة الأسباب والقوانين الغافلين عن رؤية مسبب الأسباب.

قلت: فهو عالم بالرجال إذن.

قال: عالم بالأولياء.. لا بكل الرجال.. فأصخ سمعك إليه.

قـال: أمـا النمـوذج الأول، فهـو موسـى ﵇ عنـدما وقـع في الحصار، البحر أمامه، والعدو من ورائه، حينذاك قـال الغـافلون من قومه: (أين المفر؟ ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ (الشعراء:61)

ولكن موســى ﵇ قـــال بثقـــة المـــؤمن:﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ((الشعراء:62)

وعندما قالها انخرمت قوانين السـيولة في البحـر، واستسـلم البحر لربـه، وتحـول إلى طريـق يبس سـار فيـه موسـى ﵇ ومن معه.

صاح المرضى: الله ! الله !

---

2) الأمثل: 1/462.

وصحت معهم بلا شعور: الله ! الله ! لقد كان الدعاء هو مـدد موسى ، وهو مصدر قوته، كمـا أن الاعتمـاد على الأسـباب هـو سبب ضعف قومه المخذولين.

قال الطبيب: والنمـوذج الثـاني، مـع موسـى أيضـا، وهـو موقف قومـه من أمـر موسـى لهم بـدخول الأرض المقدسـة، قــال لهم باعتبــاره الــزعيم الــذي أنقــذهم من بطش فرعــون، وباعتباره محل ثقتهم، فالخوارق يرونها أمامهم كما نـرى القـوانين العاديـة: يَـا قَـوْمِ ادْخُلُـوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَـةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (المائدة:21)

لكنهم غفلـوا عن قـدرة اللـه الـتي شـقت البحـر لتنقـذهم، وواجهوا هذا الأمر الإلهي ـ كما واجهوا غيره ـ بتخاذلهم، قالوا: يَـا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَـدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُـوا مِنْهَـا فَـإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (المائدة:22)

ولكن رجلين صالحين قويين منهم دلوهم على الطريق الــذي يدخلون به إلى هؤلاء القوم، قال تعالى واصفا هذا الموقف: قَـالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَـا ادْخُلُـوا عَلَيْهِمُ الْبَـابَ فَـإِذَا دَخَلْتُمُــوهُ فَــإِنَّكُمْ غَــالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُــوا إِنْ كُنْتُمْ مُــؤْمِنِينَ (المائدة:23)

فقد دلوهم على أمرين:

مراعاة الأسباب: بالدخول عليهم من الباب.

مراعاة قدرة الله: بالتوكل عليه والاستعانة به.

لكن هؤلاء أبوا إلا النظر إلى قوتهم وحدها وأسـبابهم وحـدها، فقالوا، وبإصرار عظيم: يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُـوا فِيهَـا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (المائدة:24)

حينذاك لم يجد موسـى حلا إلا الفـرار إلى ربـه، فقـال:

رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة:25)

واستجاب له ربه كما عوده، وطمأنه، قال تعالى:﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة:26)

صاح المرضى: الله ! الله !

وصحت معهم بلا شعور: الله ! الله !

قلت للمعلم: إن حياة موسى ﷺ في القرآن الكريم مثال عظيم على التوجه إلى الله في جميع الساعات: ساعات الشدة، وساعات الرخاء.

قال: أجل.. فإنه بعد أن قتل نفسا، وهو الذي يملك شفافية الإيمان وحساسيته، لم ينهد كيانه، ولم تخر قواه، بل قال متوجها لربه:﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ (القصص:16)، وما إن قالها حتى غفر له، بل نجاه من الغم الذي يصيب المؤمنين بعد وقوعهم في الخطأ، قال تعالى يذكر فضله عليه:﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ (طه:40)

وحينذاك لم ينس الله الذي أجاب دعاءه، بل توجه إليه بقلبه الرقيق شاكرا: ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص:17)

وعندما جاءه الرجل يسعى محذرا قائلا:﴿ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾(القصص:20)، قدم موسى الأسباب وهو ملتجئ لرب الأسباب، قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: 21)

أما الأسباب فخروجه خائفا مترقبا محتاطا متخذا كل الأسباب

المادية، أما لجوؤه لرب الأسباب، فهو دعـاؤه اللـه بـأن ينجيـه من القوم الظالمين، وهو يؤمل في فضله: وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَـالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (القصص:22)

وعندما ورد ماء مدين، ولم يكن الوقت كافيا لأي عمـل يمكن أن يكسب منه قوته توجه إلى ربه ـ كما يتوجه الصغير إلى والديه ـ قائلا: رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (القصص:24)

وفي تلك اللحظـة جـاءه المـدد الإلهي الـذي لم يتخلـف عنـه لحظة من اللحظات.

قلت: إن من قومي من يقـرأون هـذه الأحـداث الـتي يقصـها القرآن الكريم كما يقرأون ألف ليلة وليلة، وهم يملأونها بالأسـاطير فوق ذلك.

قال: لا.. هذا تحريف خطير.. إن القرآن الكريم لا يرسم هـذه الصور، ولا يعيد الحيـاة في هـذه الأحـداث إلا ليزيـل عنكم الأوهـام الـتي تحـول بينكم وبين ربكم متلبسـة ثيـاب العلم والحكمـة.. فلا تتخذوا آيات الله هزؤا..

قلت: أهذا من ذاك؟

قال: بل هو أخطر من ذاك.. فالمستهزئ قد يتوب، أما هـؤلاء فتشغلهم غفلتهم وما زين لهم عن مد أيديهم لله بالتوبة.

وهم المعارضة:

سرنا إلى القاعة التي يعالج فيها وهم المعارضة، فقرأت على بابها مكتوبا: (هذا وهم ناشئ عن سوء الفهم للقـدر، ولعلاقـة اللـه بعباده، وعنه تنشأ أوهـام كثـيرة تصـور اللـه صـورا لا تليـق بجلالـه وجماله ورحمته وحكمته)

قلت للمعلم: فسنبحث في هذا الباب إذن مسألة القدر.

قال: لا.. ليس بتفاصيلها.. فلذلك رحلة خاصة ودرس خاص نعرفه عندما نبحث في (أسرار الأقدار)

قلت: والآن.. وفي هذه القاعة؟

قال: سنعرف عدم التعارض بين الدعاء والقدر.

قلت: فما أول علاج نستفيده لعلاج هذا الوهم؟

قال: أول ما نستضيء به لدفع هذا الوهم هو التسليم لله واعتقاد عجزنا عن فهم حقائق الكون.

قلت: لا أرى الوهم يزال إلا بالعلم، فكيف تدلنا على التسليم الذي يبقي الجهل راسبا في محله؟

قال: ألستم تستفيدون من الكهرباء؟

قلت: لو انقطعت الكهرباء على البشرية يوما واحدا لأصبحت الأرض غير الأرض.

قال: فكم من الخلق يعرفون أسرارها؟

قلت: أفراد معدودون اختصوا في هذا الجانب.. ومع ذلك.. فإنهم كل يوم يكتشفون أشياء جديدة، ويصححون معلومات كانت خاطئة.

قال: فإذا سلمتم لهؤلاء، فلم لا تسلمون لله الذي خلق كل شيء وقدر كل شيء.

قلت: ما نسلم؟

قال: ما يتوهمه الغافلون تناقضا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: الله تعالى أخبرنا بأنه قدر مقادير كل شيء، ودعانا في

نفس الوقت أن ندعوه، ووعدنا بإجابة دعواتنا.

قلت: هذا صحيح، وليس في ذلك أي تناقض.

قال: لا.. الغافلون اعتبروا هذا تناقضا، فقالوا: كيف يجيب دعواتكم، وقد قدر المقادير وانتهى منها، وما سجل سيكون[1]؟

قلت: ألم ينتبهوا إلى أن الذي أخبر عن قدره هو الذي أمر بدعائه؟

قال: هم يأخذون ببعض الكتاب، ويهجرون بعضه.

قلت: والمؤمنون المسلمون لله؟

قال: لا يسألون هذا السؤال، بل لا يخطر ببالهم، كما لا يخطر

---

1) ذكر الفخر الرازي ما استدل به المتعلقون بهذا الوهم، ومما ذكره:

1. أن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع عند الله تعالى كان واجب الوقوع، فلا حاجة إلى الدعاء، وإن كان غير معلوم الوقوع كان ممتنع الوقوع، فلا حاجة أيضا إلى الدعاء.

2. أن حدوث الحوادث في هذا العالم لا بد من انتهائها بالآخرة إلى المؤثر القديم الواجب لذاته، وإلا لزم إما التسلسل، وإما الدور وإما وقوع الحادث من غير مؤثر وكل ذلك محال وإذا ثبت وجوب إنتهائها بالآخرة إلى المؤثر القديم، فكل ما اقتضى ذلك المؤثر القديم وجوده اقتضاء قديما أزليا كان واجب الوقوع، وكل ما لم يقتض المؤثر القديم وجوده اقتضاء قديما أزليا كان ممتنع الوقوع، ولما ثبتت هذه الأمور في الأزل لم يكن للدعاء أثر.

3. أن الأقدار سابقة والأقضية متقدمة والدعاء لا يزيد فيها وتركه لا ينقص شيئا منها، فأي فائدة في الدعاء،.

4. أنه سبحانه علام الغيوب يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور، فأي حاجة بالداعي إلى الدعاء؟

5. أن المطلوب بالدعاء إن كان من مصالح العبد فالجواد المطلق لا يهمله وإن لم يكن من مصالحه لم يجز.

6. أن أجل مقامات الصديقين وأعلاها الرضا بقضاء الله تعالى والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالإلتماس وترجيح لمراد النفس على مراد الله تعالى وطلبه لحصة البشر.

7. أن الدعاء يشبه الأمر والنهي وذلك من العبد في حق المولى الكريم الرحيم سوء أدب.

ببال كل الناس ما يقوله الطبيب أو المهندس ما داما يتكلمان انطلاقا من خبرتهما واختصاصهما.

قلت: ألهذا إذن يخبر ﷺ بأن البلاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، قال ﷺ: (لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة)[1]، وقال ﷺ: (لا يرد القدر الا الدعاء، ولا يزيد في العمر الا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[2]

قال: أجل ليكون ذلك زادا للمؤمنين المسلمين لله، ويكون علاجا نافعا للغافلين المتوهمين.

قلت: فما البذرة التي أنبتت هذا الوهم؟

قال: كيف وأخواتها.

قلت: لم أفهم قصدك.

قال: هو سؤالهم عن الكيفية، وهي تعني البحث عن أمور لا طاقة للعقل بفهمها أو للخيال بتصورها، فلذلك كان الكمال في التسليم للخبير لا معارضته.

قلت: ولكن هؤلاء يقعون في خطأ عظيم، فهم يمارسون في حياتهم العادية خلاف ما يقتضيه تصورهم لمسألة الدعاء.

قال: أجل.. فهم يأكلون إذا جاعوا، ويشربون إذا عطشوا، ويتداوون إذا مرضوا، ولا يقول أحد منهم: إن ذلك معارضة للمقادير، ولو شئنا لقلنا لهم: لماذا تفرون من الموت بأسباب الحياة التي تتفننون في الحرص عليها، ألا تعارضون بذلك المقادير التي حددت آجالكم؟

---

1) ابن عدي، والحاكم.

2) البيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير.

قلت: فالــدعاء ســبب من الأســباب، لا يختلــف عن ســائر الأسباب التي يمارسها كل البشر في جميع الأحوال.

قال: أجل.. هكذا أخبرت النصوص.

رأيت رجلا في تلك القاعة، قد التف حوله جمع من المرضى، سألت المعلم عنه، فقال: هذا الغزالي، وهو ـ كما تعلم ـ من أطباء هذا المستشفى.

اقتربنا من الغزالي، فسمعته يقول بحماسة، وكأنه يرافـع في محكمة من المحاكم ـ وهو يشير إلى بعض المرضى الجدد ـ: (فإن قلت: فما فائدة الدعاء مـع أن القضـاء لا مـرد لـه؟ فـاعلم أن من جملة القضـاء رد البلاء بالـدعاء، فالـدعاء سـبب لـرد البلاء ووجـود الرحمة، كما أن الترس سبب لدفع السـلاح، والمـاء سـبب لخـروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الــدعاء والبلاء، وليس من شــرط الاعــتراف بالقضــاء ألا يحمــل السلاح، وقد قال تعـالى: ﴿ وَلْيَأْخُـذُوا حِـذْرَهُمْ وَأَسْـلِحَتَهُمْ ﴾ (النسـاء: 102)، فقدَّر الله تعالى الأمر وقدَّر أسبابه)[1]

قـال المعلم: لقـد تحقـق هـذا المعـنى في منتهى كمالـه في رسول الله ﷺ فقد كان يعطي لكل مقام حقه من العبودية، ولعــل أدل مثـال على ذلـك مـا وقـع منـه في غـزوة بـدر، فقـد أراه اللـه مصارع المشركين حتى أنه أخذ يرها للصحابة، ومع ذلك لم يكــف ﷺ من الإلحاح على ربه في الـدعاء، عن علي قـال: مـا كـان فينـا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نـائم إلا رســول اللّه ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح.

وفي يوم المعركة نام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ فزعا، وهـو رافع يديه يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقـول: (اللهم إن تظهـر على هذه العصابة يظهر الشرك ولا يقم لك دين)

1) الإحياء: 1/328.

قلت للمعلم: لكن بعض سالكي طريق المعرفة تأدبوا، فقالوا بشـرعية الـدعاء، ولكنهم قصـروه على المعـنى التعبـدي المحض الذي يطلب به العبد مجرد الثـواب من غـير أن يكـون لـه أي تـأثير في تحقيق المطلوب.. فلا فرق عنـد هـؤلاء بين الـدعاء والامسـاك عنه بـالقلب واللسـان في التـأثير في حصـول المطلـوب.. بـل إن ارتباط الدعاء عندهم بتحقيق المطلوب كارتباط السكوت، لا فـرق بينهما.

قال: هذا الرأي يتناقض مع ما صرحت به النصوص من جعـل الله تعالى الدعاء سببا في تحقيق المطالب، بل هـو يتنـاقض أصـلا مع تشـريع الـدعاء، بـل يعتـبر قولـه تعـالى: وَقَـالَ رَبُّكُمُ ادْعُـونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (غافر:60) قولا لا معنى له.. بل يعتبر كل ما ورد من النصوص الحاثة على الدعاء، والمخبرة عن إجابة الله تعـالى دعـاء الداعين وتضرع المتضرعين لا حقيقة لها.

قلت للمعلم: لقد ذهب بعضهم إلى اعتبار الدعاء علامة جعلها الله تعالى أمارة على قضاء الحاجة، فمتى وفق العبد للـدعاء كـان ذلك علامة له على أن حاجته قد قضيت، وشبهوا ذلك بدلالـة الغيم الأسود في الشتاء على أنه يمطر.

وعممـوا هـذا القـول على جميـع الطاعـات والمعاصـي، فهي أمارات محضة عندهم لوقوع الثـواب والعقـاب، لا أسـباب حقيقيـة له.

بل عمموا ذلك في جميع ما يحدث في الكون من آثار، فكلهـا أمارت فالكسر مع الانكسار ليس سببا، بل لا ارتباط بينـه وبين مـا يترتب عليه إلا مجرد الاقتران، لا التأثير السببي.

قـال: فهـل يمنـع هـذا القـول الـداعين من رفـع أيـديهم للـه بالدعاء؟

قلت: لا..

قال: فلا حرج في هذا القول ما دام لا يمنعهم من رفع أيديهم إلى الله بالدعاء.

قلت: لقد أنكر بعضهم هذا القول، واشتدا في الإنكار، بل اعتبراهم مخالفين لـ (الحس والعقل والشرع والفطرة وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء)(1)

قال: لا نرى صحة هذا الإنكار، بل نرى أن الاختلاف فيها مجرد اختلاف نظري لا مبرر له، ولا حاجة إليه، أو هو اختلاف تنوع، أو هو اختلاف في التفسير لا أثر له، فسواء قلنا بأن الدعاء أمارة أو سبب لا يختلف الأمر بالنسبة للداعي، ولا يقعده ذلك عن الدعاء.

قلت: ولكن القول بالسببية له تأثيره الخاص.

قال: لا.. بل إن القول بكون الدعاء أمارة قد يكون أكثر تأثيرا في الدعوة إلى استعمال الدعاء من القول بالسببية.

قلت: كيف هذا؟

قال: لأن الداعي إذا عرف أن الدعاء علامة على استجابة الله قد يجعله أكثر إقبالا عليه من اعتقاده سببا، فالسبب قد يقصر عن تحقيق المطلوب بخلاف جعله علامة..

قلت: لقد ذكرتني بشاعر اقتبس هذا المعنى، فأحسن، فقد قال:

لو لم ترد نيل ما أرجوه وأطلبه   من جود كفيك ما علمتنى الطلبا

قال: وهناك ناحية أخرى أهم من هذه.

قلت: وما هي؟

1) انظر: مدارج السالكين: 3/409.

قال: هي الأثـر الـروحي الـذي يتركـه اعتقـاد كـون الـدعاء أو العبادة أمارة لا سببا في حد ذاته.

قلت: أإلى هـذه الناحيـة أشـار العـارفون عنـد حـديثهم عن الدعاء، فقد نبه أبو الحسن الشـاذلي إلى الاشـتغال بمناجـاة اللـه قبل الاشتغال بتحقيق المطـالب، فقـال: (لا يكن همـك في دعائـك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً، وليكن همك مناجاة مولاك)؟

وقال ابن عطاء الله: (لا يكن طلبـك تسـبباً إلى العطـاء منـه، فيقل فهمك عنـه. وليكن طلبـك لإظهـار العبوديـة، وقيامـاً بحقـوق الربوبية)؟

ثم علل كون الطلب لا يكون سبباً للعطاء بثلاث علل:

أما العلة الأولى، فعبر عنها بقوله: (كيف يكون طلبك اللاحـق سبباً في عطائه السابق؟)، فعطاء اللـه للعبـد عطـاء أزلي سـابق، وهو السبب في العطـاء الحـادث، والسـبب لا بـد من تقدمـه على المسـبب، وهـو كمـا قـال الواسـطي: أقسـام قسـمت، وأحكـام أجريت، كيف تستجلب بحركات أو تنال بسعايات؟

أمـا العلـة الثانيـة، فعـبر عنهـا بقولـه: (جـل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل)، أي أن حكم الله يتنزه ويتقدس أن يؤثر فيه أي مؤثر.

أما العلة الثالثة، فعبر عنها بقوله: (عنايته فيك لا لشيء منـك، وأين كنت حين واجهتك عنايته، وقابلتـك رعايتـه؟ لم يكن في أزلـه إخلاص أعمـال، ولا وجـود أحـوال. بـل لم يكن هنـاك إلا محض الإفضال، وعظيم النوال)

قال: هذا صحيح.. وهو لا يتناقض مع ما سبق ذكره، بل يكمله ويضفي على الدعاء من المعاني الجميلة والارتباط بالله مـا يرفعـه إلى مستويات عالية من العبوديـة.. فـإن معرفـة كـون عنايـة اللـه

الأزليـــة هي الســبب في كــل نعمـــة يشـــعر القلب بمحبـــة اللـــه واصطفائه على الكثير من خلقه، وهو ما يجعله يعبد الله مستشعرا منته عليه، وإحسانه السابق إليه.

قلت: أهـذا هـو مقصـود العـارفين من ذكـر التوحيـد بجـانب الدعاء؟

قال: أجل.. الدعاء سبب شرعي معتـبر، ولكن الشـرع الـذي شرع الـدعاء وبين تـأثيره في قضـاء الحـوائج هـو الـذي بين سـبق عناية اللـه بعبـده، فيفـنى العـارف في الفضـل السـابق، وينشـغل الغافل بالسبب اللاحق.

وهم النقص:

سرنا إلى القاعة الـتي يعـالج فيهـا وهم النقص، فقـرأت على بابها مكتوبا: (هذا الوهم ناشئ من سوء فهم لكلام الأولياء)(1)

قلت: ما هذا الوهم ـ يا معلم ـ؟

قال: هو ما كتب على الباب.

قلت: ولكنه لم يحدد الموضوع الذي أسيء فهمه.

قال: الأولياء والمقربون ربمـا تركـوا الـدعاء رضـى بالقسـمة الإلهية.

قلت: لقد عبر على موقفهم هذا ابن عطاء الله بقولـه: (ربمـا دلهم الأدب على تــرك الطلب؛ اعتمــاداً على قســمته؛ واشــتغالاً بذكره عن مسألته)

قال: فهذه الحكمة لا تدل على تركهم الدعاء مطلقا، بل يـدل

1) ذكرنا في هذه الرسائل كثيرا أن دور العارفين التربوي هو الحديث عن الجـوانب المعرفية المتعلقة بالتكاليف الشرعية، وجمع القلـوب على حقـائق التوحيـد، تكميلا لـدور الفقهاء، لا مناقضة لهم، لهذا تحدثوا في هذا الباب عن جانب مراعاة العبودية في الـدعاء مع الاعتقاد بالمنة لله في الدعاء أو في تحقيقه.

على أنهم ربما تركوا الـدعاء في بعض الأحيـان لاشـتغال بعبـادة أو رضى بما قسم لهم.

قلت: ولكن مع ذلك.. أليس فيه مخالفة للنصوص، فإنها تحث على الدعاء مطلقا؟

قال: لا.. ليس الأمر بهـذه الصـورة، فـإن مـا ذكـروه في هـذا الباب صحيح لا مشاحة فيه، وقد ورد ما يؤيده من النصوص كقولـه ﷺ في الحديث القدسي: (من شغله ذكـري عن مسـألتي أعطيتـه أفضل ما أعطي السائلين)(1)

ألم نقل في بداية هذا القسم: إن الاستعانة باللـه قـد تتحقـق بالسؤال، وقد تتحقق بالعمل الصالح؟

قلت: بلى، وقـد ضـربنا المثـل على ذلـك بـالفقير المتسـول، والمسكين المتعفف.. ولكن كيف نتعفف مع الله، وهو الـذي أمرنـا بالسؤال؟

قـال: ليس الأمـر كـذلك.. بـل إن الأمـر لا يعـدو مجـرد رضـا بقسمة الله، وانشغالا بطاعته.

قلت: ولكني قد قرأت للواسطي قولا يجعل العلة غـير هـذا.. فقد قال: (أخشى إن دعوت أن يقـال لي: إن سـألتنا مالـك عنـدنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسـأت الثنـاء علينـا، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور)

قال: هذا القول من الواسطي تعبير عن حالة وجدانية معينـة، وليس تعبيرا عن مذهب أو فكرة كما قد يتصور.

قلت: ولكنه قد يكون معارضا للدعاء، أو يكاد يعتبره نقصا.

قال: لا.. سوء الفهم هو الذي جر إلى هذا المعنى.. لم يحتقـر

1) البخاري في خلق أفعال العباد، وابن شالهين في الترغيب في الـذكر، وأبـو نعيم في المعرفة، والبيهقي.

أحد من الأولياء ما عظمه الله، ولكن هذا تعبير عن أحوال معينة.

قلت: ولكن كلامه واضح.. فلمـاذا نتعسـف في تأويلـه.. وهـو ليس قرآنا حتى ندافع عنه.

قال: القرآن الكريم أعظم من أن يحتاج للـدفاع عنـه.. ولكنـا ندافع عن الحقيقة التي أسيء فهمها.. فلا ينبغي أن نقول: أخطأت إلا لمن أخطأ.

قلت: فلماذا لا نقول لهذا: أخطأت؟

قال: ألم يمر رسول الله ﷺ بمواقف كثيرة كـان يكتفي فيهـا بتصاريف الأقدار عن الإلحاح في الدعاء.

قلت: بلى.. ويكفي من ذلك أنه ﷺ كـان يعصـب الحجـر على بطنه من الجوع.. ومع ذلك لم يسأل الله رغيفا واحدا.

قال: بل إن في القرآن الكريم ما قد يستدل به على هذا.

قلت: أين؟

قال: تأخر طلب أيوب تعالى وصبره تلك الفترة الطويلة، كما قــال تعــالى: ﴿، وَأَيُّوبَ إِذْ نَـادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّـنِيَ الضُّـرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ((الانبياء:83)

قلت: لقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة ثمـاني عشـرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانـه كانـا من أخص إخوانه له، كان يغدوان إليه ويروحان، فقال أحـدهما لصـاحبه: تعلم واللّه لقد أذنب أيـوب ذنبـاً مـا أذنبـه أحـد من العـالمين، فقـال لـه صاحبه: وما ذاك؟ قـال: منـذ ثمـاني عشـرة سـنة لم يرحمـه اللّـه فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل، حتى ذكـر ذلـك لـه، فقال أيوب عليه السلام: ما أدري ما تقول غير أن اللّـه عـزَّ وجـلَّ يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعـان فيـذكران اللّـه، فـارجع إلى بيـتي

فأكفّر عنهما كراهية أن يذكرا اللّه إلا في حق)[1]

قال: والأصرح من ذلك تأخر دعاء نوح تعالى على قومه كل تلك السنين الطويلة.

قلت: أجل، فقد ذكر الله تعالى مدة ذلك، فقال: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾ (العنكبوت:14)

قال: ومن ذلك تأخر دعاء إبراهيم وزكريا ـ عليهما السلام ـ في طلب الولد إلى أن بلغا من العمر عتيا.

قلت: أجل، فقد ذكر الله تعالى تعالى عن زكريا ﷺ: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ (مريم:4 ـ5)

قال: فزكريا ﷺ مع علمه بأنه لم يكن بدعاء ربه شقيا، أي ولم يعهد من الله إلا الإجابة في الدعاء، إلا أنه لم يستعمل هذا السلاح إلا بعد أن اضطر إليه اضطرار.

قلت: فكيف نوفق بين هذا وذاك؟

قال: بأن يوضع كل شيء في محله.

قلت: كيف ذلك؟

قال: الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ دعوا الله في مواقف كثيرة، وتركوا الدعاء في مواضع أخرى اكتفاء بالله.. فالكمال في الجمع بين الأمرين.

قلت: ما ضوابط ذلك؟

قال: ليس لذلك ضوابط محددة، ولو كانت هناك ضوابط لما

---

1) ابن أبي حاتم.

اختلف الناس في هذا الباب.

قلت: فالأمر يرجع إلام؟

قال: يرجع إلى الحالة الوجدانية.. أليس الدعاء علاقة وجدانية بين الله وعبده، فقد يدفع العبد أحيانا، وبدون شعور إلى أن يسـأل الله أمرا معينا، فيسأل اللـه، وقـد لا يشـعر بـذلك الـدافع، فيكتفي بنظر الله.

وهم اليأس:

سرنا إلى القاعة التي يعـالج فيهـا وهم اليـأس، فقـرأت على بابها مكتوبا: (هذا الوهم ناشئ عن علتين، إحداهما فطرية، والثانية مكتسبة)

العلة الفطرية:

قلت: فما الفطرية؟

قال: العجلة، ألم تسمع قوله تعالى: خُلِقَ الْأِنْسَانُ مِنْ عَجَـلٍ (الانبياء:37)، وقوله تعالى: وَيَدْعُ الْأِنْسَـانُ بِالشَّـرِّ دُعَـاءَهُ بِـالْخَيْرِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً (الاسراء: 11)

قلت: بلى.. فالاسـتعجال صـفة فطريـة في الإنسـان باعتبـار عمـره القصـير، وبسـببها آثـر العاجلـة على الآجلـة، والنقـد على النسيئة، كما قال تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَـةَ عَجَّلْنَـا لَـهُ فِيهَـا مَـا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (الاسراء: 18)

وبسببها طلب المشركون العذاب ليتأكدوا من صـدق رسـول اللــه ﷺ، قــال تعــالى: يَسْـتَعْجِلُونَكَ بِالْعَـذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَـةٌ بِالْكَافِرِينَ (العنكبوت:54)

قال: وقد أشار ﷺ إلى هذه العلة، واعتبرهـا حجابـا بين العبـد

واستجابة ربه له، فقال ﷺ: (يستجاب لأحدكم ما لم يَعجَل فيقـول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي) (1)، فالله عز وجل لا يعجل بعجلة ابن آدم، ولكن لكل قضاء عنده موعد.

قلت: فما علاج هذه العلة؟

قال: هنا أربعة رقاة مختصون في علاج هذه العلة.

قلت: أيدخل لهذا المستشفى الجن أيضا؟

قال: الجن خلق من خلق الله، وفيهم الصـالحون، فمـا الـذي يمنع دخولهم؟

قلت: ويسكنون بني آدم.

ضحك، وقال: ولم يسـكنونهم؟.. أضـاقت عليهم الأرض حـتى يسكنوا الإنسان؟.. ما مناسبة هذه الأسئلة؟

قلت: لقد ذكرت الرقاة.

قال: الرقاة هم الأطباء الذين يعالجون هذه العلل.. انظر لقـد بدأوا في العلاج، فهلم نستمع إليهم.

قال الراقي الأول: أول ما يجرك من هذا الوهم هـو تسـليمك الأمـر للـه في تحقيـق المطلـوب أو عـدم تحقيقـه، لأن اللـه أعلم بمصالح العباد منهم بمصالح أنفسهم.

ويكون الإنسان في هذه الحالة كصبي صغير بين يدي والديـه، يطلب منهما كل ما يلوح لبصـره، وقـد يكـون في بعض مـا يطلبـه داؤه وضرره، فيمنعانه لا بخلا وشحا، وإنما حرصا ورحمة.

وهكذا، فقد يدعو الإنسان بما يتراءى له خيرا، غافلا عن الشر المنطوي في ذلك الخير، والذي أعمتـه العجلـة عن تبصـره، ولهـذا

1) البخاري ومسلم.

قال تعالى: وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً (الإسراء:11)

زيادة على ذلك، فإن الإنسان في مواقف الغفلة قد يدعو دون نظر لعواقب ما يدعو، ومما دعا به المشركون كما نص القرآن الكريم: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (لأنفال: 32)

بل قد يدعو المؤمن في موقف من مواقف الغفلة أو الضجر، فيلعن نفسه وأهله وولده وماله، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك، ولهذا قال ﷺ: (لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من اللّه ساعة إجابة يستجيب فيها)(1)

وإلى هذا المعنى يشير العارفون ـ كما يعبر على لسانهم ابن عطاء الله ـ بقوله: (لا يكُنْ تَأَخُّرُ أَمَد العَطاء مَعَ الإلْحاح في الدّعَاءِ موجبَاً ليأسِك؛ فهو ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يختارُهُ لكَ، لا فيما تختاره لنَفْسكَ وفي الوقْتِ الذي يريدُ، لا في الوقْت الذي تُريدُ)

وإلى ذلك أشار في الحكمة الأخرى بقوله: (ربما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك)

بل ذلك ما يدل عليه قوله تعالى: وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (البقرة:216)

قال الراقي الثاني: أما الرقية الثانية، فهي أن الدعاء قد يكون مجابا، ولكنه ينتظر الحين الذي يبرز فيه، وتكون الرحمة في ذلك التأجيل.

وإلى هذا أشارت الحكمة السابقة: (لا يكُنْ تَأَخُّرُ أَمَد العَطاء

1) أبو داود عن جابر.

مَعَ الإلْحاح في الدّعَاءِ موجبَاً ليأسِك؛ فهو ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يختارُهُ لكَ، لا فيما تختاره لنَفْسكَ وفي الوقْتِ الذي يريدُ، لا في الوقْت الذي تُريدُ)

وقد روي في الآثار أن موسى ﷺ حين دعا على قوم فرعون فقال:﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس:88)، وقال الله تعالى له:﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا((يونس:89) أربعين سنة.

قال الراقي الثالث: أما الرقية الثالثة، فعبر عنها محمد بن علي حين مر على رجل رآه مغموما، فقال: ما لي أراك مغموماً ؟ فقال: لدين فدحني، قال محمد بن علي: أفتح لك في الدعاء؟ قال: نعم، قال: لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها دعاء ربه، كانت ما كانت.

وعبر عنها النورسي بقوله: (ولهذا فان عدم القبول الظاهري لدعوتي بالشفاء من مرضي طوال ثلاثين سنة لم يصرفني أبداً من أن أفكر في يوم من الأيام بتركه والتخلي عنه، ذلك لأن المرض أوان الدعاء ووقته، والشفاء ليس نتيجة الدعاء بل إذا وهب الله سبحانه - وهو الحكيم الرحيم - الشفاء فإنه يهبه من فضله وكرمه، وان عدم قبول الدعاء بالشكل الذي نريده لا يقودنا إلى القول بأن الدعاء لم يُستَجب، فالخالق الحكيم يعلم أفضل منا ونحن نجهل، وأنه سبحانه يسوق إلينا ما هو خير لنا وانفع، وأنه يدّخر لنا الأدعية الخاصة بدنيانا أحياناً لتنفعنا في أُخرانا، وهكذا يقبل الدعاء. ومهما يكن فان الدعاء الذي اكتسب الإخلاص والنابع من سرّ المرض والآتي من الضعف والعجز والتذلل والاحتياج، قريبٌ جداً من القبول. والمرض أساس لمثل هذا الدعاء الخالص ومداره. فالمريض والذين يقومون برعايته من المؤمنين ينبغي أن يستفيدوا من هذا الدعاء)(1)

1) اللمعة الخامسة والعشرون: 331.

قال الراقي الرابع: أما الرقية الرابعة، فهي أن تعلم ــ أيها اليائس الحزين ـ أنك في كل الأحوال لن ترجع صفر اليدين، بل الغنائم التي تنالها من عند ربك لا تعد ولا تحصى، بل هي أبلغ بكثير مما طلبته.

وقد قال ﷺ يعبر عن هذا العلاج: (ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها.. أو صرف عنه من السوء مثلها.. ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم)، فقال رجل: إذاً نُكثر قال: (الله أكثر)(1)

العلة المكتسبة:

قلت: عرفنا العلة الفطرية وعلاجها، فما العلة المكتسبة؟

قال: هي سوء المعرفة بالله، والتي ينتج عنها سوء الظن به.

قلت: فما سبب ذلك؟

قال: سببان قد يجتمعان، وقد يفترقان.

قلت: فما الأول منهما؟

قال: الغفلة التي ترين على القلوب، فتجعلها محجوبة عن الله يائسة من فضله..

قلت: وما الثاني؟

قال: ما سبق من الإنسان من المعاصي، فيتصورها جدارا يحول بينه وبين دعوة ربه أو استجابة ربه لدعائه.

قلت: فأين الرقاة الذين اختصوا بعلاج كلا العلتين؟

قال: أما من كان سبب علته الغفلة، فإنه يرسل إلى قسم (حسن الظن بالله)، ليتعرف على الأسماء الحسنى الكثيرة التي

1) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

تستدعي حسن الظن بالله، فتنزاح غفلته.

قلت: والسبب الثاني؟

قال: بتقوية الصلة بالله، ألم يقل الله تعالى بعد الأمر بالدعاء: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: 186)

قلت: بلى..

قال: فمن أراد أن يستجيب الله له، فليستجب هو لله.

قلت: ألا يجيب الله إلا الصالحين.

قال: تعالى الله.. فهو أكرم من ذلك، إنما الدعاء الذي يخرج من فم الخطيئة غير معطر بمسك التذلل والتضرع لا يخرج طاهرا نقيا، فإذا نزلت الإجابة لا تجد المحل الملائم لها.

قلت: لم أفهم هذا.. اضرب لي مثالا يوضحه لي.

قال: لقد استبعد ﷺ أن يستجاب لمن هذا حاله، فقد ذكر ﷺ: (الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك)(1)

قلت: لا أزال أحتاج إلى توضيح أكثر.

قال: لتمثيل حيلولة الجسم الذي نبت من حرام بين الداعي وبين الإجابة نستعير ما تسمونه بصحون الاستقبال الفضائي، فإن هذه الصحون إن حصل لها ما يشوش الصورة بانحنائها أو عدم توجيهها الوجهة المعينة، فإنها لا تستقبل البث الفضائي مع أن موجاته تملأ الأثير.

---

1) مسلم.

قلت: فالبخل ليس في الموجات، وإنما في المستقبل لها.

قـال: فلـذلك ورد في النصـوص التنبيـه إلى شـروط الـدعاء، وهي ترجع جميعهـا إلى الاسـتقامة والتـأدب بين يـدي اللـه ظـاهرا وباطنا، قال تعالى مبينا أدب الدعاء: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (لأعراف:55)، أي بخشوع قلـوبكم وصـحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً مراءاة.

قلت: لقد ذكرتني بقول علي لنوف البكالي: (يا نوف، إن اللّه أوحى إلى داود أن مر بـني إسـرائيل ألا يـدخلوا بيتـا من بيـوتي إلا بقلوب طاهرة، وأبصار خاشعة، وأيد نقيـة، فـإني لا أسـتجيب لأحـد منهم، ما دام لأحد من خلقي مظلمة)

وقد ذكر ابن عطاء شروط الدعاء ودعائمه التي يقـوم عليهـا، فقال: (إن للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا، فإن وافـق أركانـه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيتـه فـاز، وإن وافق أسبابه أنجح. فأركانه حضـور القلب والرأفـة والاسـتكانة والخشوع، وأجنحتـه الصـدق، ومواقيتـه الأسـحار، وأسـبابه الصـلاة على محمد ﷺ)

وعندما سئل إبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنـا؟ قـال بقـوة وصـراحة: (لأنكم عـرفتم اللّـه فلم تطيعـوه، وعـرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعـرفتم القـرآن فلم تعملـوا بـه، وأكلتم نعم اللّه فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنـة فلم تطلبوهـا، وعـرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشـيطان فلم تحـاربوه ووافقتمـوه، وعـرفتم المـوت فلم تسـتعدوا لـه، ودفنتم الأمـوات فلم تعتـبروا، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس)

قال: ولكن مع ذلك، لا ييـأس المـؤمن من رحمـة اللـه مهمـا كثرت خطايـاه أو حـالت الحوائـل بينـه وبين الإجابـة، فرحمـة اللـه أشمل وأعم، وقد قال بعضهم: (لا يمنعن أحدا من الدعاء ما يعلمـه

من نفسه فإن اللّه قد أجاب دعاء شـر الخلـق إبليس، قـال: ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُـونَ قَـالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَـرِينَ﴾ (الحجـر:36 ـ 37))

قلت: فهذا هو علاج هذه العلة إذن.

قال: هذه ناحية من العلاج.

قلت: أهناك ناحية أخرى؟

قال: أجل.. فإن الـدعاء يقتضـي اليقين في اللـه وفي فضـله وقدرته، فلذلك إن دعا يائسا من الإجابة كان ذلـك حـائلا بينـه وبين استجابة دعائه.

قلت: فاضرب لي مثالا يقرب لي هذا.

قال: إن أي أحد من الناس إن طلب منـك شـيئا، وهـو ينظـر إليك بعين الاحتقار، احتقار قدرتك أو كرمك، فإنك لا تعامله وفق ما قال بلسانه، بل وفق ما دل عليه حاله.

وكذلك الله تعالى فإنه لا يجـرب، فمن دعـا مجربـا اللـه ردت عليه دعوته.

قلت: ألهذا ـ إذن ـ ورد في النصوص النهي عن الاسـتثناء في الدعاء مع كونه مرغبا فيه في كل الأحـوال، كمـا قـال ﷺ (إذا دعـا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقولن اللهم إن شئت فأعطني، فإنــه لا مستكره له)(1)

قال: أجل، وذلك لما قد ينشره في النفس من احتمـال عـدم الإجابـة، وذلـك لأن في قولـه (إن شـئت) نـوع من الاسـتغناء عن مغفرته وعطائه ورحمته، كقول القائل: إن شـئت أن تعطيـني كـذا فافعل، لا يستعمل هذا إلا مع الغني عنه، وأمـا المضـطر إليـه فإنـه

1) البخاري ومسلم.

يعزم في مسألته، ويسأل سؤال فقير مضطر إلى ما سأله.

***

خرجنا من هذا القسم، وفي طريقنا لقيت حلقـة يجتمـع فيهم قوم حول رجل، وكـأن على رؤوسـهم الطـير، فسـألت المعلم من هذا؟

قال: هذا القاص.

قلت: الذي يقص القصص.

قال: أجل..

قلت: هلم بنا إليه.. فإن في طبعي ولعا عظيما بالقصص.

قال: ذلك طبع جميـع بـني جنسـك.. فاسـتخدموه في طاعـة الله.

اقتربنا من القاص، فسمعناه يقول: أيهـا اليـائس الـذي ينظـر بعينه الكئيبـة إلى الكـون ورب الكـون، تخلص من قنوطـك وارفـع يديك بالدعاء، فإن رحمة الله الشاملة ستشملك ما دمت مادا يدك إلى الله.

قالت الجماعة المحيطـة بـه: حـدثنا عن تضـرعات الصـالحين لتكون نبراسا يطفئ نيران أوهامنا.

سكن القاصا قليلا، وقلب صفحات كتاب بجانبه، ثم قال: لقــد حدث بعضـهم، قـال: إني لفي الحجـر ذات ليلـة، إذ دخـل علي بن الحسين، فقلت: رجـل صـالح من أهـل بيت الخـير، لأسـتمعن إلى دعائه الليلة، فصلى، ثم سـجد، فأصـغيت بسـمعي إليـه، فسـمعته يقول: عبيـدك بفنائـك، مسـكينك بفنائـك، فقـيرك بفنائـك، سـائلك بفنائك. قال الراوي: فحفظتهن، فما دعوت بهن في كرب، إلا فرج الله عني.

قلت للمعلم: هذا لم يدعو.. بل وصف حاله.

قال المعلم: أعظم الدعاء هو الفقر والمسكنة.

قال القاص: ويروى عن عبد الله بن جعفر: أن رجلاً أصابه مرض شديد، منعه من الطعام والشراب والنوم، فبينا هو ذات ليل ساهراً، إذ سمع وجبة شديدة في حجرته، فإذا هو كلام، فوعاه، فتكلم به، فبرأ مكنه، وهو: اللهم أنا عبدك، وبك أملي، فاجعل الشفاء في جسدي، واليقين في قلبي، والنور في بصري، والشكر في صدري، وذكرك بالليل والنهار- ما بقيت- على لساني، وارزقني منك، رزقاً غير محظور ولا ممنوع.

وحدث آخر، قال: أخبرت أن رجلاً، أخذ أسيراً، فألقي في جب، وألقي على رأس الجب صخرة، فتلقن فيه: قل: سبحان الله الحي القدوس، سبحان الله وبحمده، فأخرج من غير أن يكون أخرجه إنسان.

وروي أن الحجاج بن يوسف أتي برجل كان جعل على نفسه، إن ظفر به، أن يقتله، قال: فلما دخل عليه، تكلم بكلام، فخلى سبيله، فقيل له: أي شيء قلت ؟ فقال: قلت: يا عزيز، يا حميد، يا ذا العرش المجيد، اصرف عني ما أطيق، وما لا أطيق، واكفني شر كل جبار عنيد.

العمل الصالح

اقتربنا من الباب الثاني من أبواب الاستعانة، وقد كتب عليه بحروف من نور قوله تعالى: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ((البقرة:45)

فقال لي المعلم: المفتاح الثاني من مفاتيح الاستعانة العمل الصالح، فبه تطرق أبواب الجود، وتمد أيدي العون، وترسل أمداد الإغاثة.

قلت: ولكن الآية التي كتبت على الباب لم تتحدث عن المستعان عليه، بل اكتفت بإطلاق الاستعانة، ومثل ذلك قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (البقرة:153)

قال: لقد جاء لفظ الاستعانة مطلقا ليبين دور الصبر والصلاة في كل شيء، فهما عون في الدين كما أنهما عون في الدنيا، وعون في الأمراض النفسية كما أنهما عون في الأمراض الجسدية.

قلت: ولكن الله تعالى قد رتب على الأعمال أجورها المعلومة، كما ورد في الحديث القدسي: (إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة)(1)

قال: إن الله شكور حليم، فلذلك يمن على عباده بأجور الدنيا وأجور الآخرة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: سنعرف تفاصيل هذا في محلها من: (أسواق التجارة الرابحة)(2).. ولكن ألم تسمع قوله ﷺ: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)(3)

قلت: بلى.. وقد روي في أخبار الأنبياء أن يونس عليه السلام حين بدا له أن يدعو الله بالكلمات حين ناداه وهو في بطن الحوت، فقال: لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنبياء:87)، فأقبلت الدعوة نحو العرش فقالت الملائكة: يا رب! هذا صوت

1) البخاري ومسلم.

2) من رسائل المجموعة الثالثة.

3) الترمذي، وقال حسن صحيح.

ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال: أما تعرفون ذلـك؟ قـالوا: يـا رب! من هو؟ قال: ذلك عبدي يونس الذي لم يزل يرفـع لـه عمـل متقبل ودعوة مستجابة، قالوا: يا رب! أفلا ترحم من كان يصنع في الرخـاء فتجيبـه في البلاء، قـال: بلى! فـأمر الحـوت فطرحـه بالعراء(1).

قال: فلذلك يكون العمل الصالح شفيعا لصاحبه عند الله.

قلت: ولهذا إذن توسل الثلاثة الـذين انطبقت عليهم الصـخرة إلى الله بأعمالهم الصالحة، فنجاهم الله، فقد قال ﷺ: (بينمـا ثلاثـة رهط من بني إسرائيل يسيرون، إذ أخذهم المطر، فأووا إلى غـار، فانطبقت عليهم صخرة، فسدت الغار، فقالوا: تعالوا فليسـأل اللـه تعالى كل رجل منا بأفضل عمله.

فقـال أحـدهم: اللهم إنـه كـانت لي ابنـة عم جميلـة، وكنت أهواها، فدفعت إليها مائة دينار، فلما جلسـت منهـا مجلس الرجـل من المرأة، قالت: اتق اللـه يـا ابن عم، ولا تفض الخـاتم إلا بحقـه، فقمت عنها، وتـركت المائـة دينـار، اللهم إن كنت تعلم، أني فعلت هذا خشية منك، وابتغاء ما عنـدك، فـأفرج عنـا، فـانفرج عنهم ثلث الصخرة.

وقال الآخـر: اللهم إن كنت تعلم أنـه كـان لي أبـوان شـيخان كبـيران، وكنت أغـدو عليهمـا بصـبوحهما، وأروح عليهمـا بغبوقهمـا، فغـدوت عليهمـا يومـاً، فوجـدتهما نـائمين، فكـرهت أن أوقظهمـا، وكـرهت أن أنصـرف عنهمـا، فيفقـدا غـداءهما، فـوقفت حـتى اسـتيقظا، فـدفعت إليهمـا غـداءهما، اللهم إن كنت تعلم أني إنمـا فعلت ذلك ابتغاء ما عندك، وخشية منك، فأفرج عنا، فانفرج الثلث الثاني.

وقال الثالث: اللهم إن كنت تعلم، أني استأجرت أجـيراً، فلمـا

1) ابن أبي الدنيا.

دفعت إليه أجـره، قـال: عملي بـأكثر من هـذا، فـترك علي أجـره، وقال: بيني وبينك يـوم يؤخـذ فيـه للمظلـوم من الظـالم، ومضـى، فابتعت له بأجره غنماً، ولم أزل أنميها وأرعاهـا، وهي تزيـد وتكـثر، فلما كان بعد مـدة، أتـاني، فقـال لي: يـا هـذا إن لي عنـدك أجـراً، عملت كذا وكذا في وقت كـذا وكـذا، فقلت: خـذ هـذه الغنم، فهي لك، فقال: تمنعـني من أجـري، وتهـزأ بي، فقلت: خـذها فهي لـك، فأخذها ودعا لي، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت هـذا خشـية منـك، وابتغاء ما عندك، فأفرج عنا، فانفرج عنهم باقي الصخرة، وخرجـوا يمشون)(1)

قـال: هـذا الحـديث لا يـدل فقـط على جـواز التوسـل للـه بالأعمال الصـالحة، وإنمـا يـدل على أن الأعمـال الصـالحة شـافعة لصاحبها، سأل أو لم يسأل.

***

رأيت بـابين مفتـوحين، وكأنهمـا يطلبـان منـا الـدخول منهمـا، فقلت للمعلم: مـا هـذان البابـان اللـذان ينفتحـان لنـا طـالبين منـا الدخول؟

قال: هذان البابان يشـيران إلى أركـان العمـل الصـالح الـذي يرضي الله تعالى، ويمد صاحبه بالعون.

قلت: الأعمـال الصـالحة كثـيرة، فكيـف يشـير إليهمـا هـذان البابان؟

قال: هذان البابان يجمعان شتاتهما.

قلت: فما الأول منهما؟

قال: هو النوع الذي يجعل العبد متصلا بالله، ذاكرا له، متوجها إليه، مناجيا له، جالسا معه.

1) البخاري ومسلم.

قلت: فما دليل تأثيره في الاستعانة؟

قال: لقد كان ﷺ إذا اشتدت به الأمور هرع إلى الصلاة، فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى(1).

وعن أبى هريرة قال: رآنى رسولُ الله ﷺ وأنا نائم أشكو مِن وجع بطنى، فقال لى: (يا أبا هُرَيْرَة؛ أشِكَمَتْ دَرْدْ(2)؟)، قال: قلتُ: نعم يا رسولَ الله، قال: (قُمْ فَصَلِّ، فإنَّ فى الصَّلاةِ شِفَاءً)(3)

قلت: وما الباب الثاني؟

قال: هو باب إغاثة الملهوف، ورحمة الخلق، وقضاء حوائجهم.

قلت: فما دليل تأثير هذا النوع من الأعمال الصالحة؟

قال: وردت النصوص الكثيرة في تأثير ذلك في رفع البلاء، فقد قال ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء).. فمن رحم الخلق استعد لرحمة الله، ومن أغاثهم استعد لغوثه، فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

قلت: فهل هما بابان على الخيار أم يجبر على الدخول من كليهما؟

قال: ألا تعلم أن السلام يتنافى مع الجبر؟

قلت: أقصد أن كلا الركنين أساسيان بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر.

---

1) أبو داود، وقد رُوى هذا الحديثُ موقوفاً على أبى هُرَيرةَ، وأنه هو الذى قال ذلك لمجاهد، وهو أشبهُ.

2) معنى هذه اللفظةِ بالفارسى: أيوجعُكَ بطنُكَ؟

3) ابن ماجه.

قال: أجل، فمن قصر في أحدهما كـان لـه تـأثيره في قضـاء حاجته.. ولهذا يجمع الله كلا الوصفين للمؤمنين الصالحين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا الَّذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُـونَ﴾ (المائـدة:55)، فقـد وصـفهم بإقامـة الصلاة التي تدعم صلة العبـد بربـه، ووصـفهم بإيتـاء الزكـاة، وهي التي تنمي علاقتهم بربهم.

قلت: ألهذا إذن اقترنت الصلاة بالزكاة في مواضع كثـيرة من القرآن الكريم.

قال: أجل.. فلا يمكن أن يصل القلب إلى اللـه بالصـلاة، وفي قلبه قسوة على الخلق.

قلت: لقد ذكرتـني بقولـه ﷺ في المـرأة الـتي قيـل لـه: إنهـا تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها، فقال: (هي في النار)

قال: وأذكرك بقوله ﷺ في المرأة التي قيـل لـه: إنهـا تصـلي المكتوبـة وتصـدق بـالأثوار من الأقـط ولا تـؤذي جيرانهـا: (هي في الجنة)[1]

قلت: فهل ندخل لكلا البابين.. فقد عرفنا ما فيهما؟

قال: لا مناص لنا من ذلك.. ألا ترى انفتاحهمـا لنـا، وترحيبهمـا بنا؟

الصلة بالله:

دخلنا قاعة الصلة بالله، وكانت أشـبه بمحـراب للعبـادة، وقـد فوجئت بوجود مرضى في هـذه القاعـة، ولكن لا كالمرضـى، فـإن كل واحد منهم يفترش سجادته، ثم يختلفون.. منهم من يمـد يديـه بالدعاء والمناجاة، ومنهم من هو قائم أو راكع أو ساجد.

---

1) ابن النجار في حقوق الراكب والمركوب.

قلت للمعلم: ما يفعل هؤلاء في هذا المستشـفى؟.. أأخطـأوا الطريق، أم تصوروا المستشفى مسجدا؟

قال: لا.. هؤلاء يتدربون على تقوية الصلة بالله.

قلت: يتدربون!؟.. أراهم يصلون ويدعون.

قال: هناك من يدربهم على الصلاة الموصلة والدعاء المجاب.

قلت: أليس كل صلاة موصلة؟

قال: لا.. ألم تسمع قوله ﷺ: (إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقـل منهـا) [1].. ألم يتفـق الصـالحون على عـدم اعتبـار الصـلاة الخاليـة من الحضور مع الله؟

قلت: أجل.. فقد قال بعضهم: (من لم يخشع فسدت صلاته)، وقال آخر: (كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع)

قال: بل قال آخر: (من عرف من على يمينه وشماله متعمـدا وهو في الصلاة فلا صلاة له)

قلت: فكيف يدربونه على الخشوع؟

قال: ألستم تدربون المرضى على أشياء معينة لينسجموا مـع حياتهم؟

قلت: أجــل.. لــدينا أقســام كثــيرة خاصــة بالتــدريب في مستشفياتنا.

قال: وقد لاحظ هـذا المستشـفى أهميـة الصـلاة في العلاج.. ولاحظوا في نفس الوقت التقصـير في القيـام بهـا.. حيث صـارت مجرد حركات، وصار الـدعاء مجـرد تمتمـات، فلـذلك قـررت إدارة

---

1) أبو داود والنسائي وابن حبان.

المستشفى وضع هذا القسم لتدريب المرضى على الصلاة النافعة المؤثرة.

قلت: لقد ظفرت ببغيتي.. كم أشتاق لأتعلم صلاة الخاشعين.

قال: لا.. لن نبحث ذلك هنا.. لذلك محلـه الخـاص من دروس السلام.

بينما أنـا كـذلك إذ أخـذ بيـدي أحـدهم، وقـال: إن أرادت دوام الصحة والعافية، فعليك بقيام الليل، فقد جربت فوائده العلاجية.

قلت: وما أدلة اعتبار قيام الليل دواء، والمـريض مـرخص لـه في النوم والراحة، فكيف يطالب بقيام الليل؟

فقال: أما الدليل، فقد قال ﷺ وهو يعدد فضـائل قيـام الليـل: (عليكم بقيام الليـل فإنـه دأب الصـالحين قبلكم، ومقربـة لكم إلى ربكم، ومكفـرة للسـيئات، ومنهـاة عن الإثم، ومطـردة للـداء عن الجسد)[1]، فقد أخبر ﷺ أنه مطردة للداء عن الجسد.

قلت: ولكن المريض يعجز عن صـلاة الفـرض، فكيـف تطلب منه القيام؟

قال: القيام يتحقق بأي صورة، فإن كان المـريض لا يسـتطيع أن يصلي التهجـد قائمـاً يتهجـد قاعـداً أو مضـجعاً والأجـر يكتب لـه كاملاً.

زيادة على ذلك، فإنه لو طلب الطبيب من المريض أن ينهض سـاعة في جـوف الليـل ليتحـرك حركـات معينـة، ألا يؤخـذ قـول الطبيب الخبير بثقة ويقين بدون أن يجادله أحد؟

قلت: بلى، وكيف يجادل الخبير؟

فقال: فقد أخبر المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى بهذا، فخذ

1) الإمام أحمد والترمذي والبيهقي والحاكم في المستدرك عن بلال وابن عساكر.

بما يقول وسلم.

تدخل رجل عليه سيما الخبراء، وقال:دعه لي، فإني أعرف اللغة التي يفهم بها.

قلت: فحدثني بلساني.

قال: لقد جاء في كتاب (الوصفات المنزلية المجربة وأسرار الشفاء الطبيعية)، وهو كتاب بالإنكليزية لمجموعة من المؤلفين الأمريكيين(1) أن القيام من الفراش أثناء الليل، والحركة البسيطة داخل المنزل والقيام ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة، وتدليك الأطراف بالماء، والتنفس بعمق له فوائد صحية عديدة، وهذه النصائح تماثل تماماً حركات الوضوء والصلاة عند قيام الليل.

وسر علاقة هذه الأمور بالصحة أنها تؤدي إلى تقليل إفراز هرمون الكورتيزون(2)خصوصاً قبل الاستيقاظ بعدة ساعات، وهو ما يتوافق زمنياً مع وقت السحر، مما يقي من الزيادة المفاجئة في مستوي سكر الدم، والذي يشكل خطورة علي مرضي السكر، ويقلل كذلك من الارتفاع المفاجئ في ضغط الدم، ويقي من السكتة المخية والأزمات القلبية في المرضى المعرضين لذلك، كما يقلل من مخاطر تخثر الدم في وريد العين الشبكي، الذي يحدث نتيجة لبطء سريان الدم في أثناء النوم، وزيادة لزوجة الدم بسبب قلة تناول السوائل، أو زيادة فقدانها. أو بسبب السمنة المفرطة وصعوبة التنفس مما يعوق ارتجاع الدم الوريدي من الرأس.

ويؤدي قيام الليل إلى تحسن وليونة عند مرضى التهاب المفاصل المختلفة، سواء كانت روماتيزمية أو غيرها نتيجة الحركة الخفيفة والتدليك بالماء عند الوضوء.

كما أن قيام الليل علاج ناجح لما يعرف باسم (مرض الإجهاد الزمني) لما يوفره من انتظام في الحركة ما بين الجهد البسيط

---

1) انظر: مقالة لـ د. صلاح أحمد حسين أستاذ بطب أسيوط،جريدة الأهرام 27/7/2004 بتصرف.

2) وهو الكورتيزون الطبيعي للجسد.

والمتوسط، الذي ثبتت فاعليته في علاج هذا المرض.

ويــؤدي قيــام الليــل إلى تخلص الجســد من مــا يســمي بالجليسـيرات الثلاثيـة (نـوع من الـدهون) الـتي تـتراكم في الـدم خصوصاً بعد تناول العشاء المحتوي علي نسـبه عاليـة من الـدهون والتي تزيـد من مخـاطر الإصـابة بـأمراض شـرايين القلب التاجيـة بنسبة 32 بالمائة في هؤلاء المرضي مقارنة بغيرهم.

ويقلل قيام الليل من خطر الوفيات بجميع الأسباب، خصوصاً الناتج عن السكتة القلبية والدماغية وبعض أنواع السرطان.

ويقلــل قيــام الليــل من مخــاطر المــوت المفــاجئ بســبب اضطراب ضربات القلب لما يصاحبه من تنفس هواء نقي خال من ملوثات النهار، وأهمها عوادم السيارات ومسببات الحساسية.

وقيــام الليــل ينشــط الــذاكرة وينبــه وظــائف المخ الذهنيــة المختلفة لما فيه من قراءه وتدبر للقرآن وذكر للأدعيـة واسـترجاع لأذكــار الصــباح والمســاء. فيقي من أمــراض الزهــايمر وخــرف الشيخوخة والاكتئاب وغيرها.

***

جاء آخر، وقال: عليـك بالاسـتغفار، فقـد جـربت التـداوي بـه، فوجدته علاجا ناجعا لا تقف أمامه الأدواء.

قلت: فكيف وصلت إلى هذا النوع من العلاج؟

قال: لقد قرأت قوله ﷺ: (من أكثر الاسـتغفار جعـل اللـه لـه من كــل هم فرجــاً، ومن كــل ضــيق مخرجــاً، ورزقــه من حيث لا يحتســب)[1]، فــدلني هــذا على البحث في ســر هــذه الوصــفة، فوجدت نصوصا كثيرة تدل عليها، فقد قال تعـالى على لسـان نـوح عليه السلام: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِـدْرَاراً ﴾ (نوح:10 ـ 11)، وقال على لسـان هـود عليه السلام: ﴿ وَيَـا قَـوْمِ اسْـتَغْفِرُوا

1) أحمد والحاكم.

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً[1] وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (هود:52)، فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية جوامع النعم[2]، واعتبر الاستغفار سببا لها.

قلت: فما السر الذي وجدته لذلك؟

قال: لقد اتفق العقلاء على أن المعاصى والفساد توجب الهم والغم، والخوف والحزن، وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم، وسئمتها نفوسهم، ارتكبوها دفعا لما يجدونه فى صدورهم من الضيق والهم والغم، كما قال شاعرهم:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب، فلا دواءَ لها إلا التوبةُ والاستغفار.

قلت: ففصل لنا علل ذلك وأسبابه.

قال المعلم: لذلك قسم خاص في هذا المستشفى، سنمر عليه في حصن الاستعاذة.

***

بينما كنت مع المعلم في هذه القاعة نتأمل الصلوات الخاشعة، ونستمع إلى الأدعية الرقيقة مر رجل بنا هو يقول: (صلوا على رسول الله.. صلوا على رسول الله)

---

1) متتابعا مرة بعد أخرى.

2) وقد فصل الفخر الرازي سر اجتماع النعم في هذه الآية، فقال:(ثم إنه ﷺ قال: (إنكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم) وهذا غاية ما يراد من السعادات، فإن النعم إن لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وإن كانت حاصلة، إلا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضا، أما إذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها، فههنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى:﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾ إشارة إلى تكثير النعم لأن مادة حصول النعم هي الأمطار الموافقة، وقوله:﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة، ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات، وأن الزيادة عليها ممتنعة في صريح العقل)

قلت: من هذا؟

قال: هذا ممرض بهذا القسم يسقي المرضى دواء الصلاة على رسول الله ﷺ.

قلت: أعلم أن الصلاة على رسول الله ﷺ عبادة.. ولكني لا أعلم أنها دواء.

قال: كل عبادة دواء.. والصلاة على رسول الله ﷺ خصوصا أعظم دواء.. ألم تقرأ ما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: (يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه)، فقال له رجل: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي، قال: ما شئت، قال الرجل: الربع؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير، قال الرجل: فالنصف؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير، قال الرجل: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير، قال الرجل: أجعل لك صلاتي كلها، فقال ﷺ: (إذا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك)(1)، فقد أخبره ﷺ بأنه يكفى كل ما أهمه.

قلت: وقد روي حديث آخر يقارب هذا، فقد روي أن رجلا قال: يا رسول الله أجعل ثلث صلاتي عليك؟ قال نعم إن شئت، قال: الثلثين؟ قال: نعم إن شئت، قال فصلاتي كلها؟، فقال ﷺ: (إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك)(2)

قال: فقد وصف رسول الله ﷺ الصلاة عليه علاجا لهموم الدنيا والآخرة.

قلت: فهمت هذا.. ولكن ما سر ذلك؟

قال: سر ذلك يسير، فالصلاة على رسول الله ﷺ تربط

1) أحمد وعبد بن حميد وابن منيع والروياني والحاكم والبيهقي.

2) الطبراني في الكبير وأبو النعيم.

المؤمن برسول الله ﷺ وتملأ قلبه محبة له وشوقا إليه.

قلت: وما في ذلك من العلاج؟

قال: المحبة تحرق كل من عداها.. فتحرق الهم والغم.. وتملأ صاحبها بالبشر والسرور.

قلت: لقد ورد في النصوص الإخبار أن الصلاة على رسول الله ﷺ تجعل صاحبها أهلا لصلاة الله عليه، كما ورد في الحديث: أن رسول اللّه ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول اللّه إنا لنرى السرور في وجهك، فقال: (إنه أتاني الملك فقال: يا محمد أما يرضيك ربك عزَّ وجلَّ يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً) قلت: (بلى)(1)..

لكن ما سر ذلك؟ وهل له علاقة بالاستشفاء بالصلاة على رسول الله ﷺ؟

قال: أجل.. له علاقة عظيمة، فقد ورد في القرآن الكريم الإخبار بالتأثير العظيم الذي تحدثه صلاة الله على عبده، كما قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ (الأحزاب:43)

قلت: لقد أخبر الله تعالى بأن صلاة الله على عباده تخرجهم من الظلمات إلى النور.

قال: وهل الهموم والأحزان والمصائب إلا ظلمات، وهل النور إلا الفرج والعافية وانشراح الصدر.. ألم تسمع قوله ﷺ: (إن النور إذا دخل الصدر انفسح)(2)

***

1) أحمد ورواه النسائي بنحوه.

2) الحاكم، وتعقب، عن ابن مسعود.

دخـل ممـرض آخـر على المرضـى، وهـو يقـرأ قولـه تعـالى: ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ (الأحزاب: 41).. اذكروا اللـه يشـرح اللـه صدوركم، وينور قلوبكم)

قلت للمعلم: أهذا الممرض مكلف بدواء الذكر؟

قال: أجل.. فهو يحضهم في كـل حين، لا على الـذكر فقـط.. بل على كثرة الذكر.. فالـذكر لا يـؤتي أكلـه إلا بكثرتـه، ألم تسـمع الحــق تعــالى وهــو يقــول: ﴿ وَالــذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِـيراً وَالــذَّاكِرَاتِ﴾ (الأحزاب:35)

قلت: بلى إن الله تعالى لم يقرن أي عمل صالح بـالكثرة مـا عدا الذكر، وفي هذه الآية قال تعـالى:﴿ إِنَّ الْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْـلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ وَالْقَـانِتِينَ وَالْقَانِتَـاتِ وَالصَّـادِقِينَ وَالصَّـادِقَاتِ وَالصَّــابِرِينَ وَالصَّــابِرَاتِ وَالْخَاشِــعِينَ وَالْخَاشِــعَاتِ وَالْمُتَصَــدِّقِينَ وَالْمُتَصَــدِّقَاتِ وَالصَّــائِمِينَ وَالصَّــائِمَاتِ وَالْحَــافِظِينَ فُــرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَـاتِ وَالـذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِـيراً وَالـذَّاكِرَاتِ أَعَـدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِـرَةً وَأَجْـراً عَظِيمـاً﴾ (الأحـزاب: 35)، فجعـل الـذكر وحـده مخصوصـا بالكثرة.

قال: أتدري علة ذلك؟

قلت: لطـرد الغفلـة.. فالغفلـة تعـتري الإنسـان كـل لحظـة، فيحتاج إلى مقاومتها بالذكر.

قال: أجل.. والغفلة عن الله هي التي تجـر إلى اليـأس، وتملأ القلب ظلمة، فلا يعرف الله ولا يشاهد أفضاله، فإن سـمع باسـمه كان كسماعه أي اسم لا علاقة له به، ولا صلة بينه وبينه.

قلت: ألهذا كان من أسباب انشراح الصدر وطمأنينتـه الإكثـار من ذكر الله؟

قال: أجل.. فإن له تأثيراً عجيباً في انشراح الصدر وطمأنينته،

وزوال همه وغمه، وامتلائه أملا وثقة بالله، ألم تسمع الحق تعالى، وهو يقول:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ((الرعد:28)،ـ أي تطيب وتركن إلى جانب اللّه وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً.

قلت: بلى، فما سر ذلك؟

قال: لقد جعل الله تعالى القلب محلا لمعرفته، ولا يكون كذلك إلا إذا كان طاهرا نظيفا منورا بنور الإيمان، وإلا أثرت فيه الأنجاس التي يحملها، فتجعله معرفته بالله معرفة مشوهة تؤدي إلى إساءة الظن بالله، كما قال تعالى:﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (فصلت:23)

قلت: فما دور الذكر في هذا؟

قال: دور الذكر هو أنه جلاء القلوب وصقالتها، كما قال ﷺ: (لكل شئ صقالة، وان صقالة القلوب ذكر الله عز وجل وما من شئ انجى من عذاب الله عز وجل من ذكر الله عز وجل) قالوا: (ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل)، قال: (ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع)[1]

قلت: ألهذا نهي عن مصاحبة أهل الغفلة، كما قال تعالى: ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ (الكهف:28)؟

قال: أجل، لما يملأون به القلوب من وساوس.

قلت: ولهذا إذن وردت النصوص الكثيرة تصف الأذكار الرافعة للهم والحزن، كقوله ﷺ: (من قال في كل يوم أربع مرات: أشهد أن الله هو الحق المبين، وأنه يحي ويميت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، صرف الله

1) البيهقي.

عنه السوء)[1]

وقوله ﷺ: (كلمات الفرج: لا إله إلا الله الحليم الكـريم، لا إلـه إلا اللـه العلي العظيم، لا إلـه إلا اللـه رب السـموات السـبع، ورب العرش الكريم)[2]

وقوله ﷺ: (من قال لا إله إلا الله، قبل كـل شـيء، ولا إلـه إلا الله بعد كل شيء ولا إله إلا الله يبقى، ويفـنى كـل شـيء، عـوفي من الهم والحزن)[3]

وقوله ﷺ: (لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسـعة وتسـعين داء أيسرها الهم)[4]

قال: أجل، وكلهـا تضـمنت المعـارف الإلهيـة الـتي تـنزع الهم والغم، وتبشر بالفرج، ومن أيقن بالفرج حصل لـه، فاللـه لا يخلـف ظن عبده.

***

دخل ممرض آخر على المرضى، وهو يقـرأ قولـه تعـالى: يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِـفَاءٌ لِمَـا فِي الصُّـدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (يونس:57)، وقولـه تعـالى: وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (الإسراء:82)

قلت: هذا الممرض يرشد المرضـى إلى الاستشـفاء بـالقرآن الكريم.

قال: نعم، فهو الكتاب الوحيـد في العـالم الـذي يعـرف باللـه المعرفة الصحيحة، لأنه كلام الله.. ولا يعرف الله إلا الله.

1) الحاكم في تاريخه.

2) ابن أبي الدنيا.

3) الطبراني في الكبير.

4) ابن أبي الدنيا في الفرج.

قلت: إن قومي خبراء بـالعلاج بـالقرآن الكـريم ولهم تجـارب كثيرة في هذا تمتلئ بها كتب الرقية.

قال: أولئك يتاجرون بالقرآن الكريم، ولا يعالجون به.. القـرآن الكريم يعالج بالحقائق لا بالدجل.

قلت: كيف؟.. هم يستخدمون القرآن الكريم في العلاج.

قال: سنعرف دجلهم في محله من أقسام هذا المستشفى..

قلت: فكيف يعالج القرآن الكريم المرضى؟

قال: يعالجهم بالتعريف بالله، وإحسان الظن بـه، ولهـذا كـان شفاء لما في الصدور.

قلت: ألهـذا كـان ﷺ يرشـد من أصـابه الهم والحـزن بهـذا الـدعاء، قـال ﷺ: (مـا أصـاب عبـدا هم ولا حـزن، فقـال اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتـك، ناصـيتي بيـدك، مـاض فيّ حكمـك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هم لـك سـمّت بـه نفسـك، أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحدا من خلقك، أن تجعـل القـرآن ربيـع قلبي، ونـور صـدري، وجلاء حـزني، وذهـاب همّي وغمّي، إلا أذهب الله همّه وغمّـه، وأبدلـه مكانـه فرحـا)، قـالوا: يـا رسـول اللـه أفلا نتعلّمهن؟ قال: (بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلّمهن)(1)..؟

قال: أجل.. فالقرآن ربيـع القلـوب، وفي الربيـع يكـون الأنس والفرحة والسرور والابتسامة، ولهذا كـان بعض الصـالحين يقـول: (مـا زرع القـرآن في قلـوبكم يـا أهـل القـرآن، إن القـرآن ربـيع المؤمن كما أن الغيث ربـيع الأرض)

الإحسان إلى الخلق:

دخلنا قاعة الإحسان إلى الخلق، وقد كتب على بابها قوله ﷺ:

1) أحمد والبيهقي في الشعب، والحاكم، والطبراني في الكبير.

(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحمـوا من في الأرض يـرحمكم من في السماء)(1)

قلت للمعلم: لم كان الإحسان إلى الخلق قرينا للصلة بالله؟

قال: لأنه ثمرة أساسية من ثمار الصلة بالله، فيسـتحيل على القلب المنور بنور الذكر، المؤدب بتأديب القـرآن الكـريم أن يقعـد عن إغاثة الملهوف أو إجابة المحتاج أو الإحسان إلى الضعفاء.

ويستحيل على القلب المنور بنـور الإيمـان أن يـؤذي إخوانـه، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ صعد المنـبر، فنـادى بصـوت رفيـع فقال: (يا معشر من أسـلم بلسـانه ولم يفض الإيمـان إلى قلبـه لا تـؤذوا المسـلمين ولا تتبعـوا عـوراتهم فإنـه من تتبـع عـورة أخيـه المسلم تتبع اللـه عورتـه، ومن تتبـع اللـه عورتـه يفضـحه ولـو في جوف رحله)(2)

وقال ﷺ: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمـان قلبـه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عـوراتهم تتبـع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته)(3)

قلت: عرفت صـلة الصـلة باللـه بالاسـتعانة باللـه، فمـا صـلة الإحسان إلى الخلق بالاستعانة؟

قال: الله تعالى يعامل عبـاده بحسـب مـا يعامـل بـه بعضـهم بعضا، ألم تقرأ ما كتب على لافتة الباب؟

قلت: بلى.

قال: فقد أخبر ﷺ عن معاملة الله لعباده بجنس ما يعامل بـه بعضهم بعضا، وقد أخبر في الحديث القدسي عن صلته لمن وصل

---

1) الترمذي.

2) الترمذي، وقال: حسن صحيح.

3) أبو داود.

رحمه وقطعه لمن قطعها، فقال: (أنا الرحمن خلقتُ الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته)(1)

وأخبر ﷺ أن (من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)(2)

وأخبر ﷺ أن (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيام،ة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة)(3)

وأخبر ﷺ أنه (لا يستر عبد عبدا في الدنيا إلا ستره يوم القيامة)(4)

قلت: أمن هذا الباب ما ورد من علاج المرضى بالصدقة، فقد قال ﷺ: (حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع)(5)

قال: هذا الحديث يؤخذ على ظاهره، ويسلم لقائله.

قلت: فما السر في ذلك؟

قال: إن لم يدع لك لسان الفقير دعا لك قلبه، فإن جحد قلبه دعت لك الملائكة، فإن لم يدع لك أحد، فالله شاكر حليم، يعطيك

---

1) الترمذي وصححه.

2) مسلم وأبو داود واللفظ له والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه.

3) أبو داود واللفظ له والترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب.

4) مسلم.

5) أبو داود في المراسيل ورواه الطبراني والبيهقي وغيرهما.

ما عجز الكل عن إعطائه لـك، فسـلم لقـول نبيـك، ولا تسـأل عن الكيفية.

قلت: ليطمئن قلبي.

قال: سأورد لك ما يطمئن به قلبك، لقـد جـاء بعضـهم لبعض الصالحين، وشكا له عن قرحة خرجت في ركبته منذ سـبع سـنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع به، فقال الرجـل الصالح: (اذهب فاحفر بئراً في مكان الناس بحاجة إلى الماء، فإني أرجوا أن ينبع هناك عينٌ ويمسك عنك الدم) ، ففعل الرجل فبرأ.

فهكذا يفعل الصالحون والربانيون، فأنبئني لو أن هـذا الرجـل جاء لقومك من الرقاة، بماذا سيشيرون عليه؟

قلت: يخبرونه ـ بعد رقية التشخيص ــ بـأن الشـيطان ركضـه ركضة يحتاج معها إلى التجول على الرقاة جميعـا ليجـد من يحـرق له شيطانه، وقد يموت قبل ذلك.

قـال: وسـأزيدك أخـرى لـترى منهج الصـالحين في التسـليم للنصوص المقدسـة، حـدث بعضـهم قـال: مرضـت مرضـا خطـرا، فرآني جار لي صالح، فقال اسـتعمل قـول رسـول اللـه ﷺ: (داووا مرضاكم بالصدقة)، وكان الـوقت ضـيقا، فاشـتريت بطيخـا كثـيرا، واجتمع جماعة من الفقـراء والصـبيان، فـأكلوا ورفعـوا أيـديهم إلى الله عز وجل، ودعوا لي بالشفاء، فوالله ما أصبحت إلا وأنا في كل عافية من الله تبارك وتعالى.

قلت: تلك أزمنة الصالحين.

فقال: كل الأزمة أزمنة الصالحين ، ولا زمـان للصـالحين، وإن شئت أن أزيدك، فانشر إعلانا في الصـحف، تطلب فيـه اسـتعمال هذا الدواء بيقين وتسليم، لترى آلاف الرسائل تنهال عليـك تخـبرك بمدى جدواه، فمن وصفه لا ينطق عن الهوى.

رابعا ـ حصن الاستعاذة

دخلنا الحصن الرابع من حصـون الـروح.. كـان مهيبـا مخيفـا.. لست أدري كيـف شـعرت بقشـعريرة تسـري في أوصـالي.. كنت أتشبث بمعلم السـلام، وكـأني لا أتشـبث بشـيء.. خـالطني رعب لسـت أدري مـا سـببه.. قـف شـعري.. اختلطت في خيـالي صـور كثـيرة مرعبـة.. وزاد من رعـبي انطفـاء الأضـواء وامتلاء القاعـة بظلمة شديدة.. فازداد رعبي.

فجأة لاحت أنوار عظيمة بددت مخاوفي، كـانت الأنـوار تكتب بحروف من نور سورة الفلق.

ضحكت مع نفسي، وقلت: عجبا لك يا نفس.. كيف تخـافين.. وسورة الفلق موجودة !؟

قال: لقد عرفت سر هذا الحصن.

قلت: مـا عـرفت.. لم أر شـيئا بعـد.. إن هـو إلا رعب بسـيط سرى في أوصالي.. ولكني بحمد الله وجدت الحصن الذي أتحصـن به.

قال: ما وجدت؟

قلت: اللــه.. فاللــه رب كــل شــيء.. ومــا دام كــذلك فلم أخاف؟.. ومن أخاف؟.. ألم يقل الله تعالى وهو يعلمنـا التحصـن بـه: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (الفلق:2)؟

قال: ما دمت قد علمت هـذا.. فـاعلم أن هـذا الحصـن الـذي تمثلـه سـورة الفلـق يحفظـك من كـل الأعـداء مـا يختفـون، ومـا يبرزون.

قلت: عـرفت الأعـداء الظـاهرين، فمن الأعـداء المتسـترين بستار الغيب؟

قال: كثيرون.. وهم يتربصون بك.. وما وجدته من وحشة كان نوعا من تلك الأنواع المتسترة.

قلت: فـاذكر لي مـا ورد في النصـوص من هـؤلاء الأعـداء لأتقيهم.

قال: سأذكر لك ثلاثة.. ورد في النصـوص ذكـرهم.. وورد في النصوص الحث على الاستعاذة منهم.

قلت: من هم؟

قال: الشياطين، والسحرة، والحسدة.

قلت: لا أكتمـك ــ يـا معلم ــ فـإن النصـوص، وإن وردت بالاستعاذة من هذه الأمور.. وضمنت تحصـين اللـه لمن التجـأ إليـه منهـا إلا أن من قـومي من يفتت قلـوبهم الخـوف منهـا، وكـأن مـا وعدهم الله به لغو من القول أو مواعيد عرقوب.

قال: فابتدعوا لذلك بدعا كثيرة.

قلت: لست أدري هل يصح إطلاق هذا اللفظ في هذا المحل، أم لا؟

قال: بل لا يصلح هذا اللفظ إلا في هذا المحل.. فإنهم هجـروا كلام الله الذي أمرنا بالاستعاذة به، وهجـروا سـنة رسـول اللـه ﷺ، وملأوا الكتب والمصنفات بخرافـاتهم.. فرمـوا دين اللـه بالخرافـة، وملأوه بالشعوذة.

قلت: يا معلم.. أنت تشتد في النكير عليهم.

قال: غـيرة على دين اللـه.. فلم أر قومـا يحرفـون الكلم عن مواضعه كما رأيت هؤلاء.

قلت: فهل قامت إدارة المستشفى بعلاج هذه الظاهرة؟

قال: ليست إدارة المستشفى وحدها.. بل إدارة المستشفى، ووزارة الحياة.. ووزارة الحزم.

قلت: أكل هذه الجنود المجندة من أجل هذا؟

قال: ألم أقل لك: إن مدائن السلام تهتم بسلام الإنسان كاهتمامكم بسلام العمران؟

قلت: بلى..

قال: فوزارات الحرب عندكم تشهر دباباتها من أجل مصالح بسيطة، ولكنها لا تقف وقفة حزم واحدة للإنسان، وهو يخرب، ويحارب، ويكذب عليه.

قلت: أهؤلاء يكذبون؟

قال: أبشع الكذب.. ألم تسمع الحق تعالى وهو يقول: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (الأنعام:21)

قلت: أهؤلاء يفترون على الله كذبا؟

قال: ويكذبون بآياته.

قلت: لا.. إنهم مؤمنون.

قال: يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض.

كان الغضب باديا على معلم السلام، وهو يتحدث.. لست أدري هل يصيب جنسه من الخطأ حين الغضب مثلما يصيب جنسنا.. أم أنه معصوم الغضب، معصوم الرضا؟

قال لي، وكأنه قرأ ما في عيني: لقد عجبت لغضبي.

قلت: كنت أراك هادئا كصفحة الماء التي لم تعكر.

قال: الغضب لله سنة رسول الله ﷺ.. ولا ينبغي أن نميت سنة رسول الله ﷺ، فقد كان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: صبحكم مساكم(1).

قلت: أجل.. وقد غضب ﷺ في مواضع.. ولم يكن غضبه إلا لله.. ففي الحديث الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال لا إله إلا اللّه فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول اللّه ﷺ، فقال لأسامة: (أقتلته بعدما قال لا إله إلا اللّه؟ وكيف تصنع بلا إله إلا اللّه يوم القيامة؟)، فقال: يا رسول اللّه إنما قالها تعوذاً، قال: (هلاّ شققت عن قلبه) وجعل يقول ويكرر عليه: (من لك بلا إله إلا اللّه يوم القيامة؟) قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ(2).

رأيت جماعة من المرضى تبدو عليهم الكآبة يدخلون من أربعة أبواب في ذلك الحصن، سألت المعلم عنهم، فقال: هؤلاء مساكين.. أصابهم رقاتكم بأنواع من الكآبة.. ولكن الله هداهم، فجاءوا إلى هذا المستشفى ليغسلوا ما أصابهم من سوء الفهم.. وما ملأ قلوبهم من العلل.

قلت: فهل ندخل معهم؟

قال: لا مناص لنا من ذلك.. فلا ينبغي أن تعود إلى قومك بعلم لا تعرف تفاصيله.

الاستعاذة من الشياطين

دخلنا الباب الأول من أبواب هذا الحصن، وقد كتب على بابه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾ (فاطر: 6)

قلت للمعلم: ما سر تحذير النصوص من الشياطين؟

---

1) ابن ماجة، وابن حبان والحاكم.

2) البخاري ومسلم.

قال: الشيطان هو العدو الأول للإنسان، ألم يأب السجود لأبيكم آدم عليه السلام؟

قلت: ليس الشيطان وحده.. بل من معه من ذريته.. فإن قومي يحذرون منه ويحذرون.. ولذلك تمتلئ بيوتهم بالمعوذات، ويكثرون بين الحين والحين من زيارة الرقاة.

قال: أخطأتم.. أنتم تخافون الشيطان على دنياكم لا على دينكم.. تخافون منه أن يصيبكم بالأمراض، أو يصيب أموالكم بالمحق.. أو يصيب ذراريكم بالفقر.. وكأنه إله يوزع الأرزاق، لا شيطان يعلم المروق.

قلت: أصدقك.. فإن قومي لا يقصدون الرقاة إلا لأجل هذا.

قال: هذا كيد من كيد الشيطان، وأحبولة من أحابيله.. الشيطان لا يهمه غناكم، أو فقركم، بل إنه قد يحب غناكم الذي يصرفكم عن الله أكثر من حبه لفقركم الذي يقربكم إلى الله.

قلت: فلماذا نستعيذ من الشيطان؟

قال: لما قاله تعالى في الآية المعلقة على لافتة الباب، فقد قال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر:6)، فقد ذكر علة واحدة لاتخاذه عدوا، وهي كونه يدعو إلى السعير.

قلت: قومي لا ينكرون هذا..

قال: ولكنهم يتيهون عنه.. يجعلونه أمرا هينا بجانب ما يتصورونه من أباطيل.

قلت: لا أفهم قصدك.

قال: في أي موضع يستدل قومك بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الشيطان

يجري من ابن آدم مجرى الدم)(1)؟

قلت: يستدلون به على قدرة الشيطان على اسـتعمار جسـد الإنسان، واضطراره إلى الرقاة ليخلصوه.

قال: وهل هذا الحديث الشريف ورد في هذا الموضع؟

قلت: لا.. لقـد ورد في مواضـع مختلفـة، منهـا قولـه ﷺ: (لا تـدخلوا على هـؤلاء المغيبـات، فـإن الشـيطان يجـري من ابن آدم مجرى الدم)، قيل: يا رسول اللـه ومنـك؟ قـال: ومـني إلا أن اللـه أعانني عليه فأسلم(2).

قـال: فهم يحرفـون الحـديث إن فهمـوا منـه مـا فهمـوا.. فلا ينبغي صرف ألفاظ النصوص عن السياق الذي وردت فيه.

قلت: ولكنهم يسـتدلون بهـذا من بـاب العمـوم، لا من بـاب الخصوص.

قال: أي عموم، وأي خصوص.. لم يكن رسول الله ﷺ ليغفل عن هذا حتى نذكره.. ولم يكن ليجهل حتى نعلمه.. ولم يكن ليترك دينه ناقصا حتى نكمله.

***

ينما نحن كذلك إذ دخل شيخ مهيب ممتلئا وقارا، فرنت عيون المرضى إليه، فقلت للمعلم: من هذا المهيب الذي امتلأ قلبي هيبة له.

قـال: هـذا ولي صـالح.. وعـالم جليـل.. وهـو خبـير بعـالم الشياطين.

قلت: إذن هو راق ناجح.. ولكني لا أرى الغنى يبدو عليه!؟..

1) النسائي.

2) النسائي.

قال: هـو راق للقلـوب، وبالحقـائق.. لا مـا يفعلـه قومـك من الدجل.

قلت: ولكنهم يستندون للقرآن الكريم والسنة المطهرة.

قال: فهـذا الرجـل المهيب لم يكتسـب هيبتـه إلا من القـرآن الكريم، فاسـتمع إليـه ليـبين لـك موقـف القـرآن الكـريم من هـذا العالم.. فهو الكتاب الوحيد الذي يمدنا بالحقائق.

قلت: وما شأن هؤلاء المساكين بهذا الرجل؟

قال: هؤلاء المساكين أقنعهم رقاتكم أنهم مستعمرون بعوالم من الجن والشياطين.. ثم استلوا كل ما في جيوبهم.. يحرقون كل يوم جنا بمال من مالهم وعرق من عرقهم.. فلمـا فـرغت جيـوبهم لجأوا إلى الله.. فدلهم على هذا المستشفى.. فأرسلتهم إدارة هذا المستشفى لهذا القسم ليصححوا ما أوقعهم فيه قومك من أخطاء ومن كآبة.

القرآن الكريم:

عم القاعة سكون مهيب، بعـده تكلم الرجـل المهيب بصـوت يكاد يكون من السماء، قال، وكأنه يواصل كلاما قديما: لتقرير هذه الحقائق ـ الغائبـة للأسـف ـ نسـوق هنـا أكـثر مـا ورد في القـرآن الكريم من ذكر الشيطان وعلاقته بالإنس، باختصار، لنفهم المسألة على ضـوء القـرآن الكـريم، لا على ضـوء مـا يشـرعه الرقـاة المشعوذون:

فالله تعالى يقرر أن المس الذي يمس بـه الشـيطان لا يعـدو هذه الوساوس التي يلقيهـا، فتملأ القلـوب همـا وحزنـا، وقـد يمتـد تأثيرها إلى الجوارح مرضا وأنينا، وقد يكون محل الوسوسة مريضا مستعدا لحصول الصرع، فيصـرع ويتخبـط، لتـأثير تلـك الوسـاوس على نفسه، بل هو يتخبط لأي وساوس من الجن أو من الإنس.

وهذا التأثير الذي يحدثه الشيطان في القلوب والنفوس، وقد يمتد إلى الجوارح والأعضاء، لا يكون إلا لأوليائه المقترنين به، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:175)، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾(النساء:38)، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً﴾(النساء: 119)، وقال تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (لأعراف:175)، وقال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل:63)

أما المؤمنون، فلا يضرهم الشيطان، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (لأعراف:201)، وقال تعالى:﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المجادلة:10)

وذلك لأن معهم أسلحة مقاومته، قال تعالى:﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (صّ:83)، وقال تعالى:﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (لأعراف:200)

وذلك لأن كيده ضعيف مثل ضعفه، قال تعالى:﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ (النساء: 76)، وقال تعالى:﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (لأنفال:48)

والشيطان يخوف معتنقي وساوسه من الفقر، ويأمرهم لذلك بالفحشاء، قال تعالى:﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 268)

والغاية الكبرى من وساوس الشيطان هي الإضلال وتوابعه، قال تعالى: وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (النساء:60)، وقال تعالى: وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (الزخرف: 62)، وقال تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (لقمان:21)، وقال تعالى: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (فاطر:6)

قلت للمعلم: صدق الرجل، فضحايا هذه الحروب كما يصورها هؤلاء الرقاة ليست كما ورد في القرآن الكريم من تزيين المنكر والغواية وأصناف الوساوس الصارفة عن الله، وإنما هي حروب متصلة بالحياة المادية التي تلتصق التصاقا شديدا بمصالح الناس ورغباتهم.

قال: أتدري ما الدافع إلى اختصار هؤلاء الرقاة علاقة الجن بالإنس في هذه الناحية، أو تضخيمها على حساب غيرها من النواحي؟

قلت: ما سر ذلك؟

قال: لأنهم رأوا ذلك هو الاهتمام الوحيد للمجتمع، فهو لا يهمه أن يعرف مسالك الغواية أو مداخل الشيطان أو ضروب الوسوسة مادام ذلك لا يصيبه بصرع أو تخبط أو فقر أو حاجة، ولا يصيب مصالحه بأي نوع من الأذى سحرا أو مسا أو عينا أو غيرها من مصادر البلاء التي وكل بها الجن وتسلطوا على بني آدم في تصور هؤلاء.

واصل الشيخ يقول: وهو لذلك يبهرج لهم الوساوس ليتبعوه، قال تعالى: يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (النساء:120)، وقال تعالى: فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام:43)

وقال تعالى:﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (لأعراف:20)، وقال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ (طه:120)، وقال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج:52)

وهو يبحث عن كل الوسائل المؤدية إلى الإضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة:91)، وقال تعالى:﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ (الاسراء:53)، وقال تعالى:﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ (الاسراء: 64)، وقال تعالى:﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (لأعراف:27)، وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:21)

وبعد هذا كله، فإن الشيطان يخون من اتبعه، ويتركه في أهم مواضع الحاجة، قال تعالى:﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ (الفرقان:29)، وقال تعالى:﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر: 16)

قال: أسمعت هذا العرض لكثير مما ورد في القرآن الكريم من ذكر الشيطان.

قلت: أجل..

قال: الأمر أخطر من هذا.. فهؤلاء الرقاة لا يقصرون خطر الجني أو الشيطان على الصرع، بل يتعدونه إلى أشياء كثيرة تدل النصوص القطعية على أنها من خصوصيات الله.

قلت: أوصل بهم الأمر إلى هذه الدرجة؟

قال: أجل.. ماذا يقول الله تعالى في الأولاد؟

قلت: يعتبرهم نعمة من الله تعالى على عباده يجب شكرها، فالله تعالى يقول: يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (الشورى:49)

قال: إلا أن التفسيرات التي يتولاها رقاتكم تجعل الأولاد هبة من الشياطين، لا هبة من الله.

قلت: لم أسمع هذا.

قال: هم يجعلون العقم وليدا لتصرف جني يستقر في الرحم ليحول بين البويضة وحصول التلقيح، أو (ينفث في الجنين بعد تخلقه فيموت وتسقط المرأة حملها)(1)

أو أن الجن (يترك الإخصاب يتم ويكتمل الحمل، ولكن بعد عدة شهور من الحمل يركض الشيطان عرقا في رحم المرأة، فينزل الدم فيحدث الإجهاض)(2)

قلت: نعم.. هم يقولون هذا، ويتفقون عليه، ويرقون من به

1) الحاج خليفة معامرة،تجربتي الواقعية في الرقية الشرعية،عنابة:مطبعة الريام، 1997،ص45.

2) وحيد عبد السلام البالي، الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار، ص112.

عقم على هذا الأساس.. أو على أسس أخرى قريبة.

قال: هذا التفسير الغريب الذي يكاد يجمع عليه الرقاة وبه يجتذبون كل من لديهم مشاكل في العقم أو حنين للأولاد يحمل ظلالا كثيرة من الشرك.

قلت: الشرك!؟ هذه تهمة خطيرة.

قال: ولكنها واقع.. فإن قولهم ذلك يؤدي إلى اعتبار الجني هو الواهب للأولاد بكف أذاه عنهم، وبتركهم يخرجون من أرحام أمهاتهم بسلام، وكأن الملك الموكل بالرحم والوارد في الأحاديث الصحيحة الإخبار عنه، وهو يؤمر بنفخ الروح فيه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقي وسعيد يقف عاجزا أمام تسلط الجني المارد الذي وصلت قوته وجبروته إلى أن يتحدى وجود كائن أذن الله له بالتخلق.

قلت: هذا صحيح.. ولقد لاحظت هذا.

قال: وهذا التفسير وما يحمله من خرافة وشرك هو الذي يشير إليه قوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (لأعراف: 189 ـ 190)

فالقرآن الكريم يذكر في هاتين الآيتين حالة حمل خاف الزوجان خلالها أن يسقط الحمل أو يولد على غير الخلقة البشرية، ويمكن أن يكونا قد التجآ إلى أي وسيلة من والوسائل لحفظ الحمل، ولكن بعد أن من الله عليهما بالولد السوي نسباه لغير الله، وقصراه على تلك الوسائل.

قلت: لم أفهم علاقة الآيات الكريمة بواقع الرقاة عندنا.

قال: إن الشبه بين الشرك المنصوص عليه في تينك الآيتين والشرك الذي تعيشونه قريب، فالراقي وزبناؤه يعتقدون أن تلك الرقية التي خلص بها الرحم من الجن المارد هي السبب المباشر لحصول نعمة الولد مع أنه هبة ربانية لا ارتباط لها بالراقي ولا بالجن، وكان يجب أن يولد ذلك الولد مادام مقدرا له أن يولد، ولو ذهبت أمه لساحر أو كاهن أو مشعوذ.

وبهذه التصورات الشركية تمكن كل مشعوذ ودجال من السيطرة على عقول الناس وقلوبهم وجيوبهم، لأن الله تعالى شاء أن يبسط عليهم من فضله وهم في صحبة ذلك المشعوذ، فيعتقد العامي الساذج أن تلك الصحبة هي السبب والواسطة والمحل والمؤثر.

قلت: نعم.. هذا شرك واضح.. وكثيرا ما أراهم ينسبون حصول الولد لراق معين.

قال: وهم لا يكتفون بهذا.. بل يضيفون لهذا تحريفات أخرى للقرآن الكريم.

قلت: فماذا يقولون؟

قال: هم يستندون إلى تفاسير عجيبة للقرآن تتنافى مع المسلمات الشرعية، فهم مثلا يفسرون قوله تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (الأنعام:128) بالاستمتاع بين الجن والإنس[1].

قلت: سمعت هذا.. وهو من المسلمات عند العامة والخاصة.. بل لعلهم ينقلون عليه الإجماع.

---

1) انظر:محمد الصايم،حوار مع الشياطين،ص61.

قال: مع أنه لم يدل أي دليل نصي على ذلك، وإنما هي أخبار تتلقى عادة من المرضى النفسيين والمجانين لتبنى منها قضايا عقدية يحتاج التسليم لها إلى نصوص صريحة قطعية.

قلت: نعم.. هذه حقيقة عشتها.. فهم يصدقون كل ما يقال.. المهم أن يصب فيما يرونه.

قال: ليس هذا فقط.. بل إنهم يتنازلون كذلك عن كل مواقفهم من البدعة، فيضعون الأوراد الطويلة التي يبحث بها عن الجن أو التي يحرق بها، أو التي يعاهد على أساسها الجني، أو التي يفك بها السحر.

قلت: من العجيب ــ يا معلم ــ أن توظف الآيات الكريمة بواسطة هذه الفهوم توظيفا لا يليق بقدسيتها، فبعضهم مثلا يذكر من أوراد فك الربط قوله تعالى: فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (الكهف:71)

قال: الأمثلة عن ارتباط الخرافة بالعالم الغيبي واستغلالها في العبث بمشاعر الناس وصحتهم كثيرة، وخطرها لا يكمن في كونها خرافة أو شعوذة، ولكنه في استعمال القرآن الكريم في إشاعتها ونشرها واعتبارها علاجا شرعيا، وهو ما ينذر بخطر عظيم، فهؤلاء لا يكتفون بالقراءة، بل قد يلجئون إلى الضرب المبرح أو الكي أو الكهرباء أو غيرها من وسائل التعذيب لأنهم في تصورهم لا يعذبون المريض وإنما يعذبون الجن الذي يتلبسه، وقد يأتي يوم يسقون فيه مرضاهم السم ليقتلوا الجن، وما ذلك منهم ببعيد[1].

---

1) لم يعد الضرب هو الوسيلة الوحيدة التي يعامل بها الجن عند هؤلاء الرقاة، بل إنهم كل يوم يطورون المزيد من الطرق، ويستفتون العلماء الذين لا يجدون منهم إلا التشجيع، وقد أورد بعض الرقاة هذه الطرق من أنواع الأذى والتي عنونها بقوله: (لحاق الأذى بالجن المعتدي الساكن بالجسد)، ومن هذه الطرق:

1. استخدام الماء الساخن المقروء عليه في تعذيب الجن وابعاده عن مكان أذاه بالجسم بوضع الماء الساخن على العضو المراد

قلت: ولكنهم ــ يا معلم ــ يستدلون لذلك بنص من القرآن الكريم لا ينبغي تجاوزه.

قال: قوله تعالى: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (البقرة:275)

قلت: أجل.. ففي هذه الآية تصريح بأن الشيطان يتخبط الإنسان من المس.

قال: في أي سياق وردت الآية.. ألم تعلم أنه لا ينبغي فصل الآية عن سياقها؟

---

2. استخدام الموجات الصوتية بواسطة سماعات عالية التردد موصلة بجهاز تسجيل عليه آيات الرقية والحرق والحفظ وبعض السور والآيات ووضع السماعة على مكان وجود الجن أو مكان تأثيره في عضو من الأعضاء فيبدأ الجن في ترك العضو غير السليم.

3. استخدام الثلج المقروء عليه آيات معينة ووضعه على وجه الشخص المصاب وخاصة في حالة الجن المجوسي عابد النار.

4. استخدام جلسات الكهرباء على الدماغ أو على أي عضو من أعضاء الجسم لصرف الجني المسبب للألم أو المرض.

5. غمر الجسد أو جسم المصاب في حوض به ماء مقروء عليه (برميل ماء مثلا)مع تغطيس الجسم كله بالرأس صعودا وهبوطا لخنق الجن.

6. كتابة آيات قرآنية على جسم المصاب أو أماكن وجوده لحبس الجني العارض وتكتفيه.

7. صرفه من الرحم وخاصة في سحر النزيف بواسطة الأعشاب (شرب مغلي نبات البرداقوش واليسنون والحرمل) وينفع كذلك شرب مغلي الشبت والبقدونس ويحلى المشروب بالعسل المقروء عليه 0

8. هناك مأكولات تضر بالجن اليهودي مثل ان يحرص المريض على أن يأكل لحم الأرانب لأن اليهود لا يأكلون الأرانب.

9. الحجامة أثناء القراءة وأثناء وضع حقنة الجلوكوز في وريد المريض

10. استخدام العطس، ويتم باستنشاق النشوق في الأنف عدة مرات وتحميد الله فإن ذلك يؤذي الجن وخاصة إذا كان النشوق مقروءا عليه.

11. إنزال الجن الساكن بالدماغ والمقارن للحالة (حاضر على الحالة طوال الوقت) بواسطة جلسات الكهرباء على الدماغ وعمل الحجامة اللازمة والضرب بقوة على أعلى الظهر ونقرة القفا.

قلت: وردت في سياق تحريم الربا، تشبه المرابين بهذه الصورة، قال تعالى: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة:275)

قال: فأنتم حرفتم هذه الآية تحريفا شنيعا.. انشغلتم بالتشبيه عن الحقيقة.. تركتم بنوككم وجيوبكم وحياتكم تمتلئ بالربا.. ورحتم للتشبيه تملؤون عيونكم وقلوبكم وحياة الناس به.

قلت: ولكن مع ذلك فهو قرآن كريم، وهو لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (فصلت:42)

قال: فما يقول قومك في هذه الآية؟

قلت: هم يتشددون في تفسيرها.. ويرون من خالف ما ذهبوا إليه مخالفا للسنة ولأهل السنة وشاذا عن جماعة المسلمين.. وهم ينقلون أقوال المفسرين في ذلك كدليل على هذا الإجماع.

قال: فأخبرني بما قالوا؟

قلت: نقلوا عن الطبري قوله: (فقال جلَّ ثناؤه للذين يأكلون الربا الذي وصفنا صفته في الدنيا لا يقومون في الآخرة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، يعني بذلك: يتخبطه فيصرعه من المس، يعني من الجنون، وبمثل ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل[1].

قال: صدق الطبري.. وهو لم يعدو ما ورد في الآية.

قلت: كيف هذا.. فأنت توافقهم إذن.

1) الطبري: 3/101.

قال: لقد قال الطبري: (فيصرعه من المس) وهو لم يخالف نص الآية بذلك.

قلت: كيف هذا؟

قال: اذكر لي أولا ما قالوا.. ثم نشرح هذا.

قلت: نقلوا عن أبي إسحاق الزجاج قوله: (المعنى: الذين يأكلون الربا لا يقومون في الآخرة إلا كما يقوم المجنون من حالة جنونه، يقال بفلان مس، وهو المْسَ وأَوْلقَ: إذا كان به جنون) (1)

قال: صدق أبو إسحاق.. بل وقف إلى جنب أهل الحق.

قلت: ونقلوا عن الماوردي قوله: (لا يقومون يوم القيامة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، يعني الذي يخنقه الشيطان في الدنيا من المس، يعني الجنون) (2).

قال: هو لم يعدو ما ذكر أصحابه.

قلت: ونقلوا عن عبد الرحمن بن الجوزي قوله: (قال ابن قتيبة: لا يقومون أي يوم البعث من القبور، والمس: الجنون، يقال رجل ممسوس: أي مجنون) (3).

قال: أراهم يكررون نفس الكلام.. فما الحاجة إلى كل هذه التطويلات؟

قلت: ليؤكدوا ما قالوا.. وليستدلوا على الإجماع بسبب ذلك.

قال: فليفهموا ـ أولا ـ ما يقولون قبل أن ينقلوه.. فإن كل ما قالوه صحيح لا يختلف فيه المسلمون جميعا سنتهم وشيعتهم سنيهم ومعتزليهم.

قلت: لا.. المعتزلة يختلفون اختلافا شنيعا مع أهل السنة في

1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه:1/358.

2) الماوردي: النكت والعيون: 1/348.

3) زاد المسير: 1/286.

هذا، وقد جروا أنفسهم إلى سهام أهل السنة ورميهم لهم بالبدعة.

قال: فما يقولون؟

قلت: ذهبوا إلى القول بعدم قدرة الجن على التأثير في بـدن الإنسان وصرعه له(1).

قال: أهذا ما ذهبوا إليه؟

قلت: لم يكتفوا بهذا، بل جروا إليهم نفرا من أهل السنة.

قـال: ومن هـؤلاء المغفلـون من أهـل السـنة الـذين تركـوا أنفسهم في أيدي المعتزلة ليجروهم إلى البدعة!؟

قلت: كثيرون.. كثيرون جدا.

قال: مساكين.. فاذكر لي من هم لعلي أشفع لهم.

قلت: من الأقـــدمين: محمـــد بن علي القفـــال الشـــافعي المذهب، والبيضاوي وأبو السعود، وكلاهما من أصحاب التفاسير الـذين اختصـروا كتـاب الكشـاف للزمخشـري المعـتزلي، ومن المحـدثين الشـيخ محمـود شـلتوت، والشـيخ طنطـاوي جـوهري، والشيخ أحمد مصطفى المراغي، والشيخ محمد الغزالي.

قال: هؤلاء من فحول العلماء، فكيـف يتسـلط المعتزلـة على عقولهم!؟

قلت: اسمع ما قالوا لتدرك ذلك.. يقول القفـال في تفسـيره للآيـة السـابقة: (إن النـاس يضـيفون الصـرع إلى الشـيطان وإلى الجن، فخوطبوا على ما تعارفوا من هذا، وأيضاً من عادة الناس إذا أرادوا تقبيح شيء أن يضيفوه إلى الشيطان كما في قوله تعـالى: طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ (الصافات:65)) (2).

قال: هذا رأي ذهبوا إليه.. ولهم في اللغة ما يـدل عليـه.. ولـو أني أرى أن القرآن الكريم أعظم من أن ينقل خرافة جاهلية..

---

1) انظر مقالات الإسلاميين: 1/133.

2) الرازي: 7/89.

قلت: فأنت مع المؤيدين إذن؟

قال: لأي شيء؟

قلت: لدخول الجني في الإنسي وصرعه له.

قال: وهل نص القرآن الكريم على ما ذكرت.. وهل قـال من قال من المفسرين الذي ذكرت أقوالهم ذلك؟

قلت: أجل.. وهو ما يستند إليـه الرقـاة في جهـادهم لتخليص الإنس من استعمار الجن.

قال: وهل ذكر القرآن الكريم الدخول.. أم ذكر المس؟

قلت: ذكر المس.

قال: فهل المس في لغة القـرآن الكـريم ولغـة العـرب الـتي نزل بها القرآن الكريم يعني الدخول.

قلت: لا.. ولكنه قد يعنيه على سبيل المجاز.

قال: والأصل في اللغة الظاهر لا المجاز.. هل ورد هذا اللفظ مرتبطا بالشيطان في غير هذا الموضع؟

قلت: بلى، فقد قال تعـالى عن حـال المتقين إذا تعرضـوا لمس الشياطين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّـهُمْ طَـائِفٌ مِنَ الشَّـيْطَانِ تَـذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف:201)

قال: فلم لم يقل الله تعالى: (إذا مسهم طائف من الشيطان ذهبوا إلى الرقاة ليخرجوه منهم)

وهـل تتصـور أن هـؤلاء الأتقيـاء الـذين ذكـرهم اللـه تعـالى يتخبطون من المس الذي أصابهم به الشياطين.

قلت: لا.. بل أرى أنهم أعظم شأنا من ذلك.

قال: قل لي: أنتم تدرسون خصائص الأنبياء.

قلت: أجل.. فمن صفاتهم الأمانة والصدق والتبيليغ والفطانة،

ومن خصائصهم..

قاطعني، وقال: هل يمكن أن يكون النبي مجنونا؟

قلت: هـذا عظيم.. كيـف تقـول هـذا، فهـذا من المنفـرات.. والنبي أذكى الأذكياء وأعظم العباقرة، فكيف يكون مجنونا؟

قال: رقاتكم يقولونه.

قلت: كيف.. لم أسـمعهم يقولـون هـذا.. ولـو قـالوه لرمـاهم الناس بالحجارة.

قال: ألم يقل الله تعالى: وَاذْكُـرْ عَبْـدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَـادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (صّ:41).. فقد ذكر أن الشـيطان مسه.. والمس عند رقاتكم يعني الدخول والصـرع والتخبـط.. وقـد فسرتموه بالجنون.

قلت بيني وبين نفسي: هذا صـحيح.. فكيـف غـاب عن بـالهم هذا؟ ولكن كيف تفسر علاقة المس بالتخبط الذي ورد في القـرآن الكريم؟

قال: ذلك شيء بسيط.. وسأضرب لك مثالا لتوضيحه.

قلت: هات.. فبالمثال يتضح المقال.

قال: سمعتكم تتحدثون عن مرض تسمونه (الحساسية)

قلت: أجل.. فبعض الناس لا يطيقون أشياء معينـة، فتصـيبهم لأجل ذلك علل قد لا تصيب سائر الناس.

قال: مثل ماذا؟

قلت: لعل أقرب مثال لذلك القطط.

قال: ما بها؟

قلت: فمع أنها من الطوافين علينا والطوافات[1]، إلا أن بعض

---

1) نص الحـديث:(إنهـا ليسـت بنجس إنهـا من الطـوافين عليكم والطوافـات) رواه مالك وأحمد وابن حبان والترمذي، وقال: حسن صحيح.

الناس تصيبهم بالحساسية.

قال: أي أنهم يصيبهم التخبط كلما رأوا القطط.

قلت: ليست الرؤية وحدها.. هناك أشـياء أخـرى فقـد أوردت وكـالات الأنبـاء أن فريقـا من البـاحثين الفرنسـيين نجح فى عـزل الجين المسـئول عن الحساسـية الـتى تسـببها القطـط المنزليـة لأصحابها..

قال: ألهذه الدرجة تهتمون بهذا؟

قلت: وأكثر من ذلك.. فلبعض الناس ولع شديد بالقطط قد لا تساعدهم عليه الحساسية التي تصيبهم جراء احتكاكهم بها.

قال: فما الرقية التي وضعتموها لهذا؟

قلت: لا.. هــذا ليس ميــدان الرقــاة.. ولكن البــاحثين في الولايـات المتحـدة يسـعون أن ينجـزوا في المسـتقبل مشـروعا للتكييف الجيني يهدف إلى إنتاج قطط خالية ممـا يثـير الحساسـية عند البعض ممن يواجهون مشاكل باقترابهم من القطط.

وقـد تـدخلت الشـركات في هـذه البحـوث، حيث أن شـركة ترانسجينيك بيتس، وهي شركة للتكنولوجيا الحيوية تعتزم بيـع هـذا النوع الجديد من القطط بأسعار تصل إلى ألف دولار للقط.

قـال: دعنـا من شـذوذكم.. قـل لي: كيـف تـؤثر القطـط في الحساسية التي تصيب هؤلاء.. هل تـدخل في هـؤلاء الممسوسـين بها؟

قلت: لا.. ـ يا معلم ـ بـل هي بمـا فيهـا من روائح تسـبب لهم تلك النوبات.

قال: فهل السبب منهم أم من القطط؟

قلت: منهم.. بــدليل أن القطــط من الطــوافين علينــا والطوافات، ومع ذلك لا يصيبنا منها شيء.

قال: فإذا أراد المريض أن يتجنب مـا تثيره القطـط فيـه من

حساسية ماذا يفعل؟

قلت: هناك حلان: إما أن يجتنبها تماما، وإما أن يستعمل من الأدوية ما يخفف أو يزيل تأثيرها عنه.

قال: فإذا صادف وأصيب أحد بنوبة حساسية جراء رؤيته لقط هل تستقدمون الرقاة ليقول له: (اخرج أيها القط)

قلت: نحن لا نفعل هذا.. بل نعطيه الأدوية التي تعيد له هدوءه.. ولكن ما علاقة هذا بما نحن فيه؟

قال: نفس المثال الذي ذكرته عن القطط ينطبق على المس الشيطاني.

قلت: كيف؟

قال: في بعض الناس أمراض عضوية، سنعرفها من الأطباء في هذا القسم.. وهذه الأمراض تجعل لهم حساسية تجاه وساوس معينة.

قلت: مثل ماذا؟

قال: كأن يخوفوا مثلا خوفا شديدا.. فإن ذلك الخوف يتسبب لهم في حصول هذه النوبات.

قلت: فالخوف هو الجين المسؤول عن هذه الحالة؟

قلت: ليس وحده، فهناك جينات أخرى.. ولكنا نقتصر على مثال التخويف.. فهذا الذي يصرع لأجل الخوف لو لاقاه أي مخلوق وخوفه ألا تصيبه نوبة الصرع؟

قلت: أجل.. فهو لا يختلف عن الحساسية.. يظهر بظهور السبب، ويختفي باختفائه.. ولكن ما دور الشيطان في هذا؟

قال: الشيطان خبير ماهر بطبيعة من يوسوس له.. فإذا علم من قرينه هذا.. راح يوسوس له بالمخاوف إلى أن يتخبطه من المس، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:175)

قلت: فأنت تفسر المس بالتخويف.

قال: التخويف بعض المس.. فمن الناس من لا يخاف.. ولكن يغضب، فيأتيه الشيطان.. وينفخ فيه من الوساوس ما يملؤه غضبا.. ألم تقرأ قوله ﷺ: (إنما الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ) (1)

قلت: بلى.. ولهذا سن لنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في هذه الحال، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ رأى رجلين يستبان، وأحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال رَسُول اللَّهِ ﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عَنْه ما يجد، لو قال أعوذ باللَّه مِنْ الشيطان الرجيم ذهب عَنْه ما يجد)، فقالوا له إن النبي ﷺ قال: تعوذ باللَّه مِنْ الشيطان الرجيم(2).

قال: فالشيطان يوسوس لكل الناس، كما أن القطط تخالط جميع الناس، ولكن بعض الناس لهم استعدادات معينة كالحساسية والصرع، فيصيبهما ما يصيب.

قلت: فأنت تقر أن للشيطان دورا.

قال: صحيح.. وما كان لي أن أخالف القرآن الكريم.. ولكن: أجبني إن حصلت الوساوس من الإنسان بأن كان هو المتسبب في التخويف أو الغضب، فلماذا ننسب الصرع حينها للشيطان؟

قلت: ولكن القرآن الكريم ذكر الشيطان.

قال: ولكن القرآن الكريم لم يقصر الشيطان على إبليس، بل قال:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (الأنعام:112)، وأمرنا بالاستعاذة منهم جميعا، فقال:﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (الناس:1)إلى قوله تعالى:﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس:6)

قلت: فما العلاج في رأيك؟

---

1) أحمد وأبو داود عن عطية السعدي.

2) البخاري ومسلم.

قال: علاجان: أحدهما لأهل الله يملؤون قلب الخائف طمأنينة، وغضبه سكينة، والآخر للأطباء يستأصلون مكامن الداء.. هو نفس علاجكم لوساوس القطط.. ألستم تعزلونها، أو تحاولون استنساخ السليم منها، أو تعالجون العليل بالمراهم، لا بأمر القطط بالخروج.

***

قلت: ولكن الأمر مخوف.

قال: لماذا؟

قلت: أخشى أن أخرج عن إجماع المفسرين، فهم يتفقون على أن المس يرتبط بالتخبط.

قال: هذا صحيح، وقد شرحنا ذلك.

قلت: والتخبط يكون عن دخول.. لا عن مجرد وسواس.. وهم يتشددون في المخالف لهذا ويرمونه بالبدعة، فقد قال القرطبي: (وفي هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن، وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مس)(1)

ويقول بن جزي الكلبي: (أجمع المفسرون أن المعنى لا يقومون من قبورهم في البعث إلا كالمجنون، ويتخبطه يتفعله من قولك: خبط يخبط، والمس: الجنون)(2)

ويقول محمد الطاهر بن عاشور: (والذي يتخبطه الشيطان هو المجنون الذي أصابه الصرع، فيضطرب به اضطرابات، ويسقط على الأرض إذا أراد القيام.. وإنما احتيج إلى زيادة قوله ﴿من المس﴾ ليظهر المراد من تخبط الشيطان، فلا يُظن أنه تخبط مجازي بمعنى الوسوسة)(3)

---

1) القرطبي:3/355، وانظر نفس القول في تفسير الشوكاني:1/295.

2) ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/94.

3) التحرير والتنوير: 3/82.

قال: فهل تترك ما فهمت إلى ما قالوا لمجرد خوفك أن تخرج عن قومك؟

قلت: صعب جدا أن يخالف المرء قومه.

قال: فمن قومك من ذهبوا إلى ما فهمت واقتنعت.. واسمع لهذا المتخصص في آراء الرجال يخبرك ويخبر هؤلاء المرضى المساكين الذين حرف لهم كلام ربهم بكلام الرجال.

دخل رجل القاعة، وبمجرد دخوله بادره المرضى يقولون: نخشى أن نخالف الإجماع.

قال لهم بنبرة الواثق: ومن قال بالإجماع حتى تخالفوه؟

قالوا: أقوامنا.

قال: أليس القفال، والبيضاوي وأبو السعود، ومحمود شلتوت، وطنطاوي جوهري وأحمد مصطفى المراغي، ومحمد الغزالي من أقوامكم؟

قالوا: بلى.. بل هم من خيارنا.. وبنو خيارنا.

قال: فهم، وغيرهم كثير يقولون بهذا.

فهذا محمود شلتوت يقول: (ليس للجن مع الإنسان شيء وراء الدعوة والوعد والوسوسة والإغراء والتزيين)(1).. وهو ينفي أن تكون للجن مقدرة على أن يلبس جسم الإنسان، فينطق على لسانه، ويتحرك الإنسان بحركته وقال: (هذا من أوهام الناس، ومصدره خارج عن المصادر الشرعية، ذات القطع واليقين)

وهذا محمد الغزالي، فقد ذهب إلى أن عداوة الشيطان للإنسان لا تعدو سوى الوسواس والخداع والاستغفال، وأنكر تلبس الجن بالإنسان، واعتبر هذا الاعتقاد من الأوهام والخرافات التي شاعت بين الناس(2).

---

1) الفتاوى، دار الشروق، الطبعة العاشرة 1400هـ-1980م، ص 24.

2) انظر كتابه: السنة النبوية بين أهل الفقه والحديث، دار الشروق -القاهرة، بيروت- الطبعة الرابعة 1989م ص93.

وغيرهم كثير..

قال أحد المرضى: ولكن أحمد بن حنبل ونعله.

قال: ما تقصد؟

قال المريض: لقد جاء في طبقات الحنابلة.. وآكام المرجان في أحكام الجان.. ولقط المرجان في أحكام الجان.. و.... الجان

قال العالم: ووساوس الشيطان في أحكام الجان.. قل قولك ولا تبالغ في التوثيق.

قال المريض: هم يقولون لنا هذا.

قال: ليملأوا قلوبكم رعبا.

قال المريض: لقد رووا أن أحمد بن حنبل كان يجلس في مسجده، فأنفذ إليه الخليفة العباسي المتوكل صاحباً له يعلمه أن جارية بها صرع، وسأله أن يدعو الله لها بالعافية، فأخرج له أحمد نعلي خشب بشراك من خوص للوضوء فدفعه إلى صاحب له، وقال له: امض إلى دار أمير المؤمنين وتجلس عند رأس الجارية وتقول له، يعني الجن: قال لك أحمد: أيما أحب إليك تخرج من هذه الجارية، أو تصفع بهذه النعل سبعين.

فمضى إليه، وقال له مثل ما قال أحمد، فقال له المارد على لسان الجارية: السمع والطاعة، لو أمرنا أحمد أن لا نقيم بالعراق ما أقمنا به، إنه أطاع الله، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء، وخرج من الجارية وهدأت ورزقت أولاداً، فلما مات أحمد عاودها المارد، فأنفذ المتوكل إلى صاحبه أبي بكر المروذي وعرفه الحال، فأخذ المروذي النعل ومضى إلى الجارية، فكلمه العفريت على لسانها: لا أخرج من هذه الجارية ولا أطيعك ولا أقبل منك، أحمد بن حنبل أطاع الله، فأمرنا بطاعته.

ضحك العالم وقال: لا شك أن هذه الرواية من اختلاق المتعصبين للإمام أحمد، فقد كان أورع من ذلك.

قال المريض: كيف هذا.. وقد رويت في تلك المصادر.

قـال العـالم: الإسـناد المظلم يبقى مظلمـا، ولـو طبعـوه في نسخة واحدة مع القرآن الكريم.

قال المريض: وكيف ترد هذا؟

قال: أما الأول، فمـا فائـدة النعـل؟.. ألم يكن في إمكانـه أن يدعو الله لها في مكانه؟

والثاني: هل كان أبو بكر المروذي من الغباء بحيث يحمل نعل ابن حنبل.. فهل كانت النعل هي الشافية!؟

ثم إن هؤلاء ينكرون التبرك بآثار الصـالحين، فكيـف يتـبركون بنعل ابن حنبل!؟

ثم ألم يكن في الدنيا جميعا من الصالحين إلا الحنابلة، بحيث لم يجد المتوكل إلا أبا بكر المروذي الذي هو تلميذ ابن حنبل؟

ومع ذلك.. فإني أرى أن للقصة أصلا صحيحا.

قال المريض: كيف هذا، وقد فندتها بهذه الوجوه؟

قال: لقد فطن ابن حنبل إلى أن الجاريـة ربمـا كـانت تتلاعب بذلك التصرف.. فلذلك اكتفى بإخافتها لترتدع..

ثم بعد هذا: من روى هذه القصة: هـل مالـك في الموطـأ، أم البخاري في الصحيح؟

قال المريض: لا هذا ولا ذاك، فهذه الرواية ليست حديثا.

قال: فهل ادعى أحمد في يوم من الأيام أنه رسول مشرع؟

قال المريض: لا ... كان أروع من ذلك.

قال: فهل تدعون له العصمة؟

قال المريض: نحن لا نقول بعصمة الأئمة.

قال: فهل كان أحمد أو من عاصره راقيـا يجلس النـاس إليـه كما يجلسون إلى رقاتكم؟

قال المريض: ما في مسنده، وما رواه عنه تلاميذه لا يدل على هذا.

قال: فلماذا تزجون بهذا الإمام في هذه المتاهات؟

تركنا الرجل يتحدث مع المرضى، وهم يذكرون له ما قيل، فيرد أو يصحح أو يدافع.. قال لي المعلم: دعنا من الرجال.. ولنذهب إلى سيد الرجال.

قلت: تقصد سيد الأولين والآخرين محمدا ﷺ.

قال: أجل.

قلت: أنخرج الآن من المستشفى لنزور المدينة المنورة.

قال: رسول الله ﷺ أعظم شأنا من أن ينحصر في المدينة المنورة.

قلت: فأين نذهب إذن؟

قال: إلى سنته.. ألم يأمر الله بالرد إلى رسول الله عند التنازع؟

قلت: بلى.

قال: فلنترك آراء الرجال، ولنذهب إلى السنة.

السنة المطهرة:

قال المعلم: أقرأت الأصول الكبرى للسنة؟

قلت: وكيف لا أقرؤها، وفيها أحاديث رسول الله ﷺ.. ولكني لا أكتمك بأني اكتفيت منها بالمصادر الصحيحة أو السنن، أما المعاجم وغيرها، فقد اكتفيت منها بما كتب النقلة عنهم.

قال: ففي تلك المصادر توجد أبواب خاصة بالرقى.

قلت: أجل.. توجد أبواب خاصة بالطب والرقى.. وهي تختلف

في تصنيفها باختلاف المصنفين.

قال: فهل تجد الرقية من العين؟

قلت: أجل.. العلماء ينقلون التفاصيل المرتبطة بذلك، فـالنبي ﷺ تحدث عن العين وبين خطرها، وعلمنا كيف نستعيذ منها.

قال: وقد أثبت المحدثون ذلك في تلك الأبواب؟

قلت: أجل.

قال: فهل فيها حديث واحد فيه الرقية من الجن، وكيفيتها؟

قلت: لا أذكر أني قرأت حديثا في هذا المعنى.

قال: بل لم تقرأ.. فلا يوجد نص فيما يمارسه قومك من أنواع الشعوذة.. ولم يرد نص صحيح واحـد يخـبر بمـا يدعيـه الرقـاة من استعمار الجني للإنسي.

قلت: ولكن العين تختلف عن المس؟

قـال: مـا الفـرق بين أذى العين، وأذى الجن؟ أليس كلاهمـا أذى؟..

قلت: أجـل.. هـذا صـحيح، بـل إن قـومي يزعمـون أن العين بسبب الجن.. والمس على كل حال أخطر من العين.

قال: وأزيدك شيئا آخر.. ألم تسمع حديث المرأة التي تصرع؟

قلت: أجـل.. لقـد روي أن امـرأة أتت النـبي ﷺ فقـالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع اللّه تعالى لي. قـال: (إن شـئت صـبرت ولـك الجنـة، وإن شـئت دعـوت اللّه تعـالى أن يعافيـك)، فقـالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع اللّه أن لا أتكشف، فدعا لها(1).

---

1) البخاري.

قال: في هذا الحديث دليل على أن الصرع مرض من الأمراض التي يجازى الصابر عليها.. وليس مرضا شيطانيا كما يزعمون.

قلت: إنهم يستدلون به على عكس ذلك، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني عدة طرق لهذا الحديث ثم قال: (وقد يؤخذ من الطرق التي أوردتها أن الذي كان بأم زفر كان من صرع الجن لا من صرع الخلط)(1)، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب وابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة أم زفر أنها هي التي كان بها مس من الجن(2)، وقال ابن القيم: (ويجوز أن صرع هذه المرأة السوداء من جهة الأرواح الخبيثة)(3)

قال: لا.. هذا تحريف خطير للحديث.. فأين ذكر الشياطين هنا، لقد طلبت المرأة الدعاء، ولم تطلب الرقية، وقد كان التفريق بينهما مشهورا لا شك في ذلك بدليل ما سنعرفه من نصوص، فقد ذكرت فيها الرقية بكونها مرخص فيها بخلاف الدعاء الذي هو عبادة من العبادات.

ثم إن الرسول ﷺ أرشدها إلى الصبر، ولا نرى أن رسول الله ﷺ يتركها للشيطان يسيمها سوء العذاب.

***

بينما نحن كذلك إذ دخل رجل مهيب، فقلت للمعلم: من هذا الشيخ الممتلئ هيبة ووقارا؟

قال: هذا عالم من علماء الحديث..

قلت: فلم جاء هنا؟

---

1) فتح الباري: 10/115.

2) انظر ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: 6/333.

3) زاد المعاد:3/181.

قــال: ليجيب عن الشــبهات الــتي امتلأت بهــا نفــوس هــؤلاء المرضى.

سأل بعض الحاضرين هذا العـالم، فقـال: ولكنهم يـروون في هذا أحاديث، وقد عرفناك معظما لها.

قال المحدث: وما يروون؟ إني أتحـدى أي واحـد منهم محـدثا كان أو فقيهـا أن يـأتيني بحـديث واحـد يـبرهن على مـا يأتونـه من الدجل.

ارتعد القلم في يدي، وأنا أسمع تحديه، فتوقفت عن الكتابــة، فقال لي: (ما بالك؟، ألم نتفق على كتابة كل ما يقال؟

قلت: ولكن التحدي صعب.

قال: ولكنا لا نتحدى لنظهر عجـز غيرنـا، وإنمـا نتحـدى لطلب الحق ونصرة الحق، وقد قـال تعـالى متحـديا بـني إسـرئيل: كُـلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا مَـا حَـرَّمَ إِسْـرائيلُ عَلَى نَفْسِـهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (آل عمران:93)

قال أحد الحاضرين: لا.. يا شيخ، فقد رووا في الباب أحاديث.

قال المحدث: فما رووا؟

الحديث الأول:

قال: ما رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن صـفية بنت حـيي زوج النــبي ﷺ قــالت: كــان النــبي ﷺ معتكفــاً، فأتيتــه أزوره ليلاً، فحدثتــه، ثم قمت لأنقلب، فقــام ليقلبــني، وكــان مســكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أســـرعا، فقــال النــبي ﷺ: (على رســلكما، إنهــا صــفية بنت حــيي)، فقــالا: (سبحان الله يا رسول اللـه!) فقـال ﷺ: (إن الشـيطان يجـري من

الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شــراً، أو شيئاً)

فقـد اسـتدل بهـذا الحـديث على قـدرة الجن سـلوك بـدن الإنسان جماعة من العلمـاء منهم القرطـبي في تفسـيره(1)، وابن تيميــة في فتــاواه(2)،وابن حجــر الهيثمي وردَّ بــه على المعتزلــة منكري ذلك(3)، والبقـاعي في تفسـيره(4)، وابن حجـر العسـقلاني في بـذل المـاعون(5)، والعلامـة موفـق الـدين بن عبـد اللطيـف البغدادي(6)، والقاسمي في تفسيره(7) و....

قال المحدث: هذا حديث صـحيح لا شـك فيـه.. ولا علاقـة لـه بهذا.

قال: كيف؟.. وكل هؤلاء استدلوا به.

قال المحدث: أليس معك عقلك.. وهـو لا يختلـف عن عقـول الذين استدلوا به؟

قال: بلى..

قـال المحـدث: لقـد ذكـر النـبي ﷺ أن الشـيطان يجـري من الإنسـان مجـرى الـدم.. فهـل الإنسـان إنسـان مخصـوص، أم كـل الناس؟

1) انظر تفسير القرطبي 2/50.

2) انظر مجموع الفتاوى 24/277

3) انظر الفتاوى الحديثية: 72.

4) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:1/531.

5) بذل الماعون في فضل الطاعون: 83.

6) الطب من الكتاب والسنة: 231.

7) محاسن التأويل 3/360.

قال: بل كل الناس.

قال المحدث: وهل ذلك خاص بوقت من الأوقات؟

قال: نص الحديث يدل على عدم الخصوص.. أي أنه يجري دائما.

قال المحدث: وهل يجوز التخصيص بدون مخصص؟

قال: لا..

قال المحدث: فلم يخصصون المصروع بدخول الشيطان إليه وحده من دون سائر الناس.

قال: فما تقول في هذا الحديث؟

قال المحدث: هذا الحديث يذكر قرب الشيطان من الإنسان وسرعة تأثيره فيه بدليل قوله: (وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً، أو شيئاً)

قال: فأنت تؤول الحديث إذن، أو تنفيه، أو تقول بما قال من استدل بقول الشاعر:

وقد كنت أجري في حشاهن مرة كجري معين الماء في قصب الآس

قال المحدث: أنا لا أقول بكل هذا.. بل إن لي نزعة ظاهرية مع النصوص، ولكني أرفض أن يحمل القائل غير ما أراده، فكيف إذا كان القائل هو المعصوم ﷺ.. ثم لماذا لم يهرع ﷺ لهؤلاء الذي خشي عليهم من الشيطان يرقيهم.. بل اكتفى بما يبعد الوساوس عنهم!؟

الحديث الثاني:

قال آخر: فقد روى ابن ماجه وابن أبي عاصم وغيرهما عن

عثمان بن أبي العـاص قـال: لمـا اسـتعملني رسـول اللـه ﷺ على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصـلي، فلمـا رأيت ذلـك رحلت إلى رسـول اللـه ﷺ، فقـال: ابن العـاص؟ قلت نعم يا رسول الله، قـال: مـا جـاء بـك؟ قلت: يـا رسـول اللـه عرض لي شيء في صـلاتي حـتى مـا أدري مـا أصـلي، قـال: ذاك الشيطان، أدنه، قال: فـدنوت منـه، فجلسـت على صـدور قـدمي، قال: فضرب صدري بيده وتفل في فمي، وقال: اخـرج عـدو اللـه، ففعـل ذلـك ثلاث مـرات، ثم قـال: الحـق بعملـك، فقـال عثمـان: فلعمري ما أحسبه خالطني.

فالحديث صحيح الإسناد، فرجاله ثقات وإسـناده صـحيح، كمـا قال البوصيري(1)، وصححه الحاكم في المسـتدرك، ومحمـد ناصـر الـدين الألبـاني(2)، ودلالـة الحـديث على تلبس الجن بالإنسـان ظـاهرة، فقوله ﷺ: (اخـرج عـدو اللـه) تـدل على وجـود الشـيطان داخل بدن الإنسان، فلذا أَمَرَه ﷺ بالخروج منه.

قال المحدث: مع أن الحديث فيه مقال من جهة السند.

قال: لا.. ليس فيه أي مقال.

قال المحدث: انفراد ابن ماجة به يجعل فيـه ألـف مقـال.. ثم إن صحة السند وحدها لا تكفي.. فقد يكون الحـديث معلـولا.. ومـا فيه من العلل هو الذي صرف كبار المحدثين ممن الـتزموا الصـحة أو الحسن عن قبوله.

قال:.. !؟

قاطعه، وقال: لا.. لن أناقشك في هذا الباب، ولكني أسـألك: لقد مات رسول الله ﷺ كما قـال تعـالى:﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُـونَ﴾ (الزمر:30).. ولا يزال يعترينا ما اعترى هذا الرجل من الوسـاوس

1) مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة:4/36.

2) انظر سلسة الأحاديث الصحيحة:2/273.

في الصلاة.. فلمن نلجأ؟ وهل ترضون أن يتفل هؤلاء الرقاة في أفواهكم ليبعدوا عنكم وساوس الشياطين؟.. ومن من الرقاة يفعل هذا مع أنه هو الوارد عن رسول الله ﷺ على حسب ما تذكرون؟.. وهل انتفت الوساوس عن هذا الرجل بهذا، وصار من الخاشعين.. وبذلك يصير الخشوع شيئا سهلا، لن نحتاج فيه إلى أي مجاهدة، بل يكفي أن يبصق في أفواهنا الصالحون والرقاة لنصير ربانيين خاشعين.. وبذلك نضمن الفردوس الأعلى من غير أ ي مجاهدة.

قال: فما تقول؟

قال المحدث: لقد أخبر القرآن الكريم بأن المحل الذي يوسوس فيه الشيطان هو صدور الناس، كما قال تعالى عنه: ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (الناس:5)، وكما ورد في الحديث: (إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر اللّه خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس)(1)

فلذلك ـ إن صح الحديث ـ فقد زجر رسول الله ﷺ الشيطان عن صدره ليكف عن وسوسته.. ولكن ذلك مرتبط بحالة معينة، وفي وقت معين.. لأن الشيطان لا ييأس من ابن آدم.. وإلا فأجبني: هل صار عثمان بن أبي العاص معصوما بما فعل معه رسول الله ﷺ؟

قال: لم يكن معصوما.. بل إنه وفد على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف.

قال المحدث: فقد أجبتني.. لقد كان ـ كما يقول المؤرخون ـ حدثا، وأسلم عام أسلمت ثقيف، أي في آخر حياة رسول الله ﷺ.. أي أنه ـ بموقفه هذا ولجوئه إلى رسول الله ﷺ لأجل هذا ـ لم يكن يعلم بما حض عليه الشرع في هذا الباب من الاكتفاء بالاستعاذة

1) أخرجه الموصلي.

وذكر الله، كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (لأعراف:201).. وإلا، فكيف لم يصدر هذا من الصحابة الكبار.. بل والصغار !؟

قال: فما تقول في ضرب رسول الله ﷺ يده على صدره.. أليس ذلك من السنة؟

قال المحدث: لا.. لقد نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، فهل كان ذلك من السنة.

قال: تلك معجزة له ﷺ.

قال المحدث: فقد وضع رسول الله ﷺ يده على الجذع لما حن فسكن، وأمسك بلسان بعض المنافقين، ودعا له فأصبح مؤمنا، كما في حديث حرملة بن زيد الأنصاري حين جلس بين يديه، وقال: يا رسول الله، الإيمان هاهنا، وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق هاهنا، ووضع يده على صدره، ولا نذكر الله إلا قليلاً، فسكت رسول الله ﷺ، وردد ذلك حرملة، فأخذ رسول الله ﷺ لسان حرملة، وقال: (اللهم اجعل له لساناً صادقاً وقلباً شاكراً وارزقه حبي وحب من أحبني، وصير أمره إلى خير)، فقال له حرملة: يا رسول الله، إن لي إخواناً منافقين، وكنت رأساً فيهم، أفلا أدلك عليهم، فقال رسول الله: (من جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك، ومن أصر على ذلك فالله أولى به، ولا تخرف على أحد ستر)(1)

الحديث الثالث:

قال آخر: فقد روى أحمد وأبو داود والنسائي والطبراني والحاكم أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من التردي والهدم، والغرق والحريق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن

1) ابن منده وأبو نعيم.

أموت لديغاً)

والحديث صحيح الإسناد، صححه الحـاكم ووافقـه الـذهبي[1]، والألباني[2] وقال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط: وإسناده حسن[3]

قال المحدث: فما موضع الاستدلال في هذا الحديث؟

قال: قوله ﷺ: (أن يتخبطـني الشـيطان عنـد المـوت)، ففيـه دلالة واضحة على المس الحقيقي.. وقد استدل بهذا الحـديث على إثبات صرع الشيطان للإنسان غير واحد من أهل العلم[4].

قـال المحـدث: فهـل كـان ﷺ يخـاف أن يصـيبه الصـرع عنـد الموت، فلهذا استعاذ بالله من ذلك؟

قال: معاذ الله.. فرسول الله ﷺ أعظم شـأنا من أن يتسـلط عليه الشيطان.

قال المحدث: فما وجه استدلالهم بالحديث؟

قال: هم يستدلون بقوله: (يتخبط)

قال المحـدث: ولكن رسـول اللـه ﷺ قـال: (يتخبطـني)، ولم يقل: (يتخبط)، فلم يحرفون الكلم عن مواضعه؟

قـال: لقـد ذكـر رسـول اللـه ﷺ ذلـك لنـذكره نحن.. ومنـه استغفاره ﷺ مع عصمته، ومع أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

---

1) المستدرك 1/713.

2) صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/275.

3) هامش جامع الأصول 4/361.

4) انظر تفسير القرطبي 3/355، فتح القدير للشوكاني 1/295، برهان الشرع ص 129، وحيد الدين بالي: وقايـة الإنسـان من الجن والشـيطان، دار البشـير -القـاهرة- ص 61.

قال المحدث: فلم خص رسول الله ﷺ الموت بالاستعاذة من تخبطه.. وهل يخاف الإنسان على صحته وهو مقبل على الموت؟

قال: فما تقول أنت؟

قال المحدث: التخبـط الـذي يريـده ﷺ في هـذا الحـديث هـو الوساوس التي يلقيها في قلب الإنسان..

قاطعه، وقال: فلماذا لم يستعذ من الوسـاوس مطلقـا.. ولم خص ذلك بالموت؟

قال المحـدث: لأن الشـيطان يـدخر أعظم وساوسـه للحظـة الموت، ولهذا كان ﷺ يسأل الله حسن الخاتمة..

وقد ورد في الحديث أن رسول اللّه ﷺ كان يقول عند النـوم: (باسم اللّه، أعوذ بكلمات اللّه التامـة من غضـبه وعقابـه ومن شـر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون)(1)

قال:..!؟

قال المحدث: وأزيدك شيئا آخر: إن هذا الحديث الذي ذكـرت تصحيحه يفسر معنى التخبط في الآية من غير أن نضطر لتأويلها.

قال: كيف؟

قال المحدث: التخبط لا يعني فقط ما نراه من المصروع من حركات.. بل قد يكون الإنسان هادئا سليم الجسم.. ومع ذلك فإنــه يتخبط من داخله بالوساوس.. وهذا الحديث يشير إلى هذا المعنى.

قال: كيف؟

قال المحدث: لقد ذكر ﷺ التخبـط وربطـه بـالموت، ولا نـرى في العادة المحتضر ـ سواء كـان صـالحا أو غـير صـالح ــ إلا هادئـا

---

1) أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن غريب.

ساكنا لضعفه الشديد عن أي حركة.. فالتخبط في ذلك الحين ليس تخبط الحركات، وإنما تخبط الوساوس.

الحديث الرابع:

قال آخر: فقد روى أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل كبَّر، ثم قال: (سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك)، ثم يقول: الله أكبر كبيراً ثم يقول: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفخه ونفثه)

قال المحدث: فما محل الشاهد من الحديث؟

قال: استعاذته ﷺ من همز الشيطان، فقد قال أهل اللغة: نفثه: الشعر، ونفخه: الكِبر، وهمزه: الموتة، قال ابن الأثير: والموتة: الجنون، لأن المجنون ينخسه الشيطان، والهمز والنخس أخوان(1)، وقال ابن كثير: (فهمزه الموتة، وهو الخنق الذي هو الصرع)(2)

قال المحدث: إن أصل الهمز في اللغة هو الغَمْزُ، والضَّغْطُ، والنَّخْسُ، والدَّفْعُ، والضَّرْبُ، وهذه جميعا فسرت في النصوص بالوساوس، ولا حرج عليها بعد ذلك إذا فعلت ما فعلت في صاحبها المستعد لتقبلها.

ثم هل تتصورون أن رسول الله ﷺ ـ وهو يقوم الليل خاشعا منيبا ـ يلتفت إلى ما تلتفتون إليه من المخاوف؟

الحديث الخامس:

قال الخامس: لقد روى أحمد والطبراني وابن عبد البر

---

1) النهاية في غريب الحديث والأثر 5/273، جامع الأصول 4/186.

2) البداية والنهاية: 1/61.

وغيرهم عن يعلى بن مرة قال: (لقد رأيت من رسول الله ﷺ ثلاثاً ما رآها أحد قبلي ولا يراها أحد بعدي، لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها، فقالت يا رسول الله هذا صبي أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء، يؤخذ في اليوم ما أدري كم مرة، قال: ناولينه، فرفعته إليه، فجعلته بينه وبين واسطة الرَّحل ثم فغر فاه فنفث فيه ثلاثاً، وقال: بسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدو الله، ثم ناولها إياه، فقال: ألقينا في الرجعة في هذا المكان فأخبرينا ما فعل، قال: فذهبنا، ورجعنا، فوجدناها في ذلك المكان معها شياه ثلاث، فقال ﷺ: ما فعل صبيك؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما حسسنا منه شيئاً حتى الساعة، فاجترر هذه الغنم، قال: انزل فخذ منها واحدة ورُدَّ البقية)

والحديث صحيح الإسناد، وقد ذكر الحافظ ابن كثير عدة طرق لهذا الحديث، ثم قال: (فهذه طرق جيدة متعددة، تفيد غلبة الظن أو القطع عند المتبحرين أن يعلى بن مرة حدّث بهذه القصة في الجملة)(1)

قال المحدث: فما وجه الاستدلال بالحديث؟

قال: هذا الحديث هو الحجة الكبرى في هذا الباب، بل هو حديث هذا الباب، ووجه الدلالة في الحديث واضحة، فقول الراوي: (ثم فغر فاه، فنفث فيه ثلاثاً)، ثم قوله ﷺ: (بسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدو الله) دليل على أن الصبي كان يعاني المسّ الشيطاني الذي سبب له بلاء وغماً.

قال المحدث: سنبدأ مناقشة الحديث من مبدئه.. لقد ذكر يعلى بن مرة ثلاثة أمور اختص برؤيتها.. أتستطيع ذكرها لي؟

قال: لقد وردت في الحديث.. أما الأولى، فهي ما ذكره، وأما الثانية، فقال: وخرجت ذات يوم إلى الجنان، حتى إذا أبرز قال:

1) البداية والنهاية: 6/139-140.

(انظر ويحك هل ترى شيئا يواريني؟) قلت: (ما أرى إلا شجرة، مـا أراها تواريك)، قال: (فمـا قربهـا؟) قلت: (شـجرة مثلهـا أو قـريب منهـا) قـال: (اذهب إليهمـا، فقـل أن رسـول اللـه ﷺ يأمركمـا أن تجتمعا بإذن الله)، قـال: فاجتمعتـا، فـبرز لحاجتـه، ثم رجـع، قـال: اذهب إليهما فقل: إن رسول الله ﷺ يأمركما أن ترجع كـل واحـدة منكما إلى مكانها، فرجعت.

قال المحدث: وما الثالثة؟

قال: ما ذكره بقوله: وكنت معه جالسا ذات يوم، إذ جاء جمل يخبب حتى ضرب بجرانه بين يديه، ثم ذرفت عيناه، فقال: (ويحـك انظـر لمن هـذا الجمـل، إن لـه لشـأنا)، فخـرجت ألتمس صـاحبه، فوجدته لرجل من الأنصار، فدعوته إليـه، فقـال: (مـا شـأن جملـك هذا؟) قال: (وما شأنه؟) قال: (لا أدري والله ما شأنه، عملنـا عليـه ونضحنا عليه حـتى عجـز عن السـقاية فأتمرنـا البارحـة أن ننحـره ونقسم لحمه) قال: (لا تفعل، هبه لي، أو بعنيه) قال: (بل هو لك يا رسول الله) قال: فوسمه بميسم الصدقة، ثم بعث به.

وفي رواية أنه قال لصاحب البعير: (البعير يشـكوك زعم أنـك سناته حتى كبر تريد أن تنحره) قال: (صدقت والـذي بعثـك بـالحق قد أردت ذلك والذي بعثك بالحق لا أفعل)

وفي روايـة: (ثم سـرنا ونزلنـا مـنزلا فنـام النـبي ﷺ فجـاءت شـجرة تشـق الأرض حـتى غشـيته، ثم رجعت إلى مكانهـا، فلمـا استيقظ ذكرت له، فقال: (هي شجرة استأذنت ربها عـز وجـل أن تسلم على رسول الله ﷺ فأذن لها)

قال المحدث: أترى كل هذه المعجزات التي ذكرها تمـر على أصحاب رسول الله ﷺ ولا أحد يهتم بها أو يرويها مـا عـدا يعلى بن مـرة، ثم يرويهـا ولا يهتم لهـا التـابعون، ولا من بعـدهم.. ولا أئمـة الحديث الذين التقطوا أقل شيء مما يتعلق بدلائل النبوة..

قال: ولكن السند صحيح؟

قـال المحـدث: ليس كـل سـند صـحيح يقبـل، فلـولا أن في الحديث عللا لـذكره الـذين اهتمـوا بالصـحيح.. ألا تعلم عـدد الـذين رووا نبع الماء بين أصابعه الشريفة؟

قال: بلغوا مبلغ التواتر.

قال المحدث: وأحاديث انشقاق القمر؟

قلت: كذلك.. هي أحاديث متواترة.

قال المحدث: حتى حنين الجذع ــ مـع كونـه أقـل بكثـير ممـا ذكرت ـ إلا أنه روي بالتواتر.

قال: لا يشترط التواتر لصحة الأحاديث.

قال المحدث: أنا لا أشترط التـواتر لصـحة الأحـاديث، ولكـني أعجب أن يمر هذا الحديث على الصـيارفة، ثم لا يروونـه مـع كـون الحاجة إليه ماسة..

قال: ولكن مع ذلك..

قال المحدث: نحن في مدائن السلام نكـره الجـدل.. فلـذلك سأسلم لك جدلا بأن الحديث صحيح ومقبول، بل ومتـواتر.. في أي محل يـورد هـذا الحـديث: هـل في بـاب دلائـل النبـوة أم في بـاب الرقى؟

قال: هم يوردونه في باب الدلائل.

قال المحـدث: ولمـاذا يطبقونـه في بـاب الـرقى.. أيزعمـون لأنفسهم ما كان لرسول الله ﷺ من النبوة؟

قال: حاشا لله.

قال المحدث: فهل قال رسول الله ﷺ: (إذا رأيتم صبيا حصل له ما حصل لهذا، فافعلوا مثلما فعلت)؟

قال: لا يشترط أن يقول هذا.

قال المحدث: ولكنه قال مثله في الصلاة والحج.. طلب منهم أن يقلدوه في أفعاله.

قال:....!؟

قال المحدث: لا بأس.. سأسلم جدلا بأن هذا من السنة الـتي يمكن العمل بها.. ما فعل رسول الله ﷺ مع الصبي؟

قال: فغر فاه فنفث فيه ثلاثاً، وقال: بسم الله، أنـا عبـد اللـه، اخسأ عدو الله، ثم ناولها إياه.

قال المحدث: أهذا كل ما فعله؟

قال: هذا ما ورد به النص.

قـال المحـدث: فكيـف عـرف رسـول اللـه ﷺ أن مـا بـه من الشيطان؟

قال: هو رسول الله، فكيف لا يعرف؟

قال المحدث: فهل رقاتكم رسل لله يمـيزون بين الشـياطين وغيرهم؟

قال:....!؟

قال المحدث: فهل حـاور رسـول اللـه ﷺ هـذا الشـيطان!؟.. وهل دعاه إلى الإسلام!؟.. وهل أجرى مسامرة معه كالمسـامرات التي تجرونها!؟

قــال: هم يســتدلون بهــذا على جــواز اســتعمار الشــيطان

للإنسان.

قال المحدث: لقد قال ﷺ في الحديث: اخسأ عدو الله.. فمن قال بأن هذا العدو هو الشيطان، ومن قال بأن (اخسأ) تدل على الدخول.

قال: يمكن أن يقال ذلك.

قال المحدث: لا بأس.. سأسلم جدلا بصحة ذلك.. لقد تفل رسول الله ﷺ في عيون بعض الصحابة فبرئت، فلماذا لا تفتحون عيادات للعيون يعالج بها رقاتكم العيون المريضة بالبصاق؟

قال: ولكن ذلك من دلائل النبوة.. لا من الرقية.

قال المحدث: ولكن كلا الحديثين يوضعان في دلائل النبوة.. فكيف جوزتم العمل بأحدهما وخصصتم الآخر؟

قال:....!؟

قال المحدث: الصحابة المنتجبون أحيوا سنة رسول الله ﷺ.. فمن من الصحابة فتح عيادة يخرج فيها الجان؟

قال: لا يشترط أن يذكر هذا.

قال المحدث: أنتم تشترطونه، فمع أنه ﷺ قال: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)(1)، وظاهر الحديث يدل على جواز القراءة جماعة إلا أنكم تنكرون العمل بذلك، بل وتعتبرونه بدعة بحجة أنه لم يؤثر عن السلف العمل به.

سكت قليلا، ثم قال: فماذا تقول أنت في هذا الحديث؟

1) أبو داود.

قال المحدث: أنا يراودني شك كبير في مدى صحة الحديث.. بل إن فيه من الغرابة ما يحيل صحته، فرسول الله ﷺ الذي لم ترو عنه الخوارق إلا في مواضع محددة، وللمصلحة العامة تتحرك له الأشجار لأجل ستره في قضاء الحاجة.. ثم لا يكون هو الآمر، بل يكلف صاحبه بأن يأمر الأشجار بالتقدم والتأخر!؟

ورسول الله ﷺ الذي قال له ربه: ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:90)، وقال له: ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (الشورى:23) كيف يقبل من المرأة عرضها عليه ما عرضت.

وما لم أستطع فهمه هو البعير الذي لا يشكو المجاعة، ولكن يشكو هم أهله بذبحه، ونهيه لهم ﷺ عن ذبحه.. أذبح البعير بعد انتهاء العمل به جريمة؟.. أو من السنة أن لا يذبح، وماذا يفعل به في ذلك الحين؟

قال:....!؟

قال المحدث: أتدري ما الذي رغب رواتكم في هذا الحديث.. فحفظوه عن ظهر قلب؟

قال: ما هو؟

قال: قول المرأة، وهي تشير إلى غنمها: (انزل فخذ منها واحدة، ورُدَّ البقية)(1).. فلولا هذا الكلمة ما عبئوا بالحديث كما لم يعبأوا بغيره.

العلم:

تركنا المحدث مع المرضى يناقشهم ويناقشونه.. وسرت مع المعلم إلى محل آخر لعلاج هؤلاء المرضى الذين تلاعب بهم

(1) وفي رواية:: فبرأ، فأهدت له كبشين وشيئا من إقط وسمن، فقال رسول الله ﷺ:(يا يعلى خذ الإقط والسمن، وخذ أحد الكبشين ورد عليها الآخر)

الرقاة، قلت للمعلم: إلى أين نذهب الآن؟

قال: إلى الخبراء.. ألم يدعنا رسول الله ﷺ إلى مراجعة الأطباء في حال المرض؟

قلت: بلى..

قال: فهؤلاء الأطباء والخبراء الذين شرحوا الإنسان عضوا، وعرفوا وظائف أعضائه عضوا عضوا لا يصح أن نعزلهم.

قلت: ولكن هؤلاء الرقاة يعزلونهم.

قال: لولا جهلهم ما عزلوهم.. فلا يعرف أهل الفضل إلا أهل الفضل.

قلت: ولكني أرى أنهم في بعض الأحيان قد يتعاونون.

قال: كيف!؟

قلت: الأطباء يرسلون المرضى إلى الرقاة، والرقاة يرسلون بعض من يأتيهم للأطباء.

قال: تلك تجارة محرمة.. فلا تحل التجارة في بني آدم.

دخلنا القاعة، رأينا فيها مرضى وأطباء، والمرضى يسألون، والأطباء يجيبون، اقتربنا من بعض الأطباء[1]، فسمعنا هذا الحديث:

قال بعض المرضى: هل يسبب الشيطان المرض النفسي؟

قال الطبيب: بحكم عملي في الطب النفسي فإن نسبة لا تقل عن 70 بالمائة من المرضى يذهبون في البداية إلى المعالجين الشعبين أو المشعوذين قبل أن يفكروا في زيارة الطبيب النفسي.

---

1) انظر: أضواء على بعض الجوانب الخفية للأمراض النفسية: المرض النفسي وأعمال الشيطان، د0لطفي الشربيني، استشاري الطب النفسي.

ورغم أنه لا يوجد دليل واحد على علاقة الشيطان بالأمراض النفسية فإن بعضا من المتعلمين إلى جانب البسطاء لا يستطيع فهم الحقائق العلمية التي تؤكد أن غالبية الأمراض النفسية الرئيسية قد تم التوصل إلى معرفة أسبابها، وأنها نتيجة تغيرات كيميائية في الجهاز العصبي يمكن علاجها عن طريق تعديل الخلل الذي يعاني منه المريض باستخدام الأدوية النفسية الحديثة.

قال مريض آخر: إن سلوك الجن في بدن الإنسان وصرعه له ونطقه على لسان المصروع أمر مشاهد محسوس، تكاد حوادثه تقع في كل عصر ومصر، ويعد منكره معانداً مكابراً للمشاهدة والمحسوس، وأخبار ذلك كثيرة جداً، شاهدها ورواها العلماء الثقات المشهورون بعلمهم وتقواهم، مما يوجب معه القطع بهذا الاعتقاد.

قال الطبيب، وكأنه لم يلتفت لما قال، أو لم يفهم ما قال: من الحالات الغريبة التي يتناقل الناس الحديث حولها في المجتمعات العربية حالات لمرضى يغيبون عن الوعي ويبدأ الشيطان أو الجن في الحديث من داخلهم !!! فالكلام يصدر عنهم لكنه بنبرات وأسلوب يختلف عن طريقتهم المعتادة في الحديث، والكل هنا يؤكد أن المتحدث هو المخلوق الغريب بداخلهم، وربما يذكر هذا المتحدث اسمه وديانته والمكان الذي حضر منه، فهناك الجن الكافر، وهناك الشيطان الصغير، والفتاة المثقفة، والمرأة التي تبدي رغبتها في الزواج من المريض، أو الرجل الذي يؤكد أن يحب ضحيته ولن يتركها، وكل هذه نماذج من الشياطين الذين يتحاورون مع المحيطين بالمريض، وكثيرا ما يقدم الواحد منهم بعض المطالب حتى يتخلى عن المهمة التي يقوم بها مع هذا المريض ويتركه وشأنه.

قال آخر: هذا صحيح.. وقد روى عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قلت لأبي: إن قوماً يقولون: إن الجن لا يدخل في بدن

المصـروع من الإنس، فقـال: يـا بـني يكـذبون، وهـو ذا يتكلم على لسانه)(1)

وقال ابن تيمية: (إن دخول الجـني بـدن الإنس، وتكلمـه على لسـانه بـأنواع الكلام وغـير ذلـك أمـر قـد علمـه كثـير من النـاس بالضرورة)(2)

قال آخر: بل قـد عـالج ابن تيميـة الإنسـان المصـروع بسـبب الجني مرات كثيرة، وحـدَّث عن نفسـه في ذلـك فقـال: (كمـا قـد فعلنا نحن هذا، وجربناه مرات كثيرة يطـول وصـفها بحضـرة خلـق كثيرين)(3)

وقد ذكر مقالة أحمد في الـرد على استفسـار ابنـه، ثم قـال: (وهذا الذي قاله أمر مشهود، فإنه يصرع الرجـل، فيتكلم بلسـان لا يُعرف معناه، ويُضرب على بدنه ضرباً عظيمـاً لـو ضُـرب بـه جمـل لأثر به أثراً عظيماً، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ولا بـالكلام الذي يقوله)(4)

قال آخر: ومن أدلة الحس والمشاهدة على دخول الجن بـدن الإنسـان وتسـببه لـه بالصـرع ونحـوه من الأمـراض أن كثـيراً من العلماء والمشايخ المعاصرين المشهورين قـاموا بمعالجـة مرضـى المس الشـيطاني بـالطرق الشـرعية، ومنهـا قـراءة القـرآن على المصروع، ومن هؤلاء الشيخ أحمد القطان(5)، والشيخ عبـد العزيـز

---

1) مجموع الفتاوى: 19/12، 24/277.

2) الرد على المنطقيين ص 407.

3) مجموع الفتاوى: 19/60.

4) مجموع الفتاوى: 24/277.

5) انظر تجاربه حكاية عنه: مجدي محمد الشهاوي: العلاج الربـاني للسـحر والمس الشيطاني، مكتبة القرآن -مصر- ص 63-66.

بن باز مفتي السعودية(1)، والشيخ محمد الصايم(2)، والشيخ وحيد الدين بالي(3).. وغيرهم كثير.

واصل الطبيب حديثه دون أن يلتفت لهم: هذا الكلام مؤكد وتسمعه من مصادر كثيرة لدرجة أن بعض الناس يقول لك: إن لديه تسجيلات لهذه الوقائع بصوت الشيطان نفسه حتى يصدق الجميع ذلك.

خشيت أن يتدخل المرضى ليغيروا مجرى الحديث، فصحت: فما تفسير هذا من وجهة نظر الطب النفسي؟

التفت إلي، وقال: الواقع أنني شخصيا قد استمعت إلى مثل هذه الأشياء في حياتي العملية عدة مرات، لكن هذه الحالة أيضا لا علاقة لها بالشيطان نهائيا، والمتحدث هنا هو المريض النفسي.

قلت: كيف هذا؟

قال: هي في حالة نطلق عليها التحول الهستيري يغيب فيها عن الوعي مؤقتا، وتظهر بعض محتويات عقله الباطن، فيقوم بالتنفيس عن بعض رغباته المكبوتة، ويهرب من الواقع والضغوط التي لا يحتملها، فيتصور الجميع أن بداخله شيطان يتكلم، وهذه الحالات لا تحتاج إلى الذهاب إلى الدجالين، أو ضرب المريض بقسوة لإخراج الجن، كل ما في الأمر هو تهدئة المريض وبحث حالته النفسية والتعامل مع الضغوط التي يتعرض لها، وهنا تتحسن الحالة دون تعامل مع الشيطان.

قال أحد المرضى، وكأنه يصف حالته: والأصوات، والخيالات والوساوس أأمراض هي أم مس شياطني!؟

1) انظر مجموع فتاوى ومقالات متنوعة 3/299.

2) انظر تجاربه في كتابيه: المنقذ القرآني لإبطال السحر وعلاج المس الشيطاني، حوار مع الشياطين وتجربتي العملية في إخراج الجان وإبطال السحر.

3) انظر تجاربه في كتابه: وقاية الإنسان من الجن والشيطان.

قال: مرض الوسواس القهري هو أحد الأمراض النفسية الشائعة بصورة لم نكن نحيط بها من قبل، حيث اعتقد الأطباء النفسيون أنه من الحالات النادرة لكن الدراسات الحديثة تؤكد أنه يصيب 3 بالمائة من الناس.. وقد ارتبط هذا المرض في الأذهان بوساوس الشياطين بسبب التشابه بين مسمى (الوسواس القهري) ووصف الشيطان بالوسواس الخناس الذي ورد في القرآن الكريم، لكن إذا علمنا أن الوسواس القهري قد أصبح من الأمراض التي تم كشف النقاب عن الكثير من أسرارها، وأن هذه الحالات لها علاقة ببعض المواد الكيميائية في المخ مثل مادة (السروتونين) التي يتسبب اختلالها في أعراض الوسواس القهري، وهي تشمل أعراضا كثيرة.

قلت: مثل ماذا؟

قال: مثل أعمال وسواسية في صورة تكرار أفعال وطقوس لا معني لها، مثل غسل الأيدي أو الطهارة عند ملامسة أي شيء، أو التمتمة بكلمات، أو أعداد معينة قبل بدء أي عمل، أو إعادة الوضوء عدة مرات قبل الصلاة.

قال أحد المرضى: أنا مريض بهذه الحالة، وقد اكتشف الراقي أن سبب ما أصابني جن خطير لم يكشف عن اسمه.

قال الطبيب مازحا: قل لراقيك لقد عرفته إنه (السروتونين)، فغيابه هو الذي سبب لك ما سبب.

قلت: اذكر لنا أمثلة أخرى على هذا؟

قال: من أمثلتها الأفكار الوسواسية، كالانشغال والاستغراق في التفكير في موضوعات تافهة وقضايا لا حل لها مثل مسألة البيضة والدجاجة ومن الذي أتى أولا؟ أو البحث في شكل الشيطان وماذا يأكل وكيف يعيش؟ أو أفكار دينية لا معني لها تشغل التفكير وتعوق الشخص عن مزاولة حياته..

ومن أمثلتهـا: مخـاوف وسواسـية لا أسـاس لهـا من أشـياء ليست مصدر خوف على الإطلاق.

قلت: فكيف يتعامل الطب النفسي مع هذه الحالات؟

قال: الطب النفسي بتعامل حاليـا مـع هـذه الحـالات بـالعلاج الدوائي الـذي يعيـد الاتـزان النفسـي ونسـبة الشـفاء عاليـة حاليـا باستخدام أجيـال الأدويـة الحديثـة، ولا علاقـة للشـيطان بكـل هـذه الوساوس المرضية.

قـال بعض المرضـى: ولكـني أرى أشـباحا، وأسـمع أصـواتا تتحاور معي، بل وتهددني أو تأمر بأن يفعل أشياء معينة.

قلت: فماذا قال لك الرقاة؟

قال: وهل هناك غير المردة من العفاريت؟

قلت: فما فعلوا؟

قال: ظلـوا يرقونـني إلى أن نفـذ مـا في جيـبي، فطـردوني، وقالوا: جنك طيار، لا نقدر على إمساكه.

قلت للطبيب: بم تفسر هذا؟

قال الطـبيب: من جهـة نظـر الطب النفسـي هـذا يرجـع إلى وجود خلل في جهاز الاستقبال لدى المريض، يجعله يستقبل صورا وأصواتا لا وجود لها، وهذه الحـالات أيضـا تتحسـن بـالعلاج بالأدويـة الحديثة، ولا دخل للشيطان في هـذه الأعـراض النفسـية المرضـية التي تحدث في مرضى الفصام والأمراض العقلية الذهنية.

***

انتقلنا إلى محل آخر من القاعة، اجتمع فيه مجموعة مرضى مع طبيب، يتحدثون عن مرض الصرع وعلاقته بمس الشيطان.

قال الطبيب: يعتبر الصرع من أكثر الأمراض العصبية انتشـارا حيث يصيب 1 بالمائـة من الصـغار والكبـار، ومن أعراضـه حـدوث نوبات غيـاب عن الـوعي قـد تكـون شـديدة أو خفيفـة، وفي حالـة النوبة الكبرى يسقط المريض على الأرض في حالة تشنج يهتز لهـا كل جسده ويغيب عن الـوعي نهائيـا ولا يفيـق الا بعـد مـرور وقت طويل، وتتكرر هذه النوبات في أي وقت وأي مكان.

قلت: نعرف هذا، فما تفسيره من وجهة نظركم؟

قال: لقد ظل مرض الصـرع موضـوعا للكثـير من الخرافـات والأوهام وتعرض المرضى لكثير من الممارسات غـير الطبيـة ظنـا من الناس أن الأرواح والشياطين وراء حدوثـه حـتى كشـف الطب الحديث حقيقة هذا المرض.. فقـد تـبين من خلال الأبحـاث الطبيـة أنه نتيجة لخلل في موجات المخ الكهربائيـة نتيجـة شـحنات زائـدة من بؤرة نشطة تسبب إثارة الخلايا العصبية وتحـدث النوبـة نتيجـة لذلك.

قلت: أهـذا افـتراض افترضـه الأطبـاء ليهربـوا من التفسـير الغيبي، أم هو حقيقة علمية دلت عليها التجارب؟

قال: إن العلم الحديث يؤكد هـذا المعـنى الـذي ذكرتـه، فقـد ذكر أن كلمة صرع لا تعـني شـيئا سـوى القابليـة للتعـرض لنوبـات تشنّج متكرّرة، وهو يتم على مستوى الدماغ الـذي يتحكم بحركاتنـا وأحاسيسنا وأفكارنا وعواطفنا، فهو مقر الذاكرة، وهو الـذي يقـوم بتنظيم الأعمـال الداخليـة اللاإراديـة في الجسـم كوظـائف القلب والرئتين.. وتعمل خلايا الدماغ معا وتتصل ببعض من خلال إشارات كهربائية.. وفي بعض الأحيان يكون هناك تفريغ كهربائي غير عـادي في مجموعة من الخلايا وتكون نتيجة ذلك حدوث النوبـة، ويتوقـف نوع النوبة على جزء الدماغ الـذي حصـل فيـه التفريـغ الكهربـائي، الجزئي غير العادي.

قلت: لا أقصد هذا.. أقصد هل يمكن كشف هذا بالأجهزة كما تكشفون الأمراض بالأشعة وغيرها؟

قال: أجل.. ويمكن كشف ذلك ببساطة حاليا عن طريق جهاز رسم المخ EEG الذي يلتقط هذه الإشارات، ويحدد شدتها ومكانها.

قلت: لقد عرفتم الحقيقة.. ولكن العلاج بقي غائبا.

قال: إن الأبحاث جارية في هذا الموضوع.. والعلم الحديث يقترب يوما بعد يوم من علاج هذا النوع من الأمراض، وقد ورد في بعض الدراسات العلمية تحت عنوان: (دور الغذاء الكيتونى(1) فى علاج الصرع المستعصى) بأن دراسات عديدة سريريه أظهرت أن من 41 بالمائة - 95 بالمائة من الأطفال الذين عولجوا بهذا الغذاء تحسنت نسبة الصرع لديهم بنسبة أكثر من 50 بالمائة هذا فيما بين عامي 1920 و1930 م، ولكن بعد ظهور دواء الفينوتوين قل وغيره استعمال الغذاء واعتمد الأطباء على أدوية الصرع.

ثم عاد الاهتمام بهذا النوع من العلاج - أى (الغذاء الكيتونى) - في السنوات الأخيرة ففي عام 1998م أجريت دراسة على مراكز متعددة لمئة وخمسين طفلاً يعانون من الصرع المستعصي وعولجوا بالغذاء الكيتونى وقلت لديهم التشنجات، وثبت أن الغذاء الكيتونى عندما يستعمل بطريقة صحيحة فإن له تأثير جيدا على نسبة تحسن التشنجات)

التفت إلي المعلم ضاحكا، وقال: لعل هذا النوع من الغذاء رشوة جيدة للجن تكف شره عن الصبيان.

قلت: هو على كل حال أفضل من الملح أو الضرب الذي

---

1) هذا الغذاء محسوب بدقة ومصمم بطريقة معينة وموزونة وهو يتكون من: أربعة أجزاء من الدهون (زبدة ، قشطة، زيوت نباتية)، جزء واحد بروتين وكربوهيرات (لحم أو فول +أرز أو بطاطس). سعرات حرارية محددة حسب حاجة المريض ووزنه ويقصد بها زيادة أو نقص الوزن حتى يصل المريض إلى الوزن النموذجى لعمره. فيتامينات وأملاح معدنية مضافة حتى يتجنب المريض فقدان هذه العناصر الهامة والإصابة بنقص الفيتامينات أو الملاح.

يقدمه الرقاة لهم.

قال الطبيب: يجتهد العلم الحديث الآن في السيطرة على نوبات الصرع، فمعظم النوبات الصرعية تخف نتيجة استعمال الأدوية المقاومة للصرع، فحوالي (50) بالمائة من الذين يتناولون هذه الأدوية تنتهي النوبات لديهم وحوالي (30) بالمائة منهم تقلّ درجة تكرارها لديهم لدرجة يمكنهم معها العيش والعمل بشكل اعتيادي، أما الـ (20) بالمائة المتبقية فهي إما حالات مستعصية للعلاج، أو أنها بحاجة إلى جرعات أكبر للسيطرة على النوبات.

بالإضافة إلى أن هناك الحل الجراحي، ويتم اللجوء إليه عندما يفشل العلاج الدوائي، وفي نسبة قليلة جدا من الحالات التي يتحدد فيها الجزء الدماغي المصاب والمسبب للنوبات وتكون إزالته مأمونة، وبدون أن تترك خللاً أو ضرراً بوظائف المخ.

العلاج البديل:

خرجنا من تلك القاعة، وقد تركنا المرضى مع الأطباء يفسرون لهم، ويحاولون إقناعهم، وهم يجهدون أنفسهم في ذلك جهدا عظيما، فالمسألة قد تغلغلت في قلوب وعقول المرضى، بل ربطت في أذهانهم بقضايا الإيمان والكفر، والسنة والبدعة[1]،

---

1) أول ما يفاجئك به من يتحدث عن هذه المسألة هو ربطها بالسنة وربط خلافها بالبدعة، فهذا أحدهم يقول في الموقع الذي خصصه لذلك:(فعلى من يُنكر دخول الجني بدن الإنسي أن يلجم فاه عن الإنكار والاستنكار ومخالفة أئمة أهل السنة والجماعة، وأن لا يشوش أفكار المسلمين بأفكاره الملوثة بأفكار أهل البدع والفلسفة، فإن قال: هذا رأي، فإن الرأي يحتمل الخطأ والصواب، فما تراه صوابا فإنه يحتمل الخطأ وما تراه خطأ فإنه يحتمل الصواب، ولعله يأتي اليوم الذي يتحول فيه رأيك إلى رأي غيرك... وإن العاقل إذا سمع أمرا عجبا جائزا لا دليل من الشرع ينفيه، استحسنه ولم يكذب قائله، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله، وتزييف ناقله.

جَهلتَ ولا تدري بأنك جاهلٌ ومن لي بأن تدري بأنك لا تدري

ثم يقول:(ولعل السبب في إنكار البعض لدخول الجان بدن الإنسان هو إتباع الهوى، والجهل وقلة العلم في أحوال الجن والشياطين، وتحجر العقول وإتباع منهج ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: 29] ، وكذلك إبراز الشخصية وإتباع منهج خالف تعرف، وأيضا حسد طلبة العلم والأطباء الرقاة على ما آتاهم الله من فضله)

فكان من الصعب اقتلاعها.

قلت: يا معلم.. قدرت هذا الجهد الذي يبذله هذا الحصـن في وقاية الناس من هذه الشعوذة.. ولكنها على أي حال خففت على الناس كثيرا مما يعانونه.. أليس من الأجدى ألا نترك المرضى أسارى مرضهم؟

قال: بالصدق لا بالكذب.. وبالشرع لا بالدجل.. وبالحقائق لا بالأباطيل.

قلت: فهل يضع هذا المستشفى هذا الحق الذي يواجه به الباطل.. وهل يضع البديل الذي يقي الناس شرور هؤلاء الرقاة؟

قال: أجل.. فلا ينبغي لمن نهاك عن شيء أن يتركك تعاني الحيرة.. بل إنه يعطيك من الحلول والبدائل ما يريحك، ويملأ الفراغ الذي تركه نهيه.

قلت: فأين هذا البديل؟

قال: هيا إلى القاعة المخصصة لذلك، فهي آخر قاعات هذا الحصن.

قلت: ولم لم يبدأ المرضى بها؟

قال: لا.. ألم يكن رسول الله ﷺ يفرغ أصحابه من تصورات الجاهلية، ثم يملؤهم بحقائق الإسلام؟

قلت: أجل.

قال: أتدري لماذا؟

قلت: حتى لا يختلط الإسلام بالجاهلية.

قال: فلهذا لا يصفون العلاج البديل إلا بعد أن يملأوا قلوب المرضى وعقولهم بالقناعات الصحيحة.

اقتربنا من قاعـة مهيبـة كـانت تمتلئ بـأنوار الإيمـان، سـألت المعلم عنها، فقال: هذه القاعة هي التي يعطى فيه المصـل الـذي يحمي من وسـاوس الشـياطين، ومن آثـار الـدجل الـذي يزرعـه الرقاة.

رأيت شخصا مهيبـا.. يبـدو كأولئـك الأوليـاء الصـالحين الـذين غمروا الكون بعطرهم.

قلت: من هذا؟

قال: هذا نموذج الراقي البـديل، وقـد دربـه هـذا المستشـفى ليميت هذه البدعة.

قلت: راق بديل.

قال: نعم.. من باب المشاكلة سميناه كذلك.

قلت: فما دوره؟

قال: يبدأ دوره بنفسه.. يربيها ويطهرهـا ويعمـق فيهـا حقـائق الإيمان.. ولا يكتفى بذلك، بل يضيف إليه من العلم ما يجعلـه فطنـا يعرف كيف يواجه الأمور وكيف يتحدى الصعاب.. فـإذا آنسـت منـه إدارة المستشـفى القـدرة على ممارسـة هـذه الوظيفـة أعطتـه الإجازة بذلك.

قلت: وما هو دوره؟

قـال: بسـيط جـدا، وعميـق جـدا.. أمـا الأمـراض الجسـدية، فيرشد أهلها إلى الأطباء، أما الوساوس الشيطانية، فيضـع لهـا من برامج التربية ما يقهر كل وسواس.

قلت: إذن هو لا يعالج في جلسة واحدة؟

قال: لا.. هو يقنع مرضـاه بالبرنـامج المعطى لهم.. ولا يكتفي

بذلك، بل يتابعهم إلى أن يرى مدى جدوى استفادتهم.

قلت: إذن هو يحصل على أجور لا بأس بها.

قال: تشترط إدارة مستشفى السلام فيمن يتولى هذا الزهد والعفاف.

قلت: لم؟.. هو ينفع الناس ويقدم لهم خدمات.

قال: لأن المال يجر المغرضين.. أما الزهد والعفاف، فلا يبقي غير المخلصين.

قلت: ولكن رسول الله ﷺ قال: (إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله)(1)

قال: ذلك في موضع مخصوص، لا يصح القياس عليه.

قلت: فبم يبدأ البرنامج التربوي الذي يمارسه هذا الراقي؟

قال: بربطهم بالله.. واسمع إلى هذا الراقي، وهو يخاطب مرضاه.

اجتمع المرضى حول ذلك الراقي، فراح يخاطبهم بقوله:.. أول ما يطهرنا به القرآن الكريم من الانحرافات العقدية المرتبطة بالعوالم الغيبية حصر تدبير الكون في الله تعالى إجمالا وتفصيلا، فالله تعالى هو المتصرف الواحد في الكون لا ينازع في تصريفه، فهو الذي يرسل الرياح وينزل المطر ويحيي ويميت ويخفض ويرفع ويبسط ويقبض ويعطي ويمنع وكل ما حدث في الكون أو يحدث فبإذنه وتقديره وتصريفه وفعله، فالله في القرآن الكريم ليس منعزلا كإله أرسطو المنشغل بكماله عن غيره، وليس كآلهة اليونان المنعزلة في جبال الألب، بل هو متصرف حاضر ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ

1) البخاري.

ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (المجادلة:7)

قلت: يشير إلى كل هذه المعاني اسـمه تعـالى[القيـوم]،فهـو القائم بنفسه المقيم لغيره، فلا قيام لشيء إلا بإقامته تعالى.

قال: ولأجل هذا كانت آية الكرسـي من الآيـات الـتي ورد في الأحـاديث اعتبارهـا من الاسـتعاذات النافعـة لمـا تحتـوي عليـه من التنبيه لقيومية الله تعالى لكل شيء فهـو اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلَّا بِإِذْنِـهِ يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَـا شَـاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (البقرة:255)

قال الراقي، وكأنه كان يسمعنا: فالتالي لهذه الآية المستغرق في معانيها يرى كل شيء من العـرش إلى الفـرش لا يملـك شـيئا ولا يقد ر على شيء ويحتاج إلى الله في كل شيء، وهو ما يشـعر الضعيف بالقوة والذليل بالعزة والمريض بالشفاء، لأن الله تعالى لا يغفل عن حاله، فهو لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو تعالى الـذي حفـظ السـماوات والأرض ولم يـؤده حفظهمـا لن يعجـزه من شـيء في الأرض ولا في السـماء، ثم تنفي عن الاتصـال باللـه كـل الوسـائط والشفعاء الذين كانوا في جميع الديانات الحجب بين اللـه وعبـاده، ولذلك لن يحتاج المستغرق في هذه الآيـة إلى السـعي للبحث عن أي وسيط لأن الله تعالى أقرب إليه من الوسيط.

قلت: ما شاء الله.. أظن هذا وحده يكفي علاجا لكل داء.

صاح أحد المرضى: والجن.. والعفاريت.. والشـياطين.. أليس لهم تأثير؟

قال الراقي: الجن والشياطين أضعف شـأنا من أن يتسـلطوا على حياة النـاس ويوجهوهـا حيث شـاءوا، فليس لهم أي سـلطان

على الإنســان، وليس لهم إلا بعض الطاقــات المحــدودة بحــدود طبيعتهم وجبلتهم، فلكل شيء في الكون طبيعته وطاقاته الخاصـة به.

ولهذا ورد في أكثر آيات القرآن الكريم الإخبار عن عجز الجن وعدم تسلطهم على بـني آدم إلا لمن تعـرض لهم،كمـا أن الطاقـة الكهربائية لا سلطان لها إلا على من مد يده إليها.

ويبرز ذلك واضحا فيما يسمى بخطبـة الشـيطان الـتي يلقيهـا على أهل النار يوم القيامـة لينفي عن نفسـه اللـوم ويـبين علاقتـه بالبشر والسلطات الوحيـدة الـتي مكن منهـا، قـال تعـالى: وَقَـالَ الشَّـيْطَانُ لَمَّا قُضِـيَ الْأَمْـرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَـدَكُمْ وَعْـدَ الْحَـقِّ وَوَعَـدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَـوْتُكُمْ فَاسْـتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْـرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَـا أَشْـرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْـلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ (ابراهيم:22)

فالشـيطان يتجلى في هـذه الآيـة بمظهـره الحقيقي مظهـر الضعيف العاجز الذي نفخ فيه البشـر وألبسـوه من ثيـاب العظمـة والكبرياء ووهبوه من أسباب التسلط ما يزاحم به الألوهية.

صحت: ما سبب هذه النظرة التي جعلت للشيطان كـل تلـك السلطات؟

قال: التصور الوثني..

قلت: التصور الوثني!؟

قال: أجل.. فهو الذي يجعـل من الشـيطان إلهـا قائمـا بذاتـه يتحدى الله سبحانه وتعالى مع أنه ليس إلا جنديا بسيطا ومتواضــعا من جنود الله خلقه الله ليقوم بعكس الدور الذي تقوم به الملائكة، فهـو لا يتحـدى الألوهيـة وإنمـا يطبـق إرادتهـا وينفـذ مشـيئتها ليتم

الاختبار.

قلت: ما هذا القول الخطير؟

قال: كونه جنديا لله لا يحمل أي صفة مدح، لأن كل شيء جندي لله يفعل ما يراد منه وقد يذم على فعله أو يحمد وقد يعاقب أو يجازى ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (الفتح: 7)﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾(المدثر:31)

قلت: فتعظيم الشيطان نوع من الشرك إذن؟

قال: أجل.. ولهذا اعتبر القرآن الكريم من أعطوا الجن من السلطات ما ليس لهم أو وضعوهم كمدبرين ومؤثرين بذواتهم في الكون مشركين بذلك التعظيم، قال تعالى:﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنعام:100)

وقد أخبرت الملائكة ـ عليهم السلام ــ أن أكثر البشر كانوا يعبدون الجن ويشركونهم بالله، ومن أساليب العبودية التعظيم والخوف والذي لا يقتصر على المشركين من عرب الجاهلية فقط، قال تعالى:﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبأ:41)

صاح مريض آخر: يا حكيم.. فهمنا ما قلت.. ولكن لم سلط الله علينا الشياطين يسوموننا الخسف.. ويضطرونا إلى هؤلاء المشعوذين؟

قال الراقي: إن تأثير الجن على الإنسان بحسب قابليته واستعداده، وتلك القابلية تتجلى في الشعور بالضعف والقصور أمامه، ولهذا كان الرهق وهو كل معاناة وأذى بسبب الخوف من الجن أو الالتجاء إليه أو الشعور بقوة تأثيره، قال تعالى على لسان الجن:﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ

رَهَقاً﴾ (الجـن: 6)

ولهذا جاءت الآيـات الكثـيرة تخـبر عن عـدم تسـلط الجن أو الشــياطين على المؤمــنين الــذين يتوكلــون على ربهم ويلــوذون بحفظـه، قـال تعـالى:﴿ إِنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر:42)، وقال تعالى:﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل:99)، وقـال تعـالى:﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُـؤْمِنُ بِـالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُـوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (سـبأ:21)

وقـد حكي عن بعض الصـالحين أنـه قـال لتلميـذه: مـا تصـنع بالشيطان إذا سول لك الخطايـا؟ قـال: أجاهـده. قـال: فـإن عـاد؟ قال:أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: هذا يطـول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع؟ قال: أكابــده وأرده جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن اسـتغث بصـاحب الغنم يكفه عنك.

قلت: ألهــذا ورد النهي عن تعظيم الشــيطان والجن بنســبة المصائب والنكبات إليها؟

قال الراقي: أجل.. لأن ذلك مما يعظمهـا في نفس الإنسـان، وكلما عظم الإنسان شيئا كلما أزال من نفسه من الشعور بعظمـة الله بحسبه فنهى النبي ﷺ عن كل مظهر ينم عن هذا التعظيم ولو كان في صيغة سب، قـال بعض الصـحابة : (كنت رديـف النـبي ﷺ فعثرت دابة فقلت: تعس الشيطان، فقال: لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكـون مثـل الـبيت ويقـول: بقـوتي ولكن، قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حـتى يكـون مثـل الذباب)(1)

فالنبي ﷺ نهاه أن يعظم الشيطان ولو بنسبة تعثر الدابة إليه،

1) أبو داود وغيره.

فكيف بمن يجعله متصرفا كليا وحيدا في حياة الناس؟

***

تركنـا ذلـك الحصـن بعـد طـول مكثنـا فيـه، وقـد رأيت على المرضى في قاعة العلاج البديل ارتياحا عظيما، وأنوارا تسـري في وجوههم تحطم تلك الكآبة والسوداوية التي ملأهم بها الرقاة.

سألت أحد المرضى: ما حالك؟.. كيف تجد نفسك؟

قـال: بحمـد اللـه.. لقـد كـانت الوسـاوس تطـاردني.. كـانت العفـاريت الـتي ملأ الرقـاة عقلي بهـا تزاحمـني وجـودي.. تحطم حياتي.. أما اليوم فقد عرفت الله.

قلت: فماذا أفادتك معرفته؟

قــال: نســخت كــل تلــك الظلمــات.. وحطمت كــل تلــك الأساطير.. وأنا الآن أعيش في سعادة عميقة.

قلت: ما هو وردك؟

قال: ما حض عليه رسول الله ﷺ من أذكار، فأنـا أسـبح اللـه وأحمده وأكبره..

قلت: فما كان وردك؟

قال: الاستعاذة من الجن والعفاريت والمردة.. حتى أني كنت إذا قرأت القرآن الكريم لا أقرؤه لوجـه اللـه، وإنمـا أقـرؤه لأطـرد العفاريت.

ثم تركني، وانصرف، وهو يسـبح اللـه.. أمـا الشـيطان.. فقـد سلك فجا غير فجه، وقد عض أصابعه من الندم.. أما الرقاة.. فقــد ضاع زبون من زبائنهم، ويوشك أن يضيع جميع زبائنهم.. ومــا ذلــك على الله بعزيز.

الاستعاذة من السحر

قصدنا القاعـة الثانيـة من قاعـات حصـن الاسـتعاذة، فـرأيت لافتة مكتوبا عليها قوله تعالى: مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ (يونس:81)

قلت: لا شك أن هذه القاعة قاعة علاج السحر.

قال: السحر.. وأوهام السحر..

قلت: وما علاقة أوهام السحر بهذا؟

قال: أوهام السحر أخطر من السحر.. بل هي نوع من أنــواع السحر.

قلت: كيف؟

قال: لأن السحرة محدودون.. وأفعـالهم محـدودة.. وتأثيراتهـا أضيق من ذلك كله.. ولكن مع ذلك لا ترى أحدا إلا وهـو يشـكو أنـه سحر في يوم من الأيام.. أو سـحرت سـيارته أو محلـه أو شـواربه التي اشتعل فيها الشيب.

قلت: صدقت.. وأنا أعرف من لا يأكـل أي طعـام خـارج بيتـه خشية أن يكون قد ملئ سحرا.

قـال: وبسـببه فـرق الشـيطان بين المـرء وزوجـه، وبين الأخ وأخيه.

قلت: هذا واقع نشكو منه.

قال: فمن ساهم فيه؟

قلت: لا شك في ضلوع الرقـاة في هـذه الجريمـة.. فإنـه مـا يأتيهم أحد إلا ويصفون لـه أحـد أقـانيم هـذا الثـالوث: الجن والعين والسحر.

رأيت بابين داخل القاعة المخصصة للتحصين من السحر، ورأيت المرضى يدخلون منهما، فسألت المعلم عنهما، فقال: أما الباب الأول، فيؤدي إلى القاعة المخصصة لتشخيص السحر، وأما الباب الثاني، فيؤدي إلى القاعة التي يتم فيها العلاج.

قلت: فلم لا يذهبون مباشرة للقاعة الثانية للمعالجة؟

قال: إن أكثر من تراهم يتهمون السحر والسحرة مصابون بأوهام السحر.. لا بالسحر.. أو بأعراض لأمراض جسدية أو نفسية، ولكن الدجالين أوهموهم بأنهم مسحورون، فلذلك كان تخليصهم من الأوهام مقدما على علاجهم.

قلت: أمستشفى السلام يعالج المرضى في هاتين القاعتين فقط؟

قال: لا.. جميع الوزارات التي لها علاقة بالإنسان تخدم المرضى أو تقيهم من جهتها.

قلت: وما انشغال الوزارات بهذا؟

قال: إن لم تنشغل الوزارات بالإنسان، فبمن تنشغل؟

تشخيص السحر:

دخلنا القاعة الأولى، فوجدنا رجلا على منصة، والدموع تنهمر من عينيه، وهو يتكلم بصوت ضعيف تظهر عليه علامات الحزن، والمرضى مقبلون عليه يسألونه، سألت المعلم عنه، فقال: هذا عيسى بن شقفى[1].

قلت: ومن عيسى بن شقفى؟

قال: كان ساحرا.. ثم تاب الله عليه.. وقد دعته إدارة هذا

---

1) كان عيسى بن شقفى ساحرا يأتيه الناس ويأخذ على ذلك أجرا، فجاء إلى الامام جعفر الصادق ، وتاب على يديه.

المستشفى ليبين للمرضى قدرات الساحر.

قلت: ولم ذلك؟ ألأجل اتقائها؟

قال: لا.. ليس ذلك فقط.. بل الغرض الأصـلي هـو أن يفسـر لهم قولـه تعـالى: وَمَـا هُمْ بِضَـارِّينَ بِـهِ مِنْ أَحَـدٍ إِلَّا بِـإِذْنِ اللَّهِ (البقرة:102)

قلت: لم؟

قـال: لأن الخـوف من السـحر، وتعظيم السـحر، والاعتقـاد بقدرات الساحر العجيبـة جعلت الخلـق يخـافون من السـاحر أكـثر من خوفهم من الله.

قلت: وهذا غرض مقصود للساحر؟

قال: كما أنه غرض مقصـود للشـيطان.. فكمـا أن الشـيطان يحب أن يراه الخلق مدبرا مصرفا للأمور.. فكذلك السـحرة الـذين اتبعوا الشيطان ومنهج الشـيطان، ألم تسـمع قولـه تعـالى: وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (البقرة:102)؟

قلت: فالسحر من تعليم الشياطين؟

قال: هذا ما نص عليه القرآن الكريم.

قلت: فما هي الأشياء التي يطيقها الساحر.. فـإني أسـمع أن له قدرات هائلة.

قال: هي ـ بحسب ما ينص عليه القرآن الكريم ـ قدرتان.

قلت: ما هما؟

قال: التخييل، والتأثير.. وكلا القدرتين محـدودتان، لا يسـتطيع الساحر مهما أوتي من علم أن يتجاوزحدودهما.

قلت: فما الحدود التي تحدهما.

قال: سنعرف ذلك من عيسى.

قلت: أي عيسى !؟

قال: ذاك التائب الذي يجتمع عليه الناس.

السحر التخييلي:

اقتربنا منه، فسمعنا سائلا يسأله، قائلا: عرفنا أن الشياطين يعتمدون على استعداد الإنسان للوسوسة، فلذلك يأتونه من هذا الجانب، فعلام يعتمد السحرة؟

قال عيسى: على التخييل.. على مخيلة الإنسان(1).. فإن كان الشيطان يضع خرطومه على صدر الإنسان، فإن هؤلاء السحرة يضعون خراطيمهم على مخيلته.

قال السائل: لم؟

قال عيسى: ليرى الأشياء على غير ما هي عليه.. ألم ير الناس حبال السحرة وعصيهم حيات تسعى؟

قال السائل: بلى، فقد قال تعالى: فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (طـه:66)

قال عيسى: فهكذا الساحر يلجأ إلى المخيلة ليتلاعب بها..

قاطعه سائل، وهو يقول:.. نعم.. لقد سمعت بعض العلماء يروي عن بعض العامة أن ساحراً أتى إلى صاحب غنم ومعه شاه يقودها بأذنها، وطلب من صاحب الغنم أن يعطيه بدلها كبشاً

---

1) يقول ابن خلدون:(سحر التخيل هو أن يعمد الساحر إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف، ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة وصوراً مما يقصده من ذلك، ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه، فينظر الراؤن كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك) مقدمة ابن خلدون: 498.

ليذبحه لرفقته، ففعل ذلك صاحب الغنم، فبعد أن ذهب بالكبش تبين أن تلك الشاة التي جاء يقودها كانت حشرة من دواب الأرض قد لبس بها على عين الراعي الذي ذهب في أثره حتى أدركه مع رفقته وقد ذبحوا الكبش، فسألهم عن صاحب الكبش الذي لبس عليه، فدلوه على الساحر فجعل يوبخه، ثم مد يده إليه ليبطش به، وقبض على رأسه فانقلع رأسه في يده وتعلق بحنجرته، فذهل الراعي وهرب معتقداً أنهم من الشياطين(1).

قال عيسى: لا.. هذه حكاية ظاهرة التزوير.. وما كان للعلماء أن يقبلوا مثل هذا من العامة، ولو كان هذا في طاقة السحرة لاستولوا على أملاك الدنيا جميعا، ولكانوا أغنى الناس.

قال السائل: ولكن العامة يؤكدون مثل هذا.

قال عيسى: لا تؤخذ الحقائق من العامة، بل تؤخذ من أصحابها، وأنا أدرى بقدرات السحرة، إنهم أضعف بكثير.. أضعف مما تتصورون.

قال سائل آخر: لقد علمونا أن لسحر التخييل أنواعا.. فنرجوا أن تبين لنا مدى وقعيتها؟

قال: سل.. فستجد عندي ـ إن شاء الله ـ ما يشفي غليلك.

قال السائل: من الأمثلة التي ذكروها لما يسمى (سحر التخييلات) قلب الحقائق المتعلقة بالأفراد في نظر المسحور، فيرى الشخص على غير شاكلته كأن يرى الصغير كبيرا والكبير صغيرا، والطويل قصيرا والقصير طويلا، وهكذا في كثير من الصفات البشرية الأخرى.

قال: يمكن للساحر أن يفعل هذا.. ولكنه لفترة محدودة، وببعض التلاعبات.. هو تماما مثلما يتلاعب السحرة في نواديكم..

1) الحكاية حكاها الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، انظر: الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة، ص 113، 114.

فإن طاقاتهم محدودة بزمن محدد لا تتجاوزه.

قـال السـائل: ومن الأمثلـة الـتي ذكروها لهـذا النـوع قلب الحقائق المتعلقـة بالحيوانـات في نظـر المسـحور فـيرى الحيـوان على غير شاكلته، كأن يرى القـط فـأرا، أو أن يـرى القـط الهزيـل بشكل ضخم مرعب، وقس على ذلك الكثير من الصفات الحيوانية الأخرى.

قال: هذا ممكن بحدود ضيقة جـدا.. ولكنهـا لا تصـل أبـدا لمـا حكى عنه ذلك العامي.. وإلا لأقلع تجار الماشية عن إرهاق أنفسهم بعلف الحيوانات، واكتفوا بسحر أعين المشترين.

قال السائل: إنهم يتورعون عن ذلك..

قال: لا.. لو تورعوا عن هذا لتورعوا عن غيره.

قال السائل: من الأمثلة التي ذكروها: سحر التخييـل للانتقـال من صفة بشرية أو حيوانية أو عينيـة لصـفة مضـادة أخـرى، فـيرى المسحور من خلال هذا النوع من أنواع السحر الإنسان حيوانا، كأن يرى الزوج بشكل حمار أو قـرد أو أن يـرى كأحـد أعمـدة المـنزل، وقس على ذلك الكثير للانتقال من صفة إلى صفة مضادة أخرى.

قال: من أين عرفتم أن هذا من السحر؟

قـال السـائل: من يصـابون بمثـل هـذا يـذهبون إلى الرقـاة فيقرؤون عليهم رقية التشخيص، فيعرفون أنه سحر.

قال: وما رقية التشخيص؟

قال السائل: هي أوراد معينة يتم من خلالها كشف نوع العلـة التي يعاني منها المسترقي.

قال: في أي مصادر الحديث وردت هذه الأوراد؟

قال السائل: لا.. لم ترد هذه الأوراد في السنة.

قال: ما لم يرد في السنة فهو بدعة؟

قال السائل: أما الخلف المتقـدمون، فلم يبتـدعها أحـد منهم، بل ابتدعها الخلف المتأخرون؟

قال: أهي وحي أوحي إليهم، أم علم لدني نالوه؟

قـال السـائل: لا هـذا.. ولا ذاك.. ولكنهم مـع ذلـك مجمعـون عليه.

قال: أي إجماع هذا.. هذا إجماع لا يختلـف عن إجمـاع اليهـود والنصارى..

قال: فكيف يعرفون أن المسـترقي مسـحور بهـذا النـوع من السحر؟

قال السائل: يذكرون لذلك علامات.. منها قلب الحقائق دائما في نظر المسحور، مما يـؤدي في بعض الأحيـان لاعتقـاد الآخـرين بإصابة الشخص بالجنون.

ومنها الشرود والنظرات غير الطبيعية، ومنهـا مـا يلاحـظ في نظرات المسحور من الدهشة والاستغراب، وذلك نتيجـة لمـا يـراه المسحور من قلب للحقائق والأمور.

ومنها محاولة الصدود عن الآخرين والعزلـة عن النـاس خوفـا من قذفه بالجنون ونحو ذلك من أمور أخرى.

قال: فأكثر الناس قد يصاب بهذا لأي سـبب من الأسـباب!؟.. ومن لم يتعلم الشرود لم يتعلم التركيز..

ثم انصرف.. وهـو يقـول: حسـبتنا ــ معشـر السـحرة ــ شـر الناس، ولم أدر أن في الخلق من يجرؤ على كل هذه الدعاوى.

قلت للمعلم: ما بال عيسى ينصرف غاضبا؟

قال: هذا حال عيسى منذ تاب الله عليه، فهو لا يحب الكـذب ولا الدجل.

قلت: لم؟

قـال: لأن السـحر يعتمـد على الكـذب والـدجل.. ألا يصـور الساحر الحقائق على خلاف ما هي عليه؟

قلت: بلى..

قال: فكل من فعل هذا تشبه بالساحر.

قلت: فالسحرة كثيرون إذن؟

قال: بهـذا الاعتبـار أكـثر ممـا تتصـور.. فالنمـام الـذي يفسـد العلاقات شر من الساحر..

قلت: كيف هذا؟

قال: لأن الساحر ترد كيده بالمعوذتين، أمـا شـر هـذا فإنـك لا ترده، ولو قرأت القرآن الكريم جميعا إلا أن تغلق أذنيك عن سماع نميمته.

قلت: يـا معلم.. مـا سـر قـدرة السـاحر على التلاعب بالخيال[1]؟

قال: لن تعرف هذا حتى تعرف حقيقة بناء الإنسان.

---

1) قال الدكتور محمد محمود عبدالله:(سحر التخييل: هو أن ترى الثابت متحركـاً، والمتحرك ثابتاً، والكبير صغيراً، والعكس، والمـريض صـحيحاً، وعكسـه، والقـبيح حسـناً... وخلاصته: أن الأشياء ترى على غير حقيقتها على سبيل المثال: ما رآه الناس من سـحرة الزمان: الحجر طفلاً ؛ والعصا ثعباناً 0 فكل زمان له سحرة، لكنهم يختلفـون في منهجيـة السحر التنفيذية: يقوم الساحر بإحضار شيء يعرفـه النـاس، ثم يتلـو عزيمتـه وطلاسـمه الشيطانية ؛ فيرى الناس الشيء على غير حقيقته) انظر: إعجاز القرآن في علاج السـحر والحسد ومسّ الشيطان: 85.

قلت: والآن..

قال: لو أن أحدهم وضع نظاره محدبة أو مقعرة على عينيك.. كيف ترى الأشياء؟

قلت: أراهـا كمـا توحيهـا لي النظـارة.. بـل أسـتطيع أن أرى العالم كله يشع احمرارا أو يونع اخضرارا.

قال: فالسحر بما تعلمه من الشياطين يضع مثل هذه النظارة على العيون ليقلب بها الحقائق، وتظهـر الأشـياء على غـير مـا هي عليه.

قلت: ولكني لا أرى على عيون المسحورين نظارة.

قال: الساحر يتعامل مع البصـيرة لا البصر(1).. والبصـيرة هي التي توحي للبصر بما يراه.

قلت: صحيح هذا.. فإني قد أكون جائعا، فأرى كـل مـا حـولي خبزا يدعوني لأكله.. وأكون عطشانا فأجري خلف السراب لأبل به ريقي.

قال: ولهذا اعتبر البيان سحرا، فالساحر لا يقدر على ما يقـدر عليه من آتاه الله لسانا.

قلت: فكل دعاة جهنم بهذا سحرة.

قال: أجل.. وليت الرقاة من قومك ينبتبهـون لصـد أبـاطيلهم، فهي أشد فتكا في الخلق من السحرة المشعوذين.

قلت: ولكنهم لن يبطلوا سحرهم إلا بتعلم السحر.

---

1) وقد يتعامل مع البصر، فمن ألوان السحر ما كان يمارس عن طريـق الاسـتفادة من خواص المواد الـكيميائية والفيزيائية لخداع الناس، وقد ذكر أن سحرة فرعون وضعوا داخل حبالهم وعصيهم مادة كيميائيـة خاصـة لعلهـا الزئبـق ، كـانت تتحـرك بتـأثير حـرارة الشمس أو أية حرارة أخرى، توحي للمشاهد أنها حية.

قال: فليتعلموه.. فذلك خير لهم من السحر الذي يمارسونه.

قلت: أهم يمارسون سحرا؟

قال: هم بتخليطهم على من يـأتيهم وكـذبهم عليـه وتفـريقهم بين المرء وزوجه بسببه أعظم خطرا من السحرة.

السحر التأثيري:

قلت للمعلم: هذا هو سحر التخييل، فما سحر التأثير؟

قال: سحر التأثير هو أثر لسحر التخييل.

قلت: ما تقصد؟

قال: تأثير السحر لا يعدو التخييل.

قلت: أتقصد أن الساحر لا يستطيع أن يؤثر في الأشياء؟

قال: كما أن الشيطان لا يستطيع، فالساحر أكثر عجزا منه.

قلت: إن من قــومي.. ومن الرقــاة خصوصــا من يــذكرون للساحر قدرات عجيبة.

قال: فما يقولون؟

قلت: اصبر علي معلم.. فإنهم يقولون أشياء كثيرة.

قال: اذكرها.. فلا يمكن أن نسكت عن ذكر عيوب الباطل.

قلت: من السحر ما يسمونه: (سحر المرض)، وقد ذكروا بأن الغرض منه إصابة الشخص بالآلام والأسقام، فتراه طريح الفـراش عليل البـدن، وقـد تكـون العلـة في موضـع واحـد، وقـد تنتقـل من موضع إلى موضع، وكل ذلك بناء على ما يمليه ويفعله الساحر.

قال: أللساحر كل هذه القدرة؟

قلت: لقد قال بعض المشايخ في هذا: (وأمـا سـحر المـرض، فقد قيل إن أغلب الأمـراض المستعصـية هي بسـبب الجن الـذين يسخرهم الساحر فيلابسون الإنسـان، ويحـدث ذلـك تعطيـل بعض الأعضاء عن منافعهـا فينهـك البـدن، ويعظم الضـرر، ولا يوجـد في الطب لـه علاج سـوى الأدويـة المهدئـة، والأولى اسـتعمال الـرقى النافعــة المــؤثرة، فلهــا تــأثير كبــير في تخفيــف ذلــك المــرض كالسرطان والجلطة والشلل ونحوها)(1)

قال: وما ذكروا من أعراض هذا النوع من السحر؟

قلت: أعــراض كثـيرة جـدا، فمنهـا مثلا مـا يسـمى: (سـحر التشنجات العصبية)، ويقسمونه إلى قسمين:

قســم التشــنجات العصــبية قصـيرة الأمــد: وفيــه يتعــرض المسحور لتشنجات عصبية من فترة لأخـرى دون أن تحـدد بزمـان أو مكان، وتستمر تلك التشنجات لفترات قصيرة الأمد نسبيا، وقــد ترتبط تلك التشـنجات أحيانـا مـع المـؤثرات الاجتماعيـة للمـريض، وتعتمد تلك التشنجات في قوتها على قوة السحر والساحر.

وقســم التشــنجات العصــبية طويلــة الأمــد: وفيــه يتعــرض المسحور لتشنجات عصبية من فترة لأخـرى دون أن تحـدد بزمـان أو مكان، وتستمر تلك التشنجات لفترات طويلة نسبيا، وقد ترتبـط تلك التشنجات أحيانا مع المؤثرات الخارجية للمريض، وتعتمد تلــك التشنجات في قوتها على قوة السحر والساحر.

قال: فأعصاب الخلق بيد الساحر إذن؟

قلت: ليس أعصابهم فقط، بل أعضاؤهم أيضا.. فقد ذكروا ما يسمى بسحر الأمراض العضوية، ويقسمونه أقساما كذلك.

منهــا ســحر الأمــراض العضــوية بتــأثير كلي: وفيــه يتعــرض

---

1) الصواعق المرسلة في التصـدي للمشـعوذين والسـحرة – 158،ـ 159، والكلام للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.

المسحور لأمراض وآلام تصيب جميع أنحاء الجسد، ويشعر المسحور من خلال هذا النوع بالتعب والإرهاق والخمول وعدم القدرة على القيام بأية أعمال.

ومنها سحر الأمراض العضوية بتأثير جزئي: وفيه يتعرض المسحور لمرض يتركز في جهة محددة من الجسم، وله أعراض معينة، وعند قيام المريض بالفحص الطبي يتبين سلامة كافة الفحوصات الطبية، وسلامة الجسم من أية أمراض عضوية.

ومنها سحر الأمراض العضوية المتنقلة: وفيه يتعرض المسحور لأمراض وآلام متنقلة في جميع أنحاء الجسم، فتارة يشعر بألم في الرأس وتارة أخرى يشعر بألم في المفاصل وهكذا، وكل ذلك يحصل دون تحديد أية أمراض عضوية محددة.

قال: فالساحر هو الذي لديه خزائن الآلام إذن؟

قلت: لا.. بل لديه خزائن الحواس والمدارك أيضا، فقد ذكروا ما يسمى بسحر تعطل الحواس، ويقسمونه كذلك أقساما:

منها سحر تعطل حواس دائم: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لتعطل الحواس الخاصة بالسمع والإبصار والشم تعطلا دائما، فلا تعود تلك الحواس للمسحور إلا بعد إبطال السحر وشفاء المريض بإذن الله تعالى.

ومنها سحر تعطل حواس مؤقت: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لتعطل الحواس الخاصة بالسمع والإبصار والشم تعطلا مؤقتا، ويتقلب الحال من وقت إلى وقت ومن زمن إلى زمن.

ومنها سحر الشلل: ويقسمونه أقساما:

منها سحر شلل كلي: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لشلل كلي في جميع أنحاء الجسم، فلا يستطيع الحراك مطلقا، ولا تعود له عافيته إلا بعد إبطال السحر بإذن الله تعالى.

ومنها سحر شلل جزئي: ويتعرض المسحور من خلال هذا النوع لشلل جزئي يختص بمنطقة معينة كاليد أو القدم أو الرأس ونحوه، ويبقى العضو معطلا فترة من الزمن ثم يعود إلى سابق عهده، وتنتهي المعاناة بإذن الله تعالى عند انتهاء وإبطال السحر.

ومنها سحر شلل متنقل: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لشلل جزئي متنقل، فتارة يصيب الشلل منطقة اليد، وتارة أخرى منطقة القدم وهكذا، وكل ذلك دون تحديد أسباب طبية معينة، ولا ينقطع هذا الأمر إلا بعد إبطال السحر بإذن الله تعالى.

قال: فأراهم لم يتركوا علة إلا نسبوها للسحر؟

قلت: ليس ذلك فقط.. بل حتى الذرية، فإنها تحت تصرف السحرة.

قال: ولكن الله تعالى اعتبر ذلك من الهبة التي لا يجوز التأثير فيها لغير الله.

قلت: وهم يشركون السحرة في ذلك، فلا يولد الولد إلا إذا كف الساحر شره عن والديه، فقد ذكروا ما يسمى بسحر: (العقم وعدم الإنجاب) وذكروا أن هذا النوع من السحر يؤدي لإحداث عقم وعدم إنجاب لدى كل من الزوج والزوجة دون اتضاح أية أسباب طبية لمثل ذلك، وقد ذكروا في هذا الباب قدرات عظيمة للسحرة.

ومنها قتل البويضة: وهذا النوع يؤدي لقتل البويضة عند المرأة وبالتالي لا تتم عملية التلقيح، أو حصول أي حمل يذكر.

ومنها عدم قابلية تلقيح البويضة من قبل الحيوان المنوي: وهذا النوع يؤدي لمنع وصول الحيوان المنوي إلى البويضة لتلقيحها، وفي بعض الأحيان قد تصل بعض الحيوانات المنوية، ولكنها لا تستطيع اختراق الغلاف الخارجي الخاص بالبويضة مع

قوتها ونشاطها.

ومنها إجهاض الحامل بعد شهرها الثالث: وهذا النوع يؤدي لقتل الجنين بعد عدة شهور من تكونه بعد نفخ الروح فيه، مما يتسبب في إجهاض المرأة، ويتبع السحرة أساليب شيطانية خبيثة للوصول إلى هذا الهدف ومنها تسليط الشياطين على الحامل وضربها في نومها وإسقاط الحمل أو إرعابها ومن ثم إسقاط الحمل ونحو ذلك من طرق خبيثة.

قال: فقد جعلوا السحرة آلهة مع الله يتصرفون في خلق الله.

قلت: هم يستدلون لهذا بحديث صحيح.

قال: لا أعلم أن هناك حديثا صحيحا ينص على مثل هذه الخرافات.

قلت: هم يستدلون بما روي عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة. قالت: فخرجت، وأنا متم - أي مقاربة للولادة -، فأتيت المدينة، فنزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت رسول الله ﷺ، فوضعه في حجره، فدعا بتمرة، فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، قالت: ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له وبرك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام – للمهاجرين بالمدينة -، قالت: ففرحوا به فرحا شديدا، وذلك أنهم قيل لهم: (إن اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم)(1)

قال: فما وجه الاستدلال بالحديث؟

قلت: ما ورد فيه من إخبار اليهود بأنهم قد سحروهم.

قال: فقد أصبحت أخبار اليهود إذن من مصادر الشريعة.. لماذا لم يستدلوا عن عجز السحر عن هذا بولادة عبد الله.. ألم

1) البخاري ومسلم.

يقرؤوا ما ورد في وفاة سليمان ﵇، فقد قال تعالى:﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ:14)

قلت: بلى.. فقد بين الله تعالى للجن بما حدث لسليمان ﵇ عجزهم عن إدراك علم الغيب.

قال: وكذلك بين لليهود بولادة عبد الله عجزهم عن التحكم في مخلوقات الله.

قلت: وهم لا يكتفون بهذا.. بل يجعلون للسحرة القدرة على بث الخمول والكسل في المجتمع بالسحر الخاص بهذه الناحية.

قال: وإلى ما يقسمونه؟

قلت: إلى قسمين:

قسم يسمونه سحر خمول دائم: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لخمول دائم ينتاب جميع أنحاء الجسم، فيشعر المريض دائما بالفتور والخمول وعدم القدرة على العمل أو ممارسة أي نشاط يذكر.

ومنها سحر خمول مؤقت: ويتعرض المسحور من خلال هذا النوع لخمول مؤقت ينتابه بعض الفترات ويتراوح ذلك بحسب قوة السحر وتأثيره، فيشعر المريض أحيانا بالفتور والخمول وعدم القدرة على العمل أو ممارسة أي نشاط يذكر، وتارة أخرى يكون نشيطا قويا يعيش كأي إنسان طبيعي آخر.

قال: فقد عرف الرقاة إذن علل تخلف الأمة.. فلماذا يجهد مفكروكم عقولهم في البحث عنها.

قلت: لا.. هم لم يتكلموا عن هذه المسألة، ولم يبحثوا فيها..

قال: لا.. بـل بحثـوا فيهـا.. فسـحرة قومـك اسـتأجرهم بعض اليهود.. أو بعض جن اليهود ليسحروا الأمة جميعا بالخمول.. فلذلك كل مـا تـراه من خمـول هـو بسـبب هـذا السـحر.. ولن تسـتطيعو النهوض إلا بعد البحث عن المكان الذي وضعوا فيه سحرهم لتعـود الأمة إلى رشدها.

قلت: فالحل بسيط إذن..

قال: بل الحل معقـد جـدا.. فمكـان العمـل الـذي عملـوه لن تصلوا إليه أبدا إلا إذا وصلتم إلى ما وصل إليه اليهود من تكنولوجيا متطورة.. فقد اسـتعمل اليهـود مـا وصـلوا إليـه من تطـور لإخفـاء العمل الذي عملوه.

قلت: يا معلم.. أراك تنكر كل ما ذكرته.. فإلى مـا تسـتند في إنكارك؟

قال: إلى قوله تعالى: وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (الإسراء: 36)

قلت: فما في هذه الآية من الاستدلال؟

قال: لقد نهانـا اللـه تعـالى أن نتكلم فيمـا ليس لنـا بـه علم.. وهذا مما ليس لنا به علم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: متى تكلم العلماء عن أنواع الجراثيم؟

قلت: بعد أن اكتشفوها.

قال: بم اكتشفوها؟

قلت: بالأجهزة المكبرة.

قـال: فـإذا وصـلتم إلى أجهـزة تكشـف السـحر.. ففصـلوا

وقسموا كما تشاءون.

قلت: وقبـل ذلـك.. هـل نـترك السـحرة يعيشـون في الأرض فسادا؟

قال: لن يطيقوا أن يفعلوا شيئا إلا إذا أعطيتمـوهم أنتم جـواز السفر إلى ذواتكم.

قلت: فما ترى من الأضرار التي يمكن للسحرة فعلها؟

قال: شيء واحد.. لا علاقة له بأجسادكم(1)، فلا تخافوا عليها.

قلت: وما هو؟

قال: لقد ذكر الله تعالى ضرر السحرة حاصـرا لـه في ضـرر واحد.

قلت: وما هو؟

قـال: التفريـق بين المـرء وزوجـه، ألم تسـمع قولـه تعـالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة:102)

قلت: وما وجه الاستدلال في الآية.. ألا يمكن أن يكون ما ذكر هو بعض آثار السحر وتأثيراته؟

قال: لا.. النص لا يحتمل ذلك.. فالله تعالى جعـل قولـه:﴿ مَـا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ تعريفا للسحر بذكر آثاره.. ولا يمكن للتعريف إلا أن يكون جامعا للمعرف.

قلت: أريد مثالا على ذلك؟

قال: أرأيت لو أن شخصا عرف الطب بأنه العلم الذي يـداوي الزكام، أيكون هذا التعرف صحيحا؟

---

1) إلا إذا احتوى السحر على مواد ضارة.

قلت: لا شك في كونه غير صحيح.

قال: لم؟

قلت: لأنه قصر الطب على وظيفة بسيطة من وظائفه.

قال: ولو عرفه بأنه: (ما يداوي العلل المختلفة)

قلت: حينها سيكون تعريفا صحيحا مقبولا؟

قال: فكيف يتهم القرآن الكريم إذن بالقصور في تعريف السحر؟

قلت: فالسحر إذن يقتصر على قدرة واحدة هي التفريق بين الأزواج.

قال: نعم.. وهو ما نص عليه القرآن الكريم.. وهو تفريق يعتمد على التخييل الذي هو وسيلة الساحر الوحيدة.

قلت: كيف يكون التخييل؟

قال: الساحر المتقن لسحره قد ينجح في التأثير في مخيلة الزوج مثلا، فيرى زوجته في صورة بشعة تتقزز منها نفسه، فيبغضها أو يطلقها.

قلت: إذن علاقته مع الأزواج فقط.

قال: لا.. بل مع كل المتحابين.

قلت: هذا معروف ومشتهر، ويسمونه: (العطف والصرف)، فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك[1].

وفي النصوص ما يشير إليه، فقد قال ﷺ: (إن الرقى

1) مرجع المعالجين من القرآن الكريم والحديث الشريف - ص 327 – 328.

والتمائم والتولة شرك)، والتولة[1]: ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، وجعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلـك يـؤثر ويفعـل خلاف ما قدره الله تعالى.

وقد يسمون العطف: (سحر المحبة)، وهو عمل وتأثير يسعى الساحر من خلاله للجمـع بين المتباغضـين والمتنـافرين، أو الجمـع بين الأشخاص عامة لأسباب معينة بناء على توصية من قـام بعمـل السحر.

وقد ذكر بعض العلماء من آثـار هـذا النـوع من السـحر قصـة عجيبة يتداولها العامة لست أدري مدى صدقها.

قال: وما قال؟

قلت: ذكر أن امرأة رأت من زوجها شيئاً من الإعراض وعـدم المودة التي تريدها منه، فهو يعطيها حقها ويعاملها كسـائر النسـاء، لكنها تريد منه أكثر من ذلك من المحبـة والبقـاء عنـدها والملازمـة لها، فـدخلت عليهـا عجـوز تعمـل السـحر، فأخبرتهـا بخـبر زوجهـا، فأعطتهـا العجـوز دواء في صـرة، وأمرتهـا أن تجعلـه في طعامـه، ولكن المـرأة تـورعت فجعلت الـدواء في رغيـف وأطعمتـه داجنـاً عندهم، فبعد أن أكله ذلك الداجن علق بها، فصار يتبعها ولا يفارقها ولا يستقر حتى يلصـق رأسـه ببطنهـا أو يجعلـه في حجرهـا وصـار يلاحقها أينما ذهبت، فعجب زوجها من أمرها وأمره، ثم إنها أخبرت زوجها بأنها صرفت هذا الدواء عنه، ولـو أعطتـه الـدواء لفعـل كمـا فعل الداجن، فلما أخبرته بادر بطلاقهـا، وقـال: أخشـى في المـرة الثانية أن تجعليه في طعامي[2].

قـال: مـا لعلمـائكم وهـذه الأمـور!؟.. وأي فـرق بين العامـة والعلماء إذا خاض العلماء في هذا!؟

---

1) بكسر التاء وفتح الواو، انظر: النهاية في غريب الحديث - 1 / 200.

2) الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة- ص 141،142.

قلت: أتنكر هذا؟

قال: يجب أن أنكره.. لقد ذكر الله تعالى أن هؤلاء السحرة يفرقون بين المرء وزوجه، ولم يقل يحببون بين المرء وزوجه.. وما كان لي أن أغادر ما نص عليه القرآن الكريم لأي لغو يرويه عامي أو ينقله عالم.

قلت: والتولة؟

قال: لقد ذكر ﷺ أنها من الشرك، ولم يذكر أنها من السحر.. ولم يذكر لها ﷺ أي أثر.

قلت: لقد ذكروا لهذا النوع من السحر آثارا وأعراضا من خلالها يقوم الرقاة برقاهم؟

قال: ما هي؟

قلت: من الأعراض التي ذكروها 1. تغير الأحوال بشكل فجائي من كراهية وبغض إلى ود وحب.. ومنها عدم حصول أية مشكلات اجتماعية مع توفر كافة الأسباب الصغيرة والكبيرة لمثل تلك المشكلات .. ومنها القدرة الكبيرة على التكيف الاجتماعي والعاطفي مع الآخرين ممن عطفوا على المريض بواسطة السحر.. ومنها 4. المحبة المطلقة للأقوال والأفعال الصادرة عن هؤلاء الأشخاص.. ومنها حسن الظن والثقة المطلقة بهؤلاء الأشخاص.. ومنها رؤية هؤلاء الأشخاص بأشكال حسنة جميلة محببة للنفس.. ومنها المحبة المطلقة لأماكن تواجد هؤلاء الأشخاص.

قال: أرى رقاتكم هؤلاء يحرمون المحبة بين الناس بنشر مثل هذه الخرافات.

علاج السحر:

ذهبنا للقاعة الثانية، وهي القاعة المتخصصة في علاج من أصيب بالسحر، وقد فوجئت بأني لم أجد فيها إلا أفرادا محدودين بخلاف القاعة السابقة، فسألت المعلم عن سر ذلك، فقال: إن أكثر من جاءوا هذا المستشفى لعلاج السحر تبين لهم في قاعة التشخيص أنهم كانوا متوهمين، فلذلك رجعوا من حيث أتوا، مكتفين بذلك.

قلت: ولكني رأيت الخارجين مستبشرين.

قال: وما لهم لا يستبشرون.. لقد كان ما أوهموا به من سحر يقيد أرجلهم عن كل حركة، فلما علموا عجز السحر انطلقوا ونشطوا.. وكأنما نشطوا من عقال.

قلت: وهؤلاء الحاضرون في هذه القاعة؟

قال: هؤلاء شكوا في إمكانية أن يكون ما أصابهم نوع من السحر.

قلت: شكوا فقط.. ولم يتيقنوا.

قال: ليس في هذا الباب شيء يسمى اليقين.. إلا إذا أخبرك معصوم بهذا..

قلت: فما العلاج الذي يعطى لهؤلاء هنا؟

قال: لقد أنزل الله برحمته المعوذتين.. وهما رحمة من الله تكفيان الأمة عن كل تعويذة، وعن اللجوء لأي راق.

قلت: كيف هذا؟.. أيمكن أن نكتفي بالمعوذتين من دون الرجوع لأي راق لفك السحر؟

قال: أجل.. ألم يرو في الحديث أن رسول اللّه ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما (1).

1) الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قلت: ولكن العلمــاء يبــالغون كثــيرا في وجــوب البحث عن السحر لفكه، وقد قال ابن باز: (ومن علاج السحر أيضا - وهــو من أنفع علاجــه - بـذل الجهـد في معرفـة موضـع السـحر من أرض أو جبل أو غير ذلك فإذا عرف واستخرج وأتلف بطل السحر)(1)

قال: لا.. هذا ليس صحيحا.. فبدل أن نكلـف العامـة بـالبحث عن موضع السحر، وببذل الجهد في ذلك نكلفهم بالالتجاء إلى الله، وهو يكفيهم كل سوء رأوه أو لم يروه.. ثم من قـال للعامـة بـأنهم مسحورون حتى يبذلوا جهودهم في البحث عن موضع السحر.

قلت: الأعراض التي يراها الرقاة.

قـال: لـو طبقنـا الأعـراض الـتي ذكروهـا على جميـع النـاس لوجدنا الخلق جميعا مسحورون.. ولو راعينا ما ذكروا لأغلقنا جميـع المستشفيات أو لحولناها إلى مراكز رقية، وحولنـا مراكـز البحـوث إلى مراكز بحوث عن مواضع السحر.

قلت: وقـد ذكـروا من أسـاليب العلاج السـدر، فقـد ورد في كتب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقـات من سـدر أخضـر، فيدقـه بين حجرين، ثم يضربه بالماء، ويقرأ آيـة الكرسـي والقواقل(2)، ثم يحسو منه ثلاث حسيات، ثم يغتسل به، فإنه يذهب عنه كل ما بــه، وقد ذكروا أنه جيد للرجل إذا حبس عن أهله)(3)

قال: ومن وهب بن المنبه؟

قلت: رجل من اليهود أسلم، فكان من التابعين.

قال: وهل أسلم لتعلموه، أم ليعلمكم؟

---

1) فتوى الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز – برقم (8016)، – الصادرة بتاريخ 22 / 1 / 1405 هـ.

2) القواقـل: هي السـور الـتي تبـدأ بــ (قـل) وهي: الجن، الكـافرون، والإخلاص، الفلق، والناس.

3) فتح الباري: 10 / 233.

قلت: لا أخفي عليك ـ يا معلم ـ لقد تعلمنا عنه كثيرا.

قال: فارموا بكل ما تعلمتموه منه عرض البحـر.. فقـد أتـاكم بها ﷺ نقية صافية، فأبيتم إلا تدنيسها برجس اليهود والنصارى.

قلت: ولكن قومي تلقوا قوله هذا بالقبول، وهم يفتون الناس بهذا.. ولهذا أصبح السدر عندنا من السلع الغاليـة.. وقـد ذكـر بعض كبار المفتين عندنا وصفة يبيعها الرقاة بوزنها ذهبا(1).

قال: وما للمفتين وهذا!؟.. إن دورهم هـو تبـيين أحكـام اللـه التي نص عليها رسول الله ﷺ لا التي نص عليها وهب بن منبه.

قلت: ولكنها مجربـة، وقـد قـال بعض علمائنـا المعتـبرين عن تلك الوصـفة: (وكـذا رقيت على بعض الأقـارب أو الأحبـاب الـذين حبسوا عن نسائهم، بما ذكره ابن كثير من ورقات السدر، وقــراءة الآيات التي ذكرها، فوقع الشفاء بإذن الله)(2)

قال: عجبا لكم ولعلمائكم.. لا تعد لروايـة مثـل هـذه الأمـور.. فإني أشعر بالأسى عندما أسمع هذا.. إن العـالم في الأمـة خليفـة لرسول الله ﷺ، فلا ينبغي أن يجاوز ما كان ﷺ يفعلـه.. فهـل رأيت ﷺ فعل هذا؟

قلت: لا..

قال: فاكتفوا بما فعله.. ولا تبتدعوا، فكل بدعة ضلالة.

قلت: ولكن الرقية مما يجوز فيه الاجتهاد.

قال: ومن قال ذلك؟.. ومن قال بأن هناك رقية للسحر أصلا، ألم يحصر ﷺ الرقى في العين وذوات السموم؟

---

1) انظر: مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز: 3 / 279 – 280.

2) الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة: 606.

قلت: بلى.. ولكن العلماء يقيسون.

قال: ما أورد إبليس في الضلالة إلا قياسه..

قلت:..

قال: سنذهب إلى قاعات الرقى، وسنرى الأحكـام المرتبطـة بها، فلا تعجل.

الاستعاذة من العين

قصدنا القاعـة الثالثـة من قاعـات حصـن الاسـتعاذة، فـرأيت لافتة مكتوبا عليها قوله ﷺ: (اسـتعيذوا باللـه من العين، فـإن العين حق)[1]

قلت للمعلم: أهذه هي القاعة التي تعالج فيها العين؟

قال: أجل.. فقد ذكر هذا الحديث المرض وعلاجـه.. وفيـه مـا يغني عن كل تلك الأسفار التي اشتغلتم بها، وشغلتم الناس.

قلت: هذا صحيح.. فإن قومي يبالغون في أمـر العين كثـيرا.. بـل لـو تتبعت كلامهم لتصـورت أن كـل مـا يحـدث في الكـون من حوادث ليس إلا أثرا من آثار بعض العيون السامة.

قال: فالنبي ﷺ ـ لـذلك ــ أثبت تـأثير العين، ولكنـه لم يكتـف بذلك، بل أعطى العلاج الشرعي الذي يكف شرها.

قلت: تقصد الاستعاذة.

قال: أجل.. فهي وحدها الكافية الشافية، ولهذا كـان ﷺ يعـوّذ الحسن والحسـين بقولـه: (أعيـذكما بكلمـات اللّـه التامـة من كـل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة)، ويقـول: (هكـذا كـان إبـراهيم

1) ابن ماجه كتاب الطب باب العين، رقم (3508).

يعوذ إسحاق وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ)(1)

قلت: ولكن العين خطيرة، إنها تدخل الرجل القبر، والجمل القدر(2)؟

قال: وهل يمكن للعين، أي عين أن تقتحم أسوار قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق:5).. الحق أقول لك: إن العين أضعفا شأنا، وصاحبها أهون أمرا من أن نلتفت إليه أو يستعبدنا..

ولهذا لم يأت في آية واحدة من القرآن الكريم: (إن العين لكم عدو مبين)، بل عدونا الوحيد المبين هو الشيطان الرجيم بوساوسه، لا بصرعه، قال تعالى:﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر:6)

ثم سكت هنيهة، وصاح، وكأنه يخاطب اللاشيء: ارجع أيها الخائف من العين إلى ربك، واسأله مزيد نعمه، ولا تخف أن يسلبها منك أي عائن، بل خف معاصيك وانحرافك وجحودك ولجوءك لغير حصون الله.. أما إذا أبيت إلا أن تخاف هؤلاء، فاسمع لما يقول الله تعالى فيمن استجار من الرمضاء بالنار، قال تعالى:﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ (الجن:6).. فلن يزيدك هؤلاء إلا رهقا وخوفا، ولن تشعر بلذة أي نعمة وعيون الناس ترمقك لتسلبها منك.

قلت: ولكن ورد في السنن ما يدل على الاسترقاء من العين بالاغتسال وغيره، فقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا)(3)

قال: هذا صحيح.. ولكن الرقية ـ كما سنرى رخصة ـ والكمال في الاكتفاء بالاستعاذة التي كان يفعلها ﷺ، ويخبر أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا يفعلونها، ألم تسمع قوله ﷺ في

---

1) البخاري وأهل السنن.

2) روي في هذا:(العين تدخل الرجل القبر وتدخل الجمل القدر) ابن عدي وأبو نعيم في الحلية.

3) مسلم.

السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)(1)

قلت: ولكن النبي ﷺ قال: (لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ)(2)

قال: هذا صحيح، ولكنه لا ينافي كونها رخصة، لأن النبي ﷺ وصفهم بكونهم لا يكتوون مع ورود النصوص بإباحة الكي.

قلت: فلم كان الأمر كذلك؟

قال: لقد وصف رسول الله ﷺ السبعين ألفا بكونهم (على ربهم يتوكلون) والمتوكل هو الواثق في الله الراضي بتحصين الله المكتفي به، أما القاصر عن هذه الرتبة، فإنه يحتاج إلى أسلحة أخرى رخص فيها ﷺ كالاغتسال ونحوه..

قلت: ولكن ـ يا معلم ـ ألم يبلغك حديث سهل بن حنيف، فقد روي أن أباه حدّثه: أن رسول اللّه ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من (الجحفة) اغتسل سهل بن الأحنف، وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، فلبط سهل، فأتى رسول اللّه ﷺ، فقيل له: يا رسول اللّه هل لك في سهل؟ واللّه ما يرفع رأسه ولا يفيق، قال: (هل تتهمون فيه من أحد؟)، قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول اللّه ﷺ عامرا فتغيظ عليه، وقال: (علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برّكت؟)، ثم قال: (اغتسل له)، فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبته وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صبَّ ذلك الماء عليه، فصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفأ القدح وراءه ففعل ذلك فراح سهل مع الناس

1) البخاري ومسلم.

2) أبو داود.

ليس به بأس(1).

قـال: هـذه حادثـة خاصة(2).. ولا يمكن القيـاس عليها(3)، ولا اعتبارها من الكمال.

قلت: كيف هذا؟

قال: أرأيت لو أن شخصا مثل سهل مر في شـارع، فأصـابته

---

1) أحمد ورواه ابن ماجة بنحوه.

2) نرى أن هذا النوع من العلاج خاص بمن حصل منه ما حصل من عامر بن ربيعـة، حيث أنه لم يكتف بإذيته بعينه بل صرح بذلك، حيث قال:(ما رأيتُ كاليوم ولا جِلْـدَ مُخَبَّأة) بدون أن يبرك، أما من لم يتلفظ بمثل هذا، واتهم مجـرد تهمـة، فإنـه من الحـرج العظيم تكليفه بالاغتسال، ففي ذلك ما قد يؤثر في العلاقات الاجتماعية التي جـاء الشـرع بطلب تماسكها.

3) بنى المتـأخرون على هـذا، لتصـورهم جـواز القيـاس في مثـل هـذه المسـائل، فأضافوا أمورا كثيرة كلها من البدع المحدثة، وخطرهـا ليس في كونهـا بدعـة فقـط، مـع خطورة البدع، بل في تأثيرها الخطير علىالعلاقات الاجتماعية بين المسلمين، والوسـاوس الكثيرة التي تبثها في صفوفهم.

فمما أضيف في عصرنا من أسـاليب اسـتخدام آثـار المـريض الداخليـة أو الخارجيـة ووضعها بالماء ورشه بعد ذلك على المعين، وقد أفتى بجواز ذلك الشيخ محمـد بن صـالح العثيمين، حيث يقول:(وهناك طريقة أخـرى - لعلاج العين - ولا مـانع منهـا أيضـا، وهي أن يؤخـذ شـيء من شـعاره أي مـا يلي جسـمه من الثيـاب كـالثوب، والطاقيـة والسـروال وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش بـه المصـاب، أو يشربه. وهو مجرب) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد: 1 / 94.

والأخطر من ذلك قوله في موضع آخر:(وقـد جـرت العـادة عنـدنا أنهم يأخـذون من العائن ما يباشر جسمه من اللبـاس مثـل الطاقيـة ومـا أشـبه ذلـك ويربصـونها بالمـاء ثم يسقونها المصاب ورأينا ذلك يفيده (حسبما تواتر عندنا من النقول)) [انظـر: فتـاوى الشـيخ محمد بن صالح العثيمين – 1 /ـ 196.]، فأي طبيب يسمح بمثل هذا السـلوك، وأي طبـع سليم يسمح لنفسه أن يتناول مثل هذا الشراب.

ومن الأساليب المعاصرة التي وجدت من يفتي بجوازهـا، بـل يحث عليهـا اسـتخدام أثر العائن على أي صفة كانت كالماء والقهوة والنوى.

فقد سئل الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين عن أخـذ بعض الأثـر المتبقي من بعض الناس الذين يشك بأنهم أصابوا شخص ما بالعين، كأخذ المتبقي في الكأس من ماء أو شراب، أو فضلات الأكل، وهل هذا صحيح معتمد؟

فأجاب:(نعم كل ذلك صحيح ونافع بالتجربة، وكذا غسل ثوبـه الـذي يلاصـق بدنـه أو يعرق فيه، أو غسل رجليه أو يديه لعموم (وإذا استغسلتم فاغسلوا) فهو يعم غسل البـدن كله، أو غسل بعض البـدن، وحيث جـرب أن أخـذ شـيء من أثـره يفيـد، فـإن ذلـك جـائز

عيون الشارع جميعا، أو ظهر على هذه الشاشـات الـتي تعتكفـون عليها، فأصابته عيون الملايين، كيف يتعامل مع عيونهم؟

قلت: في ذلك الحين يكفيه أن يستعيذ.

قال: فكيف تأمره بالاستعاذة إذا صوبت إليـه سـهام الملايين، ولا تأمره بها إذا أصابه سهم واحد؟

قلت: السهم الواحد يمكن استغساله بخلاف السهام الكثيرة.

قال: وهل الاستعاذة تكفي من غير حاجة إلى الاغتسال؟

قلت: ورد النص بالاغتسال.

قال: وورد النص بغيره، بل ورد مـا يـدل على أن الكمـال في غيره ألم تقرأ رقية جبريل لرسول الله ﷺ؟

قلت: بلى.. فعندما اشتكى رسول اللـه ﷺ، أتـاه جبريـل ، فقال: (باسم اللّـه أرقيـك، من كـل شـيء يؤذيـك، من كـل حاسـد وعين واللّه يشفيك)(1)

كغسل نعله الذي يلبسه، أو جوربه الذي يباشر جلـده، لأمـره في الحـديث بغسـل داخلـه إزاره، أي الذي يلي جسده، وكذا ما مست يداه من عصى أو قفـاز، وكـذا فضـل وضـوئه الذي اغترف منه، أو ما لفظه من النوى، أو تعـرق من عظم أو نحـو ذلـك، وهـذا بحسـب التجربة، وقد يصيب بإذن الله، وقد يستعصي ذلك بحسب قوة نفس العائن وضعفها)

ومن الأساليب المعاصرة التي وجدت من يفتي بجوازهـا، بـل يحث عليهـا اسـتخدام آثار عتبات الأبواب أو أقفالها ونحوه ووضعها بالماء والاستحمام بها لإزالة أثـر العين، فقـد سئل الشـيخ عبداللـه بن عبـدالرحمن الجـبرين عن جـواز اسـتخدام آثـار عتبـات الأبـواب والأقفال وذلك عن طريق مسح المكان ووضع ذلك في الماء واغتسال المعين منه؟

فأجاب:(قـد عـرف بالتجربة أن غسـل كـل مـا مسـه العـائن ثم شـرب المعين من غسالته أو صبه عليه يكون سببا في الشـفاء من تلـك العين بـإذن اللـه تعـالى، وحيث أن العائن يمس قفل الباب أو مفتح السيارة وقد يطأ حافيا على عتبة الباب أو يمس العصـا أو المظلة أو الفنجان للقهوة أو الشاي، أو يأكـل من التمـر ويلفـظ النـوى بعـد أن يمصـه بفمه، فإن غسل هذه كلها مما جرب وحصل معه زوال أثـر العين بـإذن اللـه قياسـا على أمره بالاغتسال كما في الحديث الصحيح) انظر: المنهل المعين في إثبات حقيقة الحسـد والعين – ص 237)

1) أحمد.

قـال: فهـذه الاسـتعاذة كافيـة شـافية، وهي لا تحتـاج إلى مـا يفعله رقاتكم مما يسمونه رقية التشخص.

قلت: كيف هذا؟

قال: لقد دعا جبريل لرسول الله ﷺ دعاء شاملا، فقـال: (من كل شيء يؤذيك)، وهذا يكفي.. فلا يضـرك أن تعلم المصـدر الـذي يؤذيك أو لا تعلمه.

قلت: اضرب لي مثالا يوضح لي هذا.

قال: أرأيت لو اشـتريت مـا تسـمونه بالمبيـد، وكـان في هـذا المبيد قدرات هائلة بحيث تقتل جميـع أنـواع الحشـرات، ثم جهلت أنت بعض هذه الأنواع.. أفترى المبيد فاتكا بها، أم أنـه لا يفتـك بهـا حتى تعرف ذلك النوع؟

قلت: لا يحتاج المبيد مني إلى معرفة ذلك.

قال: فهكذا فعل جبريل عليه السلام مع رسول الله ﷺ.

قلت: ولكنه جبريل.. وما أدراك ما جبريل؟

قال: فإن لم تقتدوا بجبريل عليه السلام، فبمن تقتدون؟.. أبإبليس؟

قلت: من الأمور التي نصـوا عليهـا من بـاب الوقايـة من شـر العين، ستر محاسن من يخاف عليه من العين.

قال: فبم استدلوا على ذلك؟

قلت: هذا أمر يكاد يكـون متفقـا عليـه، فقـد روي أن عثمـان رأى صبيا مليحا، فقال: (دسموا نونته(1)، لئلا تصيبه العين)(2)

وقد قال الشاعر:

---

1) أى: سَوِّدُوا نونته، والنونة: النُّقرة التى تكون فى ذقن الصبىِّ الصغير.

2) البغوىُّ فى كتاب (شرح السُّنَّة)

ما كان أحوج ذا الكمال إلى   عيب يوقيه من العين

ونتيجة لهذا، نص كل من تكلم في هذا الباب على هذا النوع من الوقاية، وقد قال محمد بن مفلح: (وليحترز الحسن من العين والحسد بتوحيش حسنه)(1)

وقد اعتبر بعضهم هذا مما شرعه الله من أسباب الوقاية مستدلا عليه بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ (النساء – الآية 71) قائلا: (وهو يعم الحذر من كل ما فيه ضرر على النفس أو المال)(2)

قال: إن هذا الكلام يحمل أنفاسا من شؤم التطير، وخطره عظيم، لأن الأدلة الشرعية تأمر بإظهار نعمة الله لا سترها، وقد قال ﷺ: (من كان له شعر فليكرمه)(3)، وقد قال ﷺ: (إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويبغض البؤس والتباؤس)(4)

قلت: ولكن النبي ﷺ قال: (استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود)(5)

قال: إن هذا الحديث لا يدل على هذا المعنى، بل هو من جنس قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (يوسف:5)

فالخوف الذي خافه يعقوب عليه السلام هنا ليس خوفا من العين، وإنما الخوف من كيد إخوته له، ولذلك أمر النبي ﷺ بالكتمان عن

1) الآداب الشرعية – 3 / 60

2) انظر: المنهل المعين في إثبات حقيقة الحسد والعين - 218، 219.

3) أبو داود.

4) البيهقي عن أبي سعيد.

5) العقيلي، وابن عدي، والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، والخرائطي في إعتلال القلوب وابن عساكر، قال المناوي في فيض القدير (1/493): الحديث ضعيف ومنقطع، ولما ساق الحافظ العراقي الخبر المشروح جزم بضعفه واقتصر عليه.

الحسدة حتى لا يسعوا في خلاف مقصود المحسود.

قلت: وما تقول فيما قال المفسرون من قوله تعالى: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (يوسف:67)، فقد أطبق المفسرون على اعتبار نهيه إياهم عن الدخول من باب واحد من باب الخوف من العين.

قال: لا ينافي ذلك ما ذكرنا، لأنه لا يحصل بدخولهم من أبواب متفرقة أي مضرة، فهم لم يكتموا أي نعمة.

زيادة على أن مراد يعقوب ﷺ هو الاحتياط الأمني لهم، ذلك أن دخول هذه المجموعة إلى مصر والسير في شوارعها، قد يثير الحسد والبغضاء في بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدّهم عند السلطان ويظهرونهم كمجموعة أجنبية تحاول العبث بأمن البلد ونظامه، فحاول يعقوب ﷺ أن يجنبهم بنصيحته عن هذه المشاكل[1].

قلت: وما الخطر في هذا النوع من الوقاية؟

قال: خطره أنه جر سلوكيات كثيرة منحرفة في المجتمع، تقرب من التطير المنهي عنه، فلذلك كان الأولى منعه، والاكتفاء بما ورد في النصوص الصحيحة من التعويذات.

فالنبي ﷺ لم يدسم نونة الحسن والحسين مع جمالهما وكمالهما وكونهما من آل بيت النبوة، وإنما كان يعوذهما بقوله: (أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة) ويقول: (هكذا كان إبراهيم يعوذ اسحق واسماعيل عليهما السلام)[2]

وكان رسولُ اللهِ ﷺ إذا أوى إلى فراشِهِ نَفَثَ فى كَفَّيْهِ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ والمُعَوِّذَتَيْن. ثم يمسحُ بهما وجهه، وما بلغت يدُه من جسده.

1) انظر: الأمثل، وهو قول للجبائي، مع العلم أن الشيرازي لم ينف ما ذكره المفسرون من العين.

2) البخاري.

قلت له: مما ذكروه من أساليب الوقاية من العين(الإحسان إلى من عرفت أصابته بالعين كإحسان الغني إلى الفقير المستشرف لما في يد الغني)(1) كأسلوب من أساليب الوقاية.

قال لي: بأي نص استدلوا؟

قلت: لا أعلم أنهم ذكروا نصا.

فقال: فهذا كلام بلا علم، بل بما يناقض العلم، فمن أي الأبواب يدخل هذا الإحسان؟، هل هو من الصدقات؟ أو من الهبات؟

قلت مازحا: لعله يخرجه من الزكاة ليضعه في نصيب المؤلفة قلوبهم.

ضحك، وقال: وأخير تحول الحاسد إلى المؤلفة قلوبهم.

قلت له: ما تقول فيما ذكره العلماء من معاقبة العائن، كقول ابن القيم: (وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء أن من عرف بذلك حبسه الإمام وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت وهذا هو الصواب قطعا)(2)

ومثله قول العيني ناقلا عن القاضي عياض ناقلا عن بعض العلماء: (ينبغي إذا عرف واحد بالإصابة بالعين أن يجتنب وأن يحترز منه وينبغي للإمام منعه من مداخلة الناس، ويلزمه بلزوم بيته، وإن كان فقيرا لزمه ما يكفيه فضرره أكثر من آكل الثوم والبصل الذي منعه النبي ﷺ من دخول المسجد لئلا يؤذي الناس ومن ضرر المجذوم الذي منعه عمر)(3)

قال: كيف يقولون هذا، وهم يعلمون أن العقوبات في الشرع مقدرة، وأنها مع ذلك تدرأ بأبسط الشبهات، فكيف يسمح لموسوس مغرور منبهر بكمالاته أن يحبس الناس مدى الحياة

---

1) قاله الدكتور عبدالله الطيار والشيخ سامي المبارك بتقريض الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، انظر: فتح الحق المبين في علاج الصرع والسحر والعين – ص 192.

2) الطب النبوي، ص 168.

3) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري: 17 / 405.

لكونهم أعجبوا بطلعته البهية، أو جماله الرائع؟

ثم ما هذا القياس الذي قاسوه، وهل حبس رسول الله ﷺ آكل الثوم والبصل؟

ثم كيف يقاس الثوم والبصل والجذام، وهما من الشهادة على العين، وهي غيب؟

ثم لماذا لم يحكموا بفقأ عينه، فهي المعاقبة، لا هو، ولعل ذلك أرحم له من الحبس مدى الحياة؟

قلت: فقد ذكروا صيغا وأورادا مجربة في دفع شر العين.

قال: فاعرض علي ما ذكروا.

قلت: من الأمثلة القديمة على ذلك ما ذكره ابن القيم في الكتاب الذي خصصه لهدي النبي ﷺ، حيث قال: (من الرقى التى ترد العين ما ذكر عن أبى عبد الله الساجى، أنه كان فى بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فارهة، وكان فى الرفقة رجل عائن، قلما نظر إلى شىء إلا أتلفه، قيل لأبى عبد الله: احفظ ناقتك من العائن، فقال: ليس له إلى ناقتى سبيل، فأخبر العائن بقوله، فتحين غيبة أبى عبد الله، فجاء إلى رحله، فنظر إلى الناقة، فاضطربت وسقطت، فجاء أبو عبد الله، فأخبر أن العائن قد عانها، وهى كما ترى، فقال: دلونى عليه. فدل، فوقف عليه، وقال: بسم الله، حبس حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس، ردت عين العائن عليه، وعلى أحب الناس إليه، ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(الملك: 3-4) فخرجت حدقتا العائن، وقامت الناقة لا بأس بها)(1)

قال: ما هذا؟ لا يصح أن يذكر هذا في كتاب خصص لهدي النبي ﷺ.

قلت: فما تنكر منه؟

قال: لا شيء في هذا النص معروف، بل كله منكر، فهذه صيغ غريبة، تحمل عقائد غريبة وسلوكا غريبا لا علاقة له بعقائد

---

1) زاد المعاد: 4/174.

الإسلام ولا سلوكه.

فما كل تلك الثقة بتلك الألفاظ المسجوعة التي لا تختلف عن ألفاظ مسيملة؟

أو ليس في ذكرها بتلك الثقة دعوة للاستعاضة عن استعاذت القرآن والسنة، فقد ذكرها، وكأنها الطلسم الذي ينفي كل سحر، ويحل كل تعويذة؟

ثم لماذا ترد العين على أحب الناس إليه، وما ذنب المسكين حتى يتحمل جريرة العائن؟

ثم لماذا تحور معاني القرآن الكريم لغير ما أنزلت له؟

ثم لماذا كانت الناقة أهم عنده من أخيه، فقد أقام ناقته بتعويذته، وأخرج حدقتي عين أخيه؟

ثم ما معنى (حَبْسٌ حابسٌ، وحَجَرٌ يابِسٌ، وشِهابٌ قابِسٌ)؟

وأسئلة غيرها كثير لا نوجهها إلى ابن القيم، وإنما نوجهها لمن ينشر مثل هذه الشعوذات لينسخ بها المعوذات التي وردت بها النصوص.

قلت: والخطر الأكبر فيما ذكره ابن القيم لا يقتصر على إقراره مثل هذا، بل في إتاحة الفرص لمن يضع مثل هذا الدجل.

قال: أهناك غير هذا؟

قلت: كثير جدا.. وسأقتصر على مثال يكفي وحده لبيان مدى الدجل الذي تحمله الرقية المعاصرة، فقد ذكر بعضهم كيفيات مختلفة لعلاج الحسد، كوصفات تتعلق بالأمراض المختلفة.

فمنها كيفية علاج الحسد في الصحة والجمال، وهذه الكيفية ننقلها بحروفها فيما يلي: (يستمر علاج الحسد في الصحه والجمال إلى ثلاثة أيام وهي على النحو التالي: في اليوم الأول: الاغتسال بماء الوضوء غسلا شرعيا بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس، وبعد الاغتسال، قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة الضحى قراءة سورة يس، وبعد صلاة الظهر قراءة الرقى الشرعية، وبعد

صلاة العصر قراءة سورة يوسف وبعد صلاة المغرب قراءة مجموعة التسابيح، وبعد صلاة العشاء قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار

وفي اليوم الثاني: الاغتسال بماء الوضوء غسلا شرعيا بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس، وبعد الاغتسال قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة الضحى قراءة الأذكار الصباحية، وبعد صلاة الظهر قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة العصر قراءة سورة الكهف ، وبعد صلاة المغرب قراءة مجموعة التسابيح، وبعد صلاة العشاء قراءة الرقى الشرعية.

وفي اليوم الثالث: الاغتسال بماء الوضوء بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس غسلا شرعيا، وبعد الاغتسال قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة الضحى قراءة سورة المزمل، وبعد صلاة الظهر قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة العصر قراءة سورة المدثر ، وبعد صلاة المغرب قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة العشاء قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار)

وهذه كيفية أخرى خاصة بعلاج الحسد في المال والبنين..

قاطعني المعلم قائلا: حسبك .. بأي سند نقل هذا المبتدع كل هذه الكيفيات؟

قلت: لا سند لهذا..

قال: فهي شريعة جديدة وضعوها.. فحذر قومك منها.. وحذرهم من هؤلاء الذين يريدون أن ينسخوا شريعة العقل والحكمة بشريعة الشعوذة والخرافة.

قلت: ألا يمكن أن يقي العائن شر عينه عن الناس؟

قال: بلى، فقد ورد في النصوص ما يدل على إمكانية دفع العائن شر عينه عن الناس.

قلت: فماذا ورد من ذلك؟

قـال: أن يقـول: (اللَّهُمَّ بَـارِكْ عليـه)، وقـد قـال ﷺ لعـامر بن ربيعة لما عان سـهل بن حُـنيف: (ألا بـرَّكْتَ) أى: قلتَ: اللَّهُمَّ بـارِكْ عليه.

ومثله كل الصيغ القريبة من هذا، كقول (ما شـاء اللـه لا قُـوَّة إلا بالله)

قلت: وما علاقة هذه الألفاظ بالوقاية من العين؟

قال: هذا يقودنا إلى سبب العين.

قلت: فما سببها؟

قال: العين القاصرة الحاسدة التي لا ترى فضـل اللـه عليهـا، فدلها رسول اللـه ﷺ على النظـر إلى قـدرة اللـه الـذي لا يعجـزه شيء، فتكسر بقوة الإيمان رماح الحسد.

قلت: لا أقصد هذا.

قال: فما تقصد؟

قلت: لقد خاطبنا المؤمنين.. وبينت وجـه الصـواب في كيفيـة التعامـل مـع العين، فكيـف نخـاطب من ينكرهـا، ونـبين لـه صـدق اعتباره ﷺ العين حقا.

قال: هذا متكلم يبحث عن الشبهات ليرد عليها.. وسيجيبك.

قلت: إنها صدفة غريبة أن يحضر معنا.

قال: ليس هناك مكان للصدفة.. ألم تسمع قولـه تعـالى: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (القمر:49)؟

تدخل الرجل الذي أشار إليه من غـير أن أسـأله، فقـال: لقـد كشفت الدراسـات الحديثة(1) أن للإنسـان قـدرات فـوق القـدرات التي نراها.. وهي ليست حكراً على أحد أو خاصية يتمتع بهـا أنـاس متميزون عن غـيرهم، بـل هي موجـودة في معظم البشـر، وأقـل

1) انظر: كتاب: The Field: The Quest for Secret Force of the Universe نقلا عن: فراس نور الحق محرر موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

البشر، شريطة أن يدرك قدراته ويعرف الطرق لاستخدامها.

قلت: ما تقصد؟

قال: أنا لا أخاطبك أنت.. بل أخـاطب الـذين ينكـرون العين.. والقوى الخارقة.

قلت: أنت تذكر أخبار الدراسات الحديثة.. فعلام استندت هذه الدراسات؟

قال: من الأمثلة الكثيرة التي رأتها القدرة على اختراق المادة بالنفس والتي امتلكها الشـاب ماثيومـانينغ من قريـة لينتـون قـرب مدينة كامبردج، فقـد كـان باسـتطاعته طي الملاعـق والسـكاكين، وتغيـير شـكلها بمجـرد النظـر، وكـان ينظـر إلى عقـارب السـاعة فيوقفها عن الحركة، بل يستطيع إيقـاف التيـار الكهربـائي..و ثبتت لديه القدرة على التأثير في سـريان الـدم في الأوعيـة والشـرايين وكذلك التأثير على مرض السرطان.

ويعرف عن نابليون بونابرت أنـه كـان ذا نظـرة حسـد ثاقبـة، فقد عرف عنه أنـه إذا ثبت نظـره على خصـمه سـبب لـه متـاعب كبيرة، وإذا نظر بنظرته الحاسدة إلى شيء ما حطم ذلك الشيء.

قلت: فكيف تعرفت الدراسات الحديثة على مدى صدق هذا؟

قال: بوسائلها المعروفة.. وسأذكر لك نموذجا عن هـذا بـأكثر هذه الحالات غرابـة، وأكثرهـا مصـداقية، وذات توثيـق علمي، وهي التجربة التي أجريت على نيليا ميخايلوفا التي كان باستطاعتها أنهـا بمجرد النظر من على بعد ستة أقدام أن تفصل بياض البيضــة عن صـفارها مسـتخدمة في ذلـك مقـدرتها الخاصـة جـداً في تحريـك الأجسام المادية عن بعد، ودون أن تقربها.

وقد أجريت هـذه التجربـة وسـط حشـد من العلمـاء بجامعـة لينجراد، وباستخدام آلات التصوير لتسجيل الحدث لحظة بلحظــة،

وباستعمال العديد من الأجهزة التي تقيس الضـغط والنبض وأنـواع الإشعاعات التي تسود المخ أثناء التجربة، وقد نجحت السيدة نيليـا في فصل صفار البيضة عن بياضها خلال نصف ساعة، وقد كشفت الملاحظة وأجهزة القياس على جسد السيدة نيليا عن نشـاط غـير منتظم في القلب مــع زيــادة النبض.. وارتفــاع شــديد في نســبة السكر.. وفقـدت رطلين من وزنهـا.. وخـرجت من التجربـة تعـاني من الضـعف بشـكل عـام.. وأصـيبت بمـا يشـبه فقـدان البصـر المؤقت.. وتعانى من آلام شديدة في الأطراف.. وظلت لعدة أيـام بعد التجربة غير قادرة على النوم.. وفقدت قدرتها على التذوق.

وقد كان اكتشاف حالة السيدة نيليا بفضل العـالم الـبيولوجي إدوارد فاموف، الأستاذ بجامعة موسكو، والذي أعـد دراسـات على قدراتها، وذلك باستخدام عيدان الثقاب التي تستطيع نيليا تحريكهـا بتمرير يـدها عليهـا، وهي مبعـثرة على طاولـة، ثم باسـتخدام لـوح زجاجي بين يديها وبين عيدان الثقاب.

قلت: فكيف فسرت هذه الدراسات هذه الأمور الخارقة؟

قال: لقد ذكرت الكاتبـة والباحثـة الإنجليزيـة والصـحفية الـتي جمعت أخطر دراسـات في مجـال الطاقـة (لين ماكتاجـارات) في كتابها: (البحث عن سر قوة الكون) مـا يـبين تصـورهم لسـر هـذا، فقد ذكرت أن الكون مزود بطاقـة ومتصـل ببعضـه البعض، ويـؤثر كل جزء فيـه بـالآخر، ويبـنى على مـا توصـلت إليـه دراسـات الــ (Quanum Physics) الـتي خـرجت بعـد نيـوتن، ونظريـات ألـبرت آينشتاين في الطاقة والزمان.

فإحدى هذه الدراسـات، على سـبيل المثـال، درسـت الـذرة، وما داخلها (نواة والكترون)، ويسمى هذا العلم الفيزياء الذريــة، ثم درسوا النواة في الداخل والإلكترون، ويسـمى هـذا العلم الفيزيـاء النووية، ثم درسوا جزيئات النواة ويسمى هذا العلم فيزياء الأشـياء أو الجزيئات.

ومعلوم أن الإلكترون يلف حول النواة بعكس مـدار السـاعة ولما نظروا في دوران وحركة الجزيئات الصغيرة في النواة توصلوا إلى حقيقـة مذهلـة حيث أنهـا تتحـرك يمينـاً أو شـمالاً أو بـدوران بحسب فكرة الباحث حيثما توقع تسير.

ولـذلك توصـلوا إلى أن الفكـرة تـؤثر في حركـة الجزيئيـات الداخلية في النواة، وبالتالي فإن الفكرة بقوتها قد تؤثر في النـواة، وإذا كانت أقوى أثرت بالذرة، وإذا كانت أقوى أثرت بالبيئة المليئـة بالذرات، كمـا يحصـل للنفس الحاسـدة أو التخـاطر أو الكشـف أو السحر أو الإلهام أو غيرها من أمور.

ملاجئ إلهية

قصدنا القاعة الرابعـة من قاعـات حصـن الاسـتعاذة، فـرأيت لافتة مكتوبا عليها قوله تعـالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـافِظِينَ (الانفطـار: 10)

قلت للمعلم: ما هذه القاعة؟

قال: هذه القاعة تملأ صدرك بالثقة في الملاجئ التي وضـعها الله لحمايتك.

قلت: ولكن الآية تتحدث عن الملائكة ـ عليهم السلام ـ

قال: لقد شرفكم الله ـ معشر بني آدم ــ بـأن وكـل الملائكـة بحفظكم، فقـال تعـالى: وَهُـوَ الْقَـاهِرُ فَـوْقَ عِبَـادِهِ وَيُرْسِـلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَـاءَ أَحَـدَكُمُ الْمَـوْتُ تَوَفَّتْـهُ رُسُـلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُـونَ (الأنعام:61)، وقال تعالى: ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (الانفطار:10).. وهل يمكن لأي ظلمة أن تمحو نور الملائكة؟

قلت: لقد وردت الآثار التي تبين الوظائف التي وكل بها هؤلاء الملائكة ـ عليهم السلام ـ فعن علي قال: (ليس من عبـد إلا ومعـه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط، أو يتردى في بئر، أو يأكله

سبع، أو غرق أو حرق، فإذا جاء القدر، خلوا بينه وبين القدر)

وقال: (لكل عبد حفظة يحفظونه، لا يخر عليه حائط أو يتردى في بئر أو تصيبه دابة، حتى إذا جاء القدر الذي قـدر لـه، خلت عنـه الحفظة فأصابه ما شاء الله أن يصيبه)(1)

ومن مظاهر الحفظ ما عبر عنه ابن مسعود بقوله: (إن العبـد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حـتى ييسـر لـه فينظـر اللـه إليـه، فيقـول للملائكـة اصـرفوه عنـه فإنـه إن يسـرته لـه أدخلتـه النـار، فيصرفه الله عنه فيظل يتطير بقوله سبني فلان وأهانني فلان، وما هو إلا فضل الله عز جل)

قـال: وقـد نص القـرآن الكـريم على تعـدد هـؤلاء الملائكـة الحفظة وتعاقبهم على الإنسان، فقال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَـاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد:11) أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفـظ الأعمـال من خـير أو شر.

قلت: فالإنسـان بهـذا الاعتبـار محـاط في كـل وقت بأربعـة ملائكة، اثنان عن اليمين والشمال، يكتبان الأعمال، صـاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكـان آخـران يحفظانه ويحرسانه، وأحد من ورائه وآخر من قدامه.

قال: بل روي أكثر من هذا العدد بكثير، فقد قال رسـول اللـه ﷺ: (وكل بالمؤمن ثلثمائة وستون ملكا، يدفعون عنـه مـا لم يقـدر عليه من ذلك، للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يـذب عن قصـعة العسل من الذباب في اليـوم الصـائف، ومـا لـو بـدا لكم لرأيتمـوه على كل سهل وجبل، كلهم باسط يديه فاغر فاه، وما لو وكل العبد فيه إلى نفسه طرفة عين، لاختطفته الشياطين)(2)

وقد روي من شدة حرص الملائكة ـ عليهم السلام ـ على من يوكلان به إلى درجات أنهم لا ينصرفون عنه إلا بعـد الاطمئنـان إلى

1) أبو داود في القدر.

2) ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان، والطبراني والصابوني في المائتين.

تسليمه لمن يعقبهم من الملائكة ـ عليهم السلام ـ، قال أبو أمامـة: (ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه، حتى يسلمه للذي قدر له)

قلت: فصحبة الإنسان للملائكة ـ عليهم السلام ـ دائمة؟

قال: أجل.. فقـد قـال ﷺ: (إن معكم من لا يفـارقكم إلا عنـد الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم)(1)

قلت: ولكن كيف تقول هذا ـ يا معلم ــ والإنسـان قـد تعتريـه العوارض، وتنزل به الآفات، أترى الملائكة ـ عليهم الصلاة والسـلام ـ تقصر في وظائفها؟

قال: لا.. معاذ الله.. إن هذا الحفظ مرتبط بأمر الله، كما قال تعالى: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الرعد:11)، قال ابن عباس في تفسيرها: (ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قــدر الله خلوا عنه)

قلت: فهل لسلوك الإنسان وعمله تأثير في هذا؟

قال: أجل.. لقـد ورد في النصـوص مـا يـدل على أن لأعمـال الإنسان دورا في هذا الحفـظ، كمـا قـال ﷺ لابن عبـاس: (يـا غلام احفظ الله يحفظك احفظ اللـه تجـده تجاهـك وإذا سـألت فاسـأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمـة لـو اجتمعت على أن ينفعـوك بشـيء لم يكتبـه اللـه لـك لم يقـدروا على ذلـك، ولـو اجتمعوا على أن يضـروك بشـيء لم يكتبـه اللـه عليـك لم يقـدروا على ذلك قضى القضاء وجفت الأقلام وطويت الصحف)(2)

ولهذا ورد بعد قولـه تعـالى: ﴿ لَـهُ مُعَقِّبَـاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد:11) قوله تعـالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:11)

ويروى في هذا أن الله تعـالى أوحى إلى نـبي من أنبيـاء بـني إسـرائيل أن قـل لقومـك: (إنـه ليس من أهـل قريـة ولا أهـل بيت

---

1) الترمذي، وقال: غريب.

2) سبق تخريجه.

يكونون على طاعة اللّه فيتحولون منهـا إلى معصـية اللّـه إلا حـوّل اللّه عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون)

***

رأيت أبوابا كثيرة داخـل هـذه القاعـة، فسـألت المعلم عنهـا، فقال: هـذه أبـواب الملاجئ الـتي نصـبها اللـه لعبـاده ليـؤووا إليهـا فيقيهم من كل بلاء.

قلت: فهل سنزورها جميعا؟

قال: لا.. سنكتفي بزيارة ثلاثة منها.

قلت: فما أولها؟

قال: القرآن الكريم، فهو الكتاب الذي يضعك في محلــك من هذا الوجود، وينفي عنك الوساوس الـتي تنفخهـا الشـياطين.. وهـو أكبر الملاجئ وأعظمها.

قلت: والثاني؟

قال: دعاء الله تعالى والاستعاذة به والاطراح بين يديـه، وهـو لجوء محض، وافتقار خالص.

قلت: والثالث؟

قال: هو الرقى الشرعية التي سـنها لنـا النـبي ﷺ، وهي نـوع من العلاج الخاص الممزوج بالوساطة والأسباب.

القرآن الكريم:

دخلنا القاعة الأولى، وقد كتب على بابها قوله تعـالى: وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (الاسراء:82)

قلت: هـل يبحث الأطبـاء في هـذا القسـم عن الآيـات الـتي يمكن الاستشفاء بها للحالات المختلفة؟

قال: ما تقصد بذلك؟

قلت: لقد ذكر الله تعالى أن منه ما هو شفاء.. ومن تدل على البعضية.

قال: ولم لم تقل بأنها لبيان الجنس لا للتبعيض؟

قلت: لقد رأيت قومي يستعملون بعض الآيات في التداوي، ويخبرون بأنهم وجدوا لها تأثيرات معينة.

قال: فكيف تتعاملون مع الآيات التي اكتشفوها؟

قلت: نعتبرها من المجربات الناجحة، فنستعملها كما استعملوها.

قال: وتقعون في تحريف لكلام الله بسبب ذلك.

قلت: كيف؟

قال: تنحرفون بالقرآن الكريم عن هدفه.. فتصبح آيات القرآن الكريم طلاسم وتعاويذ.

قلت: وهل القول بكون القرآن الكريم جميعا شفاء يقي من هذا؟

قال: أجل.. لأنك تتعامل معه كليا، لا جزئيا.. وتتعامل مع معانيه وألفاظه، وهو ما يحفظك من مخاطر سوء التعامل معه(1).

قلت: ولكن النبي ﷺ قال لأولئك النفر عن الفاتحة: (وما أدراك أنها رقية)، وكان ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات

---

1) والقرآن الكريم ـ من جهة أخرى ـ علاج خاص سواء كان ذلك للأمراض النفسية والفكرية أم للأمراض البدنية.

فمن مرض قلبه بالشهوات عولج بمواعظ القرآن الكريم وتخويفاته، ومن غليه الخوف عولج بما ورد في القرآن الكريم من آيات الرجاء والرحمة.. وهكذا يعالج كل شخص بما يتناسب مع دائه.

ومثل ذلك الأمراض الجسدية، فهناك آيات خاصة أخبرت النصوص بتأثيرها، فهي شفاء، مع أن شفاء في القرآن الكريم في أصله شامل لآياته جميعا.

وسيتعمق هذا المفهوم من خلال ما سنطرحه هنا من سر تأثير القرآن الكريم العلاجي.

وينفث، فالنبي ﷺ خصص سورا معينة للاستعاذة والدعاء.

قال: صدقت.. وقد ذكرت أن النبي ﷺ هو الذي فعل هذا، وقاله.. فإن جاءنا الخبر عنه قبلناه.. أما إن جاءنا عن غيره.. فلا نقبله إلا إذا استدل له بما عرفنا من مصدر الشريعة.

ثم.. ألم تسمع قوله تعالى وهو يقرر كون القرآن الكريم علاجا شاملا لكل الأحوال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:57)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: 44)

قلت: بلى.. وقد وعيت ما قلت.

رأيت رجلين في القاعة التي تعالج بالقرآن الكريم واقفين أمام ملأ من الناس، فسألت المعلم عنهما، فقال: هذان الرجلان يمثلان النوعان الأساسيان للعلاج بالقرآن الكريم، أما أحدهما، فيمثل جانب معانيه، وتأثيراتها التي نعرفها بالحس، وأما الآخر، فيمثل جانب ألفاظه ومعانيه، وتأثيراتها التي تأتينا من الغيب.

قصدنا الرجل الأول، وقد كان على ما يبدو عالما جليلا، قد تشرب معاني القرآن الكريم وانصبغ بها، فسمعناه يقول: إن الأدوية القرآنية التي جعلها الله شفاء لأمراض الصدور.. لا يؤتي أكلها، ولا ينجع التداوي بها إلا لمن تشرب معاني القرآن الكريم وفهمها حق فهمها.

ألم تسمعوا الله تعالى، وهو يقول: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ (الاسراء:82)، فقد اعتبر القرآن الكريم شفاء للمؤمنين، ولكنه في نفس الوقت لا يزيد الظالمين إلا خسارا.

ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت:44)، فقد أخبر تعالى أنه هدى وشفاء للمؤمنين،

وأنه ليس سوى بلاء على غيرهم.

ولهذا.. فإن الذي لا يعير القـرآن الكـريم اهتمامـه، ولا يتـأدب معه فستنقلب وبالا عليه، فهو شـفاء لمن عـرف كيـف يسـتخدمه، ووبال على من استعمله في غير ما أنزل له.

قال أحدهم: إنـه في ذلـك يشـبه كـل دواء اسـتعمل في غـير محله، فإن ضرره أكثر من نفعه.

قال: أجل.. ولهذا، فإن تأمل الآيات الـتي ورد الاستشـفاء بهـا تدل على هذا المعنى..

تركنا الرجـل الأول، وانتقلنـا إلى الثـاني، وهـو المكلـف ببيـان التأثير الغيبي للعلاج بالقرآن الكريم، فسمعته يقول: لقد وضع اللـه تعالى في كلامه من الخواص ما يداوي العلل.

وقــد ورد في النصــوص مــا يــبين قــدرات القــرآن الكــريم العلاجية، لا مع الأمراض النفسية وحدها، بل مع الأمراض الجسـدية أيضا، ففي الحديث أن ناسـاً من أصـحاب النـبي ﷺ أتـوا على حي من أحياء العرب، فلم يقروهم فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئــك، فقــالوا: (هــل معكم من دواء أو راقٍ؟ فقــالوا إنكم لم تقرونــا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ، فأتوا بالشاء فقالوا: لا نأخــذه حتى نسأل النبي ﷺ فسألوه فضحك وقال: (ومـا أدراك أنهـا رقيـة خذوها واضربوا لي بسهم)(1)

وفي الحديث أنَّ النبي ﷺ كـان إذا اشـتكى يقـرأ على نفسـه بالمعوذات وينفث (2).

قلت: فهل كان لهذه القراءات تأثيرها العلاجي؟

قال: لا شك في ذلك.. وتأثيرها لا يزال يشهده الكثير.. بل قد

---

1) البخاري.

2) البخاري.

وفقني الله تعالى، فأجريت[1] بحثاً قيماً حول تأثير القـرآن الكـريم في هذه الناحية، حيث أخذت ثلاث مجموعات من الناس، وهم من الأميركان الذين لا يتكلمـون اللغـة العربيـة ولا يفهموهـا، ووصـلتهم بالمقاييس الطبية الدقيقـة كقيـاس ضـغط الـدم، ونبضـات القلب، وتخطيط الدماغ، وتخطيط العضلات، وقياس درجة التعرق، وقرأت على المجموعـة الأولى آيـات من القـرآن الكـريم، وقـرأت على المجموعة الثانيـة كلامـا عاديـا باللغـة العربيـة، والمجموعـة الثالثـة للسيطرة.

فوجـدت أن المتغـيرات الفسـلجية[2] عنـد المجموعـة الأولى التي قـرأت القـرآن الكـريم عليهـا، وارتفـاع ضـغط الـدم، وتقلص العضلات، وانتصاب الشـعر، والتعـرق، هـذه المؤشـرات –وظـائف الأعضاء الفسلجية- تحسنت كثـيراً للـذين سـمعوا القـرآن الكـريم، سماعا مجردا مع عدم فهم معناه، مقارنة بالمجموعات الأخرى.

وللتأكـــد من صـــحة هـــذا، نقلت المجموعـــات، فحصـــل للمجموعات الأخرى عندما سمعت القرآن الكريم نفس الاسـتجابة والتغيرات الإيجابية.

قال لـه بعض الحاضـرين: ولكن نـرى أن هنـاك من يسـتخدم الآيات القرآنية في هذا المجال، فيسيء الاستخدام.

قال: فماذا يفعلون؟

قال الرجل: أكثرهم لا يقـرأ القـرآن الكـريم لكونـه كلام اللـه يداوي بألفاظه ومعانيه، ولكن لجر من يتوهم أنه سبب العلة، وهـو الجني ـ في أكـثر الأحيـان ــ المسـتولي على ضـحيته الإنسـية إلى مسرحية تطول أو تقصر بحسب وقت الراقي المشعوذ.

قـال: دعـك من أولئـك.. فقـد شـغلهم الجن عن اللـه، وعن أنفسهم، وعن الرسالة التي كلفهم الله بأدائها.

قلت: ولكن ألا يحتمل أن يكون ما ذكروه صحيحا.. فقد يكون

---

1) هو الدكتور أحمد القاوي في الولايات المتحدة الأميركية.

2) أي وظائف الأعضاء.

الإنسـان مصـابا بنـوع من المس أو السـحر أو العين أو غيرهـا من أعداء الغيب.

قال: ذلك ممكن.

قـال: وهـذا مـا يـدعوهم إلى بـذل الجهـد في التعـرف على الحالات المختلفة لعلاجها.

قال: وهذا ما أخطأوا فيه..

قلت: فما وجه الخطأ؟

قال: المعالجات القرآنية عامة، فلا نحتاج ـ لكف شـر السـحر أو العين أو إذية الشياطين ـ أن نشخص الداء كمـا تشـخص الأدواء الحسية.

قال أحدهم: أليس التشخيص مقدما على العلاج؟

قـال: أجـل.. ولكن هـذه الأدواء من الغيب الـذي لا نعلمـه، وليس لدينا وسائل العلم به، زيادة على أن هـذه الأدويـة الشـرعية شاملة، وتقضي على مثل هذه الأدواء عرفناها أو لم نعرفها.

فسورة الفلق مثلا تجمع أنواع الاستعاذات من العين والسـحر وغيرها، وهي في ذلك تشبه دواء يقضي على مجموعـة كبـيرة من الأمراض، فإذا ما جهل متناوله مرضا من الأمراض، أولم يعلم كونه مصابا به، ثم تناول ذلك الدواء شفي منه بغض النظر عن علمه بـه أو جهله.

ولهـذا من الأخطـاء الكبـيرة الـتي وقـع فيهـا هـؤلاء الرقـاة المشـعوذون ــ الـذين ابتليت الأمـة والـدين بهم ــ هـو احتكـارهم لتشخيص هذه الأنواع من الأدواء، وكأن لديهم أجهزة خاصة تكشف هذه الأنواع من العلل.

قلت: ولكن العامة لا يقبلون منهم غير هذا.. بل إن العـامي لا يثق بشفاء القرآن الكريم، إلا إذا أخبرته بأنـه معـان أو مسـحور أو تنهشه أحياء الغيب التي لا يراها.

قال: ولكن هذا العامي لا يجسر عن سؤال الطبيب عن علتـه

ليعـرف كيـف يتـأقلم معهـا، بـل يكتفي بتنـاول الـدواء، ولكنـه مـع الراقي الذي عوده أن يطلعه على أعداء الغيب لا يسمح لـه، بـل لا تعظم قيمة الراقي في عينه إلا إذا شخص له ذلك.

قلت: ولكن الـراقي يتأيـد بمـا يقـول العلمـاء، وقـد سـمعت أحـدهم يقـول جوابـا لمن سـأله عن تشـخيص المـرض من قبـل الراقي: (معلـوم أن الـراقي الـذي تتكـرر عليـه الأحـوال ويراجعـه المصابون بالمس والسحر والعين ويعالج كل مرض بما يناسبه أنـه مع كثرة الممارسة يعرف أنواع الأمراض النفسية أو أكثرهـا وذلـك بالعلامات التي تتجلى مع التجارب، فيعرف المباشرة بتغير عينيه أو صفرة أو حمرة في جسده أو نحو ذلك، ولا تحصـل هـذه المعرفـة لكل القراء وقد يدعي المعرفة ولا يوافق ذلك ما يقوله، لأنـه يبـني على الظن الغالب لا على اليقين)(1)

قال: لا ينبغي للعلماء أن يقولوا مثل هذا.. إنهم يفتحـون بهـذا أبوابا يصعب غلقها.

قال آخر: وقد سمعت بعضهم يحث المريض ــ لا إلى اللجـوء إلى الله، ليرفع عنه بلاءه ـ وإنما للبحث عن الوسيط الخبـير الـذي له الحق وحده أن يقرع باب الله، ويعطي صكوك الشفاء للمبتلين، فقد قال: (قد تكون الأعراض مشتركة نتيجة لمعانـاة المـريض من جـراء إصـابته بـأمراض الصـرع والسـحر والعين والحسـد، بسـبب عامل مشترك واحـد نتيجـة اقـتران الأرواح الخبيثـة، وهـذا بالتـالي يحتاج للمعالِج الحاذق المتمرس ليقف على حقيقـة المعانـاة، ومن ثم يحدد الداء، ويصف الدواء النافع بإذن الله تعالى)

قال: فأين يجد هذا الحاذق المتمرس؟

قال الرجل: لعله يقصد نفسه، فقد ذكر بعد هـذا الكلام أنـواع الأعراض وصنفها كما تصـنف أعـراض الأمـراض الحسـية، وبجـرأة دونها جرأة الأطباء الخبراء.

فقـد ذكـر ــ مثلا ــ من أعـراض الاقـتران الكلي حـال إجـراء الرقيـة: (الإغمـاء وتشـنج الأعصـاب، والصـراخ الشـديد والبكـاء،

1) الفتاوى الذهبية في الرقية الشرعية – ص 20، 21، والمفتي هو الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.

وشخوص البصـر، وطـرف العينـان يمنة أو يسـرة، وانتفـاخ الأوداج والصدر واحمرار العينين بشكل غير طبيعي، والقـوة والقـدرة غـير الطبيعية وحركة غـير طبيعيـة وغالبـا مـا تكـون في منطقـة البطن وانتفاخ غير طبيعي في منطقة البطن، وضيقة شديدة في منطقــة الصدر، والقيء والاستفراغ، والاهتزاز والرجفـة الشـديدتان، وتغـير الصوت كليا في بعض الحالات، وإصدار أصوات غريبة)

ومن الطرق الفعالة ـ التي ذكرها ـ للكشف عن صرع الأرواح الخبيثة (المتابعة الخاصة بحركة العين)

وهـو ورع فلـذلك قـال: (ولا يجـوز النظـر في أعين النســاء مطلقا، لكافة الأدلة الثابتة من الكتاب والسنة)

ولكنه مع ذلك يعطي البديل الذي يعبر عنـه بقولـه: (ولا بـأس بمتابعـة ذلـك عن طريـق أحـد المحـارم أو المـرافقين للمريضـة، وتدوين الملاحظات التي تعين المعالِج في قيامه بعمله دون الوقوع في الحرج والمخالفة الشرعية)

ثم يذكر الأعـراض الـتي تـدل عليهـا العين من شـؤون الجن، فيذكر الأعراض التالية: (ارتعاش.. عدم القدرة على التركيز.. تغـير في حجم بؤبؤ العين.. الاتجاه المعاكس في حركـة العيـنين.. إغلاق العينين بسرعة وبصورة متكررة.. الصـراخ أو البكـاء.. التنميـل في بعض الأطراف)

قال: فمن أي المصادر يقتبسون هذه المعاني؟

قال أحدهم: هم يسمون هذا النوع من الرقى (رقى شرعية)

قــال: ولكن الشــرعية في المصــطلح الشــرعي تســتدعي الرجوع للمصادر الأصلية، ففي أي مصدر من هـذه المصـادر توجـد هذه الأعراض، وتحدد نوع المس؟

قال آخر: بل إن قراءة بسيطة لما ذكروه من الأعراض، تـدل على مدى الضياع الذي يعيشه هؤلاء، ويريدون من الأمـة أن تعيش معهم فيه، فمن أعراض المس السابقة (الصـدود عن المـذاكرة أو الدراسة أو العمل أو البيت أو الزوجة).. ولهذا إذا أتـاهم من يشـكو

من هذه الأعراض لا يوجهونه إلى الاجتهـاد، ويحضـونه على حسـن الخلق مع أهله، وإنما يجتهدون في حرق الشياطين التي تسـكنه أو دعوتها إلى الإسلام، أما هو فبريء لا حساب عليه، وكيـف يحاسـب على عمل الجني الذي يستوطنه.

قال آخر: والأخطر من ذلك ما ذكروه من عرض (الصدود عن العبادات وعلى الأخص الصلاة وتلاوة القرآن) وهم يتفقون في هذا العرض، وهم بهذا يبرئون أبـا جهـل وغـيره من المشـركين، فلعـل بغضهم للقرآن الكريم والصلاة، لم يكن عمـدا، بـل كـان نوعـا من المس، ولو أن رسول اللـه ﷺ اكتفى بـرقيتهم وأحـرق شـياطينهم لأسـلموا وأحبـوا القـرآن الكـريم، وتهجـدوا مـع رسـول اللـه ﷺ، وهاجروا معه.

الاستعاذات الشرعية:

دخلنا القاعة الثانية، وقد كتب على بابها قوله تعالى:﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر:56)

قلت: أهذه قاعة الاستعاذة من الشياطين؟

قـال: هـذه القاعـة تعلم فيهـا الاسـتعاذة بجميـع أنواعهـا.. والشياطين من أنواع المستعاذ منهم.

قلت: ولكن القرآن الكريم ذكر الاستعاذة من الشـياطين في مواضع منـه، فاللـه تعـالى يقـول:﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَـزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (لأعـراف:200)، وهـو يقـول:﴿ فَـإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل: 98)، وهو يقول:﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت:36)

قـال: لقـد ذكـر اللـه تعـالى أن الشـيطان من أخطـر أعـداء الإنسان، فلذلك وردت هذه النصوص في التشديد بالأمر بالاستعاذة منه.. ولكنهـا لا تعـني الحصـر.. فقـد ورد في النصـوص الكثـير من الاستعاذات، ألم تسمع قول موسى عليه السلام:﴿ أَعُـوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُـونَ مِنَ الْجَـاهِلِينَ﴾ (البقـرة:67)،وقـول نـوح عليه السلام:﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُـوذُ بِـكَ أَنْ أَسْـأَلَكَ مَـا لَيْسَ لِي بِـهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِـرْ لِي وَتَـرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ

الْخَاسِرِينَ (هود:47)، وقول مريم ـ عليهـا السـلام ــ: إِنِّي أَعُـوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً (مريم: 18).. ألم تسمع المعوذتين؟

قلت: بلى..

قـال: ومثلـه النصـوص الكثـيرة.. وهي تملأ الصـدر انشـراحا، والقلب راحة.

قلت: ألهذه الاستعاذات تأثير نفسي على قائلها؟

قال: أجـل.. زيـادة على التـأثير الغيـبي.. فـالكثير قـد يحـزن، ويمتلئ قلبه كآبة لأجل أمور بسيطة، كرؤيـا يؤرقـه تـذكرها، ولهـذا كـان ﷺ يعلم أمتـه كيـف تتحصـن بحصـن اللـه من الـرؤى الـتي تخافها، قـال ﷺ: (الرؤيـا من اللـه والحلم من الشـيطان فـإذا رأى أحدكم شيئا يكرهه فلينفث حين يسـتيقظ ثلاث مـرات ويتعـوذ من شرها فإنها لا تضره)(1) قال أبو سلمة أحد رواة الحـديث يـبين أثـر هــذا الحــديث في نفســه: (وإن كنت لأرى الرؤيــا أثقــل علي من الجبل فما هو إلا أن سمعت هذا الحديث فما أباليها)

وورد في حديث آخر، قولـه ﷺ: (إذا رأى أحـدكم رؤيـا يحبهـا فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليحـدث بهـا، وإذا رأى غـير ذلك مما يكـره فإنمـا هي من الشـيطان، فليسـتعذ من شـرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره)(2)

قلت: فلم نهاه عن ذكرها؟

قال: لما يحدثه ذكرها في نفســه من خـوف، فيكفي التجـاؤه إلى الله في حمايته من شـرها، بخلاف التحـديث بالرؤيـا الصـالحة فإن لها من التأثير المعنوي ما يدعو إلى روايتها.

بينمــا نحن كــذلك إذ رأيت أقوامــا مجتمعين، كــل منهم يلقن أخاه شيئا، فسألت المعلم عنهم، فقال: هؤلاء يذكر بعضــهم لبعض أنواع الملاجئ التي تعلموها من رسـول اللـه ﷺ، ورأوا تأثيرهـا في

1) ابن ماجة.

2) البخاري ومسلم.

حياتهم.

اقتربت من بعضهم، فسمعته يقول لأخيه: لقـد حرصـت على كثرة الاستعاذة بـ: (أعوذُ بكلمـاتِ اللـهِ التامَّاتِ مِن شـرِّ مـا خَلـق) فوجدتها ـ مع قلة ألفاظها ـ واقية من كل سوء.

قال صاحبه: أما أنا.. فإني ـ كما تعلم ـ امـرؤ لا تمتلئ نفسـي بغير التفاصيل.. ليزيل كل ما أذكـره وهمـا من الأوهـام وسـببا من أسباب الخوف.

قلت: فما تقول؟

قـال: أقـول إذا امتلأت نفسـي بالمخـاوف من الشـياطين والعيون: (أعوذ بكلمات الله التامة، من كـل شـيطان وهامـة، ومن كل عين لامة)

وأقول إذا امتلأت بغيرها: (أعوذ بكلمات الله التامـات الـتى لا يجاوزهن بر ولا فـاجر، من شـر مـا خلـق وذرأ وبـرأ، ومن شـر مـا ينزل من السماء، ومن شـر مـا يعـرج فيهـا، ومن شـر مـا ذرأ فى الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليـل والنهـار، ومن شر طوارق الليل، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن ش

وقد أقول (اللهم إنى أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتـك التامـات من شر ما أنت آخذ بناصـيته، اللهم أنت تكشـف المـأثم والمغـرم، اللهم إنه لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك، سبحانك وبحمدك)

اقتربت من آخر، فسمعته يلقن صاحبه: (أعـوذ بكلمـات اللـه التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشـياطين وأن يحضرون)

فـإذا انتهى لقنـه صـاحبه: (أعـوذ بوجـه اللـه العظيم الـذي لا شيء أعظم منه، وبكلماته التامات التي لا يجـاوزهن بـر ولا فـاجر، وأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر كل ذي شر لا أطيق شـره، ومن شـر كـل ذي

شر أنت آخذ بناصيته، إن ربى على صراط مستقيم)

اقـتربت من آخـر، فسـمعته يقـول: (اللهم أنت ربى لا إلـه إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، مـا شـاء اللـه كـان، وما لم يشـأ لم يكن، لا حـول ولا قـوة إلا باللـه، أعلم أن اللـه على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمـا، وأحصـى كـل شيء عددا، اللهم إني أعوذ بـك من شـر نفسـي، وشـر الشـيطان وشركه، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صـراط مستقيم)

وسمعت صاحبه يقرأ بعدها: (تحصنت بالله الذى لا إله إلا هو، إلهى وإله كل شىء، واعتصـمت بـربى ورب كـل شـىء، وتـوكلت على الحى الـذى لا يمـوت، واسـتدفعت الشـر بلاحـول ولا قـوة إلا بالله، حسبى الله ونعم الوكيـل، حسـبى الـرب من العبـاد، حسـبى الخالق من المخلوق، حسبى الـرازق من المـرزوق، حسـبى الـذى هو حسبى، حسبى الذى بيده ملكوت كل شىء، وهو يجير ولا يجار عليـه، حسـبى اللـه وكفى، سـمع اللـه لمن دعـا، ليس وراء اللـه مرمى، حسبى الله لا إله إلا هـو، عليـه تـوكلت، وهـو رب العـرش العظيم)

تركنــاهم يلقن بعضــهم بعضــا، وانصــرفت إلى محــل آخــر، فوجدت شيخا وقورا قد اجتمع عليه نفر من الناس يسـألونه، فلمـا اقتربنا منه سمعته يقول: كما نهتم بتلقيح أنفسنا خوفا من كــل داء طارق، أو عدو مهاجم، فينبغي تلقيحهـا كـذلك، بـل من بـاب أولى، بهـذه الاسـتعاذات، فأعـداؤها مـتيقنون، وهم أكـثر خطـرا من كـل طاعون أو وباء.

قال أحدهم: إن قومنا قد وضعوا لنا مواقيت نلقح فيها أنفسنا من طوارق الجراثيم والفيروسات والأوبئة.

قال: وقد رتب لنا رسول اللـه ﷺ من المـواقيت مـا نلقح بـه أنفسنا من كل طوارق السوء.. لأن الأعداء يتربصون بالإنســان في

كل وقت، ولذلك وجب أخذ الحذر، وعدم إتاحة الفرصة.

قالوا: فما نحفظ به أنفسنا من طوارق النوم، فلا نرى إلا أنــه فرصة للشياطين والهوام وجميع أنواع الشرور؟

قال: لقد كان ﷺ إذا أراد النـوم يجمـع كفَّيْـهِ، ثم ينفُث فيهمـا، ويقرأ فيهما سـورة الإخلاص والفلـق والنـاس، ثم يمسـح بهمـا مـا استطاع من جسده، يبدأ بهمـا على رأسـه، ووجهـه، ومـا أقبـلَ مِنْ جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وكأنه ﷺ يمسح بتريـاق هـذه السـور جميـع الآفـات الـتي قـد تخترق حصن الإنسان، أو يجعل منهـا تعويـذة لمنـع الشـياطين من التسرب لأي محل من هذا الجسم.

وكـان ﷺ يقـول إذا أوى إلى فراشـه: (اللهم رب السـماوات والأرض، ورب العرش العظيم، ربنـا ورب كـل شـيء، فـالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل، والفرقان، أعـوذ بـك من شـر كـل ذي شــر أنت آخــذ بناصــيته، أنت الأول فليس قبلــك شــيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر)

قالوا: فما نقول إذا خرجنا من بيوتنا.. فإنا نخشى على أنفسنا طوارق السوء؟

قال: كان ﷺ إذا خرج من بيته قال: (بسم اللـه، تـوكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضــل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل على)

وروي من تأثير هذه الاستعاذات قوله ﷺ: (من قـال إذا خـرج من بيته: بسم الله، تـوكلت على اللـه، ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه، يقال له: هديت، وكفيت، ووقيت، وتنحى عنه الشيطان)

قـالوا: فمـا نقـول إذا دخلنـا الخلاء، فهـو محـل للشـياطين والقاذورات؟

قال: كان ﷺ إذا دخل الخلاء، قال: (اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث).. وكان يقول: (لا يعجز أحدكم إذا دخل مرفقه أن يقول: اللهم إنى أعوذ بك من الرجس النجس، الخبيث المخبث، الشيطان الرجيم).. بل كان ﷺ يعلمنا التعويذة التي نستتر بها عن أعين الجن، فيقول: (ستر ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل أحدكم الكنيف أن يقول: بسم الله)

قال أحدهم: فكيف نستعيذ من الشر الذي قد يكون مخبأ بين ثنايا الجديد؟

قال: لقد كان ﷺ يعلمنا الاستعاذة من شر كل جديد نستفيده، قال ﷺ: (إذا أفاد أحدكم دابة، فليأخذ بناصيتها، وليدع الله بالبركة، ويسمى الله عز وجل، وليقل: اللهم إنى أسألك خيرها، وخير ما جبلت عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلت عليه)

قال آخر: فما نقول إذ فزعنا؟

قال: كان ﷺ يعلم أصحابه عند الفزع أن يقولوا: (أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ومن شر عباده، ومن شر همزات الشياطين، وأن يحضرون)

قال آخر: فما نقول إذا عزمنا على السفر، فالسفر والتنقل محل للأخطار، حتى أن المسافر في العصر الحديث يحتاج إلى أخذ بعض التلقيحات لتجنب آثار الأوبئة؟

قال: لقد روي عنه ﷺ الكثير من الاستعاذت التي تحصن المؤمن من مخاطر سفره، والأرض التي يريد أن ينزل فيها.

ومما يروى في ذلك أنه ﷺ كان يقول في سفره: (أنت الصاحب فى السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من الضبنة فى السفر والكآبة فى المنقلب، اللهم اقبض لنا الأرض، وهون علينا السفر)

وكان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، ومن الحور بعد الكور، ومن دعوة المظلوم، ومن سوء

المنظر في الأهل والمال)

وعلمنا أن نقول إذا نزلنا محلا: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)

وأخبر عن تأثير ذلك، فقال: (من نزل منزلا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)

وكان ﷺ إذا أشرف على قرية يريد دخولها يقول: (اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وأعوذ بك من شرها، وشر أهلها وشر ما فيها)، وكان يقول: (اللهم إني أسألك من خير هذه القرية وخير ما جمعت فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما جمعت فيها، اللهم ارزقنا جناها، وأعذنا من وباها، وحببنا إلى أهلها، وحبب صالحي أهلها إلينا)

وكان ﷺ إذا أدركه الليل في سفره، قال: (يا أرض ربى وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود، وحية وعقرب، ومن شر ساكن البلد، ومن شر والد، وما ولد)

قال آخر: أما أنا فمقيم لا أكاد أبرح داري.. وإنما مطيتي الصباح والمساء، فما أقول فيهما؟

قال: لقد رويت الاستعاذات الكثيرة في الصباح والمساء، باعتبارهما بداية اليوم ونهايته، وكأن المؤمن بتلك الاستعاذات يحمي نفسه فترة يومه، كما تحمي التلقيحات المختلفة الإنسان فترات مؤقتة.

ويشير إلى هذه الحقيقة قوله ﷺ في هذه الاستعاذة: (اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله

العلى العظيم، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، وشر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم): (من قالها في أول النهار لم تصبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالها آخر النهار لم تصيبه مصيبة حتى يصبح)

قالوا: فعلمنا من هذه الاستعاذات ما نسأل الله أن يوفقنا للمحافظة عليه.

قال: من الاستعاذات التي تقال في الصباح والمساء: (أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، رب أسألك خير ما في هذا اليوم، وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر هذا اليوم، وشر ما بعده، رب أعوذ بك من الكسل، وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب القبر)(1)

ومنها (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يمينى وعن شمالي، ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)(2)

قال آخر: إني لا أرب لي في دنياكم التي تتنافسون عليها.. وإنما كل حاجتي منها ركيعات وسجيدات أتقرب بها إلى ربي..

قال: فقد كان ﷺ لا يترك الاستعاذة حتى وهو في مناجاة ربه وعبادته، فمن صيغ دعاء الاستفتاح: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله كثيرا، الحمد لله كثيرا، الحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، سبحان الله بكرة وأصيلا، سبحان الله بكرة وأصيلا، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه)

وكان ﷺ يدعو في صلاته قائلا: (اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتة

1) مسلم، وآخر الحديث:(وإذَا أمْسَى قَالَ: أمْسَيْنَا وَأَمْسَى المُلْكُ لِلَّهِ..)

2) صححه الحاكم

المحيا والممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم)

فإذا انصـرف من الصـلاة قـال: (اللهم أصـلح لي ديـني الـذي جعلته عصمة أمري، وأصلح لي دنيـاي الـتي جعلت فيهـا معاشـي، اللهم إني أعوذ برضـاك من سـخطك، وأعـوذ بعفـوك من نقمتـك، وأعوذ بك منك، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفـع ذا الجد منك الجد)(1)

وفي الحج وفى الموقـف، كـان ﷺ يقـول: (اللهم لـك الحمـد كالذى نقول، وخيرا مما نقول، اللهم لك صلاتى ونسكى، ومحيـاى، ومماتى، وإليـك مـآبى، ولـك ربى تـراثى، اللهم إنى أعـوذ بـك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمـر، اللهم إنى أعـوذ بـك من شر ما تجئ به الريح)(2)

وكــان ﷺ إذا دخــل المســجد يقــول: (أعــوذ باللــه العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم)، وأخبر ﷺ عن تأثير هذه الاستعاذة فقال: (فإذا قال ذلك قال الشيطان: حفظ منى سائر اليوم)(3)

وكان ﷺ يستعيذ بالله من الشيطان الـرجيم فى أول قراءتـه، فيقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وربما كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه، ونفثه)

وكان يخبر أن سيد الاستغفار أن يقول المستغفر: (اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعـدك مـا استطعت، أعوذ بـك من شـر مـا صـنعت، أبـوء لـك بنعمتـك على، وأبوء بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الـذنوب إلا أنت، من قالهـا حين يصـبح موقنـا بهـا فمـات من يومـه، دخـل الجنـة، ومن قالهـا حين يمسى موقنا بها، فمات من ليلته، دخل الجنة)

---

1) أبو حاتم في صحيحه.

2) الترمذى.

3) أبو داود

الرقى الشرعية:

انتقلنا إلى القاعة الثالثة، وهي القاعة المختصة بالرقى الشرعية، وقد كتب على بابها قوله ﷺ: (لا رقية إلا من عين، أو حمة)(1)

فسألت المعلم عن سر وضع هذا النص هنا، فقال: لقد رأى أهل هذا المستشفى مبالغة قومك في شأن الرقى وتعميمها، وعدم التفريق بينها وبين الاستعاذات الشرعية، فلذلك جعلوا هذا الحديث شعارا لهذا الملجأ من الملاجئ الإلهية.

قلت: لكن هذا الحديث يحصر الرقى في أشياء محدودة جدا.. وقد ورد في النصوص ما يشير إلى أن الرقى غير محصورة في هذين الجانبين.

أشار إلى رجل في القاعة يقلب دفاتر بين يديه، فقلت: من هذا؟

قال: هذا رجل من المتكلمين آتاه الله فهما، وهو يشرح هذا النص ويرد على ما يجادل فيه.. فإن كان لك شيء من الجدل فاقترب منه واطرح عليه ما تشاء.

اقتربت منه، فواجهني بقوله: مثل ماذا؟

قلت: ما تقصد؟

قال: إن سيما وجهك تخبرني بأنك ترى عدم انحصار الرقية فيما أخبر به ﷺ من العين والحمة.

قلت: أجل.

قال: مثل ماذا !؟

قلت: مثل ما روي عن سهل بن حُنَيفٍ، قال: مررْنا بَسيْلٍ، فدخلتُ، فاغتسلتُ فيه، فخرجتُ محموماً، فنُمِيَ ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: (مُرُوا أبا ثابتٍ يَتَعَوَّذُ)، قال: فقلتُ: يا سيدى؛

1) أبو داود

والرُّقَى صالحة؟ فقال: (لا رُقيةَ إلا فى نَفْسٍ، أو حُمَةٍ، أو لَدْغَةٍ)(1).. فقد ذكر ﷺ شيئا آخر غير ما ذكر الحديث السابق.

قال: ولكنه ذكرها بصيغة الحصر.. ثم إنه ﷺ أمر في الأصل بالاستعاذة، ولم يكن حديثه عن الرقية إلا إجابة عن سؤال سألوه عنه ولا علاقة له بما حصل لسهل..

قاطعنا آخر، وقال: أنا لغوي من الله علي بعلم غريب النصوص، وسأشرح لكم من ألفاظه ما يبين توافق الحديثين، أما العين فمعروفة، ويقابلها في الحديث الثاني النَّفْس: وهي العَيْن، يقال: أصابت فلاناً نفسٌ، أى: عَيْن. والنافِس: العائن.

أما الحُمَةُ، فهي ذوات السُّموم كلها، كما قال ثعلب وغيره: هي سم العقرب وقال القزاز: قيل هي شوكة العقرب وكذا قال بن سيده أنها الابرة التي تضرب بها العقرب والزنبور، وقال الخطابي: الحمة كل هامة ذات سم من حية أو عقرب.

ولهذا فلا تعارض بين هذا الحديث والحديث السابق، لأن الحمة أعم من اللدغة، فبالتالي دخلت اللدغة فيها، والمقصود منها الأمراض التي يرجع سببها للسموم.

وإلى هذا أشار ابن حجر، فقد قال بعد إيراد الحديثين: (فغاير بينهما فيحتمل أن يخرج على أن الحمة خاصة بالعقرب فيكون ذكر اللدغة بعدها من العام بعد الخاص)

قلت: ولكن ابن القيم وغيره أجابوا على هذا التعارض بأنه ﷺ لم يُرِدْ به نفىَ جواز الرُّقية فى غيرها، بل المرادُ به: (لا رُقيةَ أولى وأنفعَ منها فى العَيْن والحُمَة)

قال: هذا تأويل للحديث، والأصل الأخذ بما جاء في ظاهر النص، خاصة مع يسر الجمع بينهما.

قلت: ولكن ورد في حديث ثالث، قوله ﷺ: (لا رُقْيَةَ إلا مِن عَيْنٍ، أو حُمَةٍ، أو دَمٍ لا يَرْقأُ)(2)، فقد أضاف في هذا الحديث الدم

(1) أبو داود.

(2) أبو داود.

الذي لا يرقأ، وهو الدم الذي لا ينقطع.

قال: هذا يستدعي البحث عن سر عدم انقطـاع الـدم، ولعـل له علاقة بالسموم، فيجمع بذلك بين هـذا الحـديث ومـا سـبقه من الأحاديث.

قلت: وقد ورد في حديث رابع عن أنس قال: (رخَّص رســولُ اللهِ ﷺ فى الرُّقية من العَيْن والحُمَةِ والنَّمْلَـةِ)(1).. فقـد أضـاف في هذا الحديث النملة، وقرنها بالعين.

قـال اللغـوي: النَّمْلَـة: قُـروح تخـرج فى الجنـبين، وهـو داء معروف، ولعل له علاقة بذوات السموم، فيجتمع مع ما سبق.

قلت: وقد ورد في حديث خامس: (رخَّص رسولُ اللـهِ ﷺ فى الرُّقْيَة من الحيَّةِ والعقرب)(2)

قال: الحية والعقرب تدخل في ذوات السموم.

قلت:.. !؟

قال: أليس لديك غيرها؟

قلت: هذا ما أحفظه منها.

قـال: فهـذه الأحـاديث جميعـا تـدل على انحصـار الرقيـة في محال معينة لا تتجاوزها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد وردت هذه النصوص بصيغ الحصر، ومـع أنهـا وردت بصيغ مختلفـة إلا أن التقـارب بينهـا يسـير، فهي عمومـا تـدل على العين، وهي محل اتفاق بين النصـوص جميعـا، والأمـراض الناشـئة بسبب السموم.

قلت: لقد وضحت لي هذا.

---

1) مسلم.

2) ابن ماجه.

قال: زيادة على هذا، فقد عبر الصحابة عن وقوع الرقيــة في عهد النبي ﷺ بصيغة الترخيص، والرخصة ـ كما تدل عليهـا نصـوص الشريعة مقدرة بقدرها ـ فقد قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَـاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ (البقرة:173)

زيـادة على ذلـك، فـإن هـذا يـدل على أن الأصـل في الرقيـة النهي، وهو مـا ثبت في أحـاديث كثـيرة، منهـا قولـه ﷺ: (اعرضـوا علي رقاكم)، أي لأنظر مدى شرعيتها.

قلت: فما السر الذي تراه لهذا الترخيص؟

قال: السر في هذا هو أن الرسول ﷺ وجـد الرقيـة منتشـرة في المجتمعـات الجاهليـة، ووجـدها مختلطـة بين اسـتعمال أدويـة طبيعية، وأخرى مما يمكن تسميته روحانية.

ولم يكن ﷺ ليحرمها باعتبارها من التجـارب الـتي ربمـا أثبتت بعض فاعليتها، فلـذلك رغب في تركهـا أولا سـدا لذريعـة الشـرك، فلما انتفت قيدها بالقيود الشرعية، وهي حصرها في أحوال معينــة وبأساليب خاصة لا تتجاوزها.

قلت: أهي بـذلك تشـبه مـا يجـرب من الأدويـة ممـا يسـمى بـالطب البـديل حيث أن هنـاك طرقـا كثـيرة قـد يتـوهم تلبسـها بالشعوذة مع تأكد صلاحيتها في شفاء العلل؟

قال: أجل.. هذا صحيح.. وهو مثال جيد.

قلت: ورقية المس؟

قال: بدعة.. فلم يرد نص واحد بجـواز الرقيـة فيهـا، فلم يـرد في جميع الأحاديث أن النبي ﷺ أتي بمصروع فرقاه، وأخــرج الجن منه كما يفعل الرقاة الآن.

قلت: فمـا تقـول في النصـوص الكثـيرة الـتي وردت فيهـا الاسـتعاذات والأدعيــة المختلفــة، وهي في النصــوص الصــحيحة الصريحة؟

قال: إن اصطلاح الرقية في الشرع خاص بنواح محددة، وهي

ما نصت عليه النصوص من مجالات وكيفيـات، أمـا مـا عـداها فهـو من الاستعاذات والأدعية، وليس من الرقية، ويدل لذلك ما ورد في حديث أبي سعيد قال: (كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجــان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذات فأخذ بها وترك ما سواها)(1)

قلت: فما فائدة التفريق بين الرقية والاستعاذات والأدعية؟

قال: الرقية رخصة، والأدعية مسنونة مسـتحبة، والقـول بهـذا ينفي التعارض الذي يبدو في حال ما لو سوينا بينهما.

ذلك أن الكثير من النصوص تذكر أنواع الاسـتعاذات والأدعيـة التي يدعو بها المريض ربه، وهي ترغب في ذلك، وتسـتحبه بـدليل ما فيها من المعاني.

بينما لا نجد في الرقية أي نص يدل على الاسـتحباب، بـل قـد ورد اسـتحباب تـرك الرقيـة في محـال معينـة، وقـد قـال ﷺ في السبعين ألفـا الـذين يـدخلون الجنـة بغـير حسـاب: ((هم الـذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)

فلم يذكر ﷺ تركهم الاستعاذة، وإنما ذكر تركهم للرقى، ولهذا فمن اكتفى بالاســـتعاذة من العين، واكتفى من ذوات الســـموم باستعمال العلاج واللجوء إلى الله كان ذلك كافيا له.

قلت: ولكن العلماء أجابوا على ما يبدو من تعارض بين النهي عن الرقية أو بيان كـون الكمـال في تركهـا، وبين ثبـوت النصـوص الكثيرة الدالة على طرق الدعاء للمريض بإجابات كثـيرة كمـا قـال النووي: (فقد يظن مخالفاً لهـذه الأحـاديث ولا مخالفـة بـل المـدح في ترك الرقى المراد بها الرقى التي هي من كلام الكفار والـرقى المجهولة والتي بغير العربية ومـا لا يعـرف معناهـا فهـذه مذمومـة لاحتمال أن معناها كفر أو قريب منه أو مكروه، وأما الـرقي بآيـات القرآن وبالأذكار المعروفة فلا نهي فيه بل هو سنة، ومنهم من قال في الجمع بين الحديثين أن المدح في ترك الرقى للأفضـلية وبيـان التوكل والذي فعـل الـرقى وأذن فيهـا لبيـان الجـواز مـع أن تركهـا أفضل)

---

1) الترمذي وحسنه والنسائي

قال: وأفضل من ذلك لو حصروا الرقية فيما حصر من النصوص، وفرقوا بين الاستعاذة والرقية.

قلت: فما كيفية الرقية، وما مدى حرية الاجتهاد فيها؟

قال: من خلال استقراء النصوص نرى طرقا معينة في الرقى المرتبطة بالعين أو المرتبطة بعلاج ذوات السموم، وهي طرق منها ما هو منبن على الأعراف الجاهلية، وأقره رسول الله ﷺ، ومنها ما شرع أساسا.. وبذلك فإن كيفيات الرقى توقيفية، لا تختلف عن سائر التوقيفات بدليل الحديث المعروف: (اعرضوا علي رقاكم)

قلت له: ولكن الرقاة يستدلون عادة بهذا الحديث على ما يفعلونه ويخترعونه.

قال: فما وجه استدلالهم؟

قلت: وجهه أن النبي ﷺ أقر بعض الرقى.

قال: وهل نسوا أن النبي ﷺ أمر بعرضها عليه ليقرها، فلمن يعرضوها حتى تعتبر رقية؟

قلت: يعرضوها على قواعد الدين وأصوله، أو يقيسوها على ما ورد في النصوص من الرقى.

قال: لو كان الأمر خاضعا للقياس لبين العلة، وتركهم يقيسون دون أن يطلب منهم عرض آحاد القضايا عليه.

ولكن الرقية شيء مختلف.. إنها دواء، هي مثل أي اختراع لدواء، فإنه يحتاج إلى عرضه على هيئات مختصة لترى مدى فاعليته، وبما أن تأثير الرقية غيبي، فيحتاج فيها إلى معصوم له علاقة بهذا العالم، وليس ذلك إلا رسول الله ﷺ.

قلت: فأورد لي كيفية الرقية من خلال النصوص.

قال: بما أن مجالات الرقية محددة بما سبق بيانه، فسأورد لك النصوص الدالة على تلك الكيفيات التي لا يحل تجاوزها، وأورد معها ـ من باب النصيحة للأمة ـ بعض الأخطاء في هذا المجال،

ولولا أن المصيبة بها عامة، لما اشتغلت بذكرها والتنبيه عليها.

قلت: فلنبدأ بالعين.

قال: لقد رأينا أنواع الرقى والاستعاذات المرتبطة بها.

قلت: فلم تبق إلا الأمراض السمية.. فما هي؟.. وما كيفية الرقية فيها؟

قال: الأمراض السمية هي الأمراض التي وردت النصوص بجواز الرقية فيها، ولعله يدخل فيها كل الأمراض التي تسببها الجراثيم وغيرها، باعتبارها من أنواع التسممات.

قلت: فما كيفية الرقية فيها؟

قال: لقد ورد في النصوص بعض أنواع الرقى في هذا الجانب، منها الاسشفاء بالقرآن الكريم ممزوجا بالنفث على موضع الداء، وهو الرقية الأولى، وقد ورد فيها هذا النص، فعن أبى سعيد الخدرى، قال: انطلق نفر من أصحاب النبى ﷺ فى سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحى، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شىء. فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط؛ إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شىء؟ فقال بعضهم: نعم والله إنى لأرقى، ولكن استضفناكم، فلم تضيفونا، فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾، فكأنما أنشط من عقال، فانطلق يمشى وما به قلبة، قال: فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذى رقى: لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله ﷺ، فنذكر له الذى كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال: (وما يدريك أنها رقية؟)، ثم قال: (قد أصبتم، اقسموا واضربوا لى معكم سهما)

قلت: لقد قرأ عليه القرآن الكريم، فكيف اعتبر هذا رقية؟

قال: السر في اعتبارها رقية هو جمع الراقي بين القراءة والنفث عليه.

قلت: لقد ذكر ابن القيم السر في تأثير هذا النوع من الرقية، فقال: (وقد جعل الله سبحانه لكل داء دواء، ولكل شيء ضدا، ونفس الراقي تفعل في نفس المرقى، فيقع بين نفسيهما فعل وانفعال، كما يقع بين الداء والدواء، فتقوى نفس الراقي وقوته بالرقية على ذلك الداء، فيدفعه بإذن الله، ومدار تأثير الأدوية والأدواء على الفعل والانفعال، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين، يقع بين الداء والدواء الروحانيين، والروحاني، والطبيعي، وفى النفث والتفل استعانة بتلك الرطوبة والهواء، والنفس المباشر للرقية، والذكر والدعاء، فإن الرقية تخرج من قلب الراقي وفمه، فإذا صاحبها شيء من أجزاء باطنه من الريق والهواء والنفس، كانت أتم تأثيرا، وأقوى فعلا ونفوذا، ويحصل بالازدواج بينهما كيفية مؤثرة شبيهة بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية.

وبالجملة.. فنفس الراقي تقابل تلك النفوس الخبيثة، وتزيد بكيفية نفسه، وتستعين بالرقية وبالنفث على إزالة ذلك الأثر، وكلما كانت كيفية نفس الراقي أقوى، كانت الرقية أتم، واستعانته بنفثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها)

وذكر حكمة أخرى، فقال: (وفى النفث سر آخر، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة، ولهذا تفعله السحرة كما يفعله أهل الإيمان. قال تعالى: ومن شر النفاثات فى العقد، وذلك لأن النفس تتكيف بكيفية الغضب والمحاربة، وترسل أنفاسها سهاما لها، وتمدها بالنفث والتفل الذى معه شيء من الريق مصاحب لكيفية مؤثرة، والسواحر تستعين بالنفث استعانة بينة، وإن لم تتصل بجسم المسحور، بل تنفث على العقدة وتعقدها، وتتكلم بالسحر، فيعمل ذلك في المسحور بتوسط الأرواح السفلية الخبيثة، فتقابلها الروح الزكية الطيبة بكيفية الدفع والتكلم بالرقية، وتستعين بالنفث، فأيهما قوى كان الحكم له، ومقابلة الأرواح بعضها لبعض، ومحاربتها وآلتها من جنس مقابلة الأجسام، ومحاربتها وآلتها سواء، بل الأصل فى المحاربة والتقابل للأرواح

والأجسـام آلتهـا وجنـدها، ولكن من غلب عليـه الحس لا يشـعر بتأثيرات الأرواح وأفعالها وانفعالاتها لاستيلاء سـلطان الحس عليـه، وبعده من عالم الأرواح، وأحكامها، وأفعالها.

والمقصود.. أن الروح إذا كانت قوية وتكيفت بمعاني الفاتحة، واسـتعانت بـالنفث والتفـل، قـابلت ذلـك الأثـر الـذي حصـل من النفوس الخبيثة، فأزالته)

قال: هذا كلام جميل.. ولكنه خطير.

قلت: لم؟.. وما هذا التناقض !؟

قال: هذا التحليـل قـد يقبـل، ويعجب بعبقريـة صـاحبه، ولكن الخطر ليس فيـه، وإنمـا في اعتبـار مـا ذكـره علـة يمكن القيـاس عليها، وهو مـا حصـل بين الرقـاة، حيث أدرجـوا في رقـاهم أمـورا كثيرة، فلم يبق للنفث عندهم قيمة، أو أن النفث صنعة قديمة.

قلت: صـدقت.. فقـد رأيت مهندسـا غـرق في بحـار الرقيـة، فاخترع كرسيا عجيبا لهـا، وكتب في فضـائله كتبـا، وسـر اختراعـه يكمن في إيصال موجات القرآن الكريم إلى الدم مباشرة من غـير وسيط.

قال: فمن أين تلقى هذا الكرسي العجيب؟

قلت: لقد وهب له من الغيب.

قال: أنبي هو أم ولي؟

قلت: هو لا يزعم كليهما.

قال: فهو دعي إذن.. ارموا به مع كرسيه عرض الحائط.

الخاتمة

لست أدري كيف خرجت من مستشفى السلام، ولا كيف التقيت بمعلمي معلم السلام.. فقد رأيت نفسي فجأة في بيتي وعلى فراشي الذي كنت أتكئ عليه، والذي لم يتحرك طرف منه طيلة فترة غيابي.

قال لي معلم السلام، وهو يبتسم: أتدري ما أصل هذا المستشفى الذي رحلنا إليه في هذا الدرس من دروس السلام؟

قلت: لا.. وكم أود أن أعرف؟.. ولكني أخشى أن يكون سؤالي فضولا.

قال: أصل هذا المستشفى مؤسس على نفحة من نفحات الإيمان.. خرجت مع قول الخليل ﵇ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء:80).. فسارعت بذرة لزهرة جميلة، فتعلقت بها، فعبق من عطر نفحة الإيمان، وبذرة الزهرة هذا المستشفى.

قلت: أزهرة هذا المستشفى الذي كنا فيه لم تبن كما يبنى البنيان؟

قال: لا.. عوالم السلام لا تعرف الخراسانات المسلحة التي تعرفونها.

قلت: ولكنها آية في الحسن والجمال.

قال: إن أقل زهرة في الكون، بل أقل شيء في الكون يفوق كل ما تعبدونه من عمران.

قلت: من سقى تلك الزهرة حتى نمت هذا النمو العجيب؟

قال: تلك الابتسامات العذبة التي ترسلها أفواه أنات الصالحين.

قلت: فمن عمرها بالأطباء والعلماء والخبراء؟

قال: أريجها العطر هو بطاقة الدعوة التي يرسلها لهم.

قلت: وجواز السفر؟

قال: إرادة السلام وحب السلام هو جوازهم.

قلت: فأين توجد؟.. لعلي أدعو قومي لزيارتها..

قال: هي في..

قلت: بالله عليك ـ يا معلم ـ لا تنطق بمكـان وجودهـا، فـإني أخاف أن يقتلعها قومي لـيزينوا بهـا قصـور ملـوكهم.. أو أخـاف أن تمتد إليها أيديهم الآثمـة، فيحولوهـا أشـواكا كشـوك السـعدان.. أو أخاف على أهـل تلـك الأرض الـتي توجـد فيهـا أن يغـزوا في عقـر دارهم ليجلوا عن أرضهم.. فتصـير زهـرتهم سـبب شـقائهم.. كمـا صار الذهب الأسود سبب تعاستنا.

***

في تلك الليلة أصابتني حمى شديدة.. ارتعدت لها فرائصي.. وتقطعت أوصالي.. فبت أسبح في مياه آلامي.. كانت الأنة تريد أن تفلت من لساني.. فتتداركها ابتسامتي لتملأ صدري انشراحا.

عجب أهلي من حالي.. وظنوا الابتسامة التي امتلأ بهـا ثغـري نوعا من المس الذي يصيب المحمومين، فسارعوا بالرقاة ليقتلعوا آثار جنوني.. ضحكت منهم.. فازداد شكهم.

جاءني تلك الليلة أربعة رقاة ليقتلعوا الابتسامة الـتي امتلأ بهـا ثغري، أما الأول فكان قارئا متقنا، وأما الثاني، فكان وسيطا ملهما، وأما الثالث، فقد كان يحمل ورقة وقلما ليكتب كل مـا يقـال، وأمـا الرابع فكان مدير أعمالهم الذي يقبض الأموال ويعـدها، ولا يسـمح لهم بمزاولة عملهم إلا بعد امتلاء جيوبه منها.

بـدأ القـارئ يقـرأ، فغمـرني الخشـوع لقراءتـه، فأصـابني مـا يصيب الخاشعين من انكسار، فصاح الوسـيط في القـارئ:(أعـد.. أعد.. أعد ما كنت تقرأ) فعاود القراءة، فأصـابني مـا أصـابني أولا.. فقال: هذا انكسار خطير حصل له.. أعرفه، إنه من جن..!؟)

ثم سألني كما يسأل المحققـون، والعصـا في يـده، وهـو يهم بضربي: من أي الجن أنت؟

قلت: لست من الجن.. أنا إنسـي، أبي إنسـي، وأمي إنسـية، ولا أعلم أن أحدهما تزوج من قبائل الجن.

قال: لا تتهرب.. أعرفكم معشر الجن.. تخـادعون وتحتـالون.. ألم تخلقوا من نار؟

قلت: لا.. أنا خلقت من طين.. أنا من طينة أبيكم آدم.. جـدي هو آدم.. لا إبليس.

قــال: مــا أكــذبكم معشــر الجن.. لا تكفــون عن الاحتيــال والكذب.. ولكني أعرف الطريقة التي أتعامل بها معكم.

نادى في أهلي: ائتوني بكأس من الملح الخالص الـذي يحـرق الكبد.. فإن هذا الجن لا يخيفه شيء كما يخيفه الملح.

صحت: أتوسل إليك.. أنا إنسي.. فلا تسقني ملحا.

قال: أرأيتم.. هو جني.. وإلا فأنبئوني كيف يخاف من الملح؟

قلت: أنا لا أخافه.. ولكني أحبه في الطعام لا في الماء.

قال: ستشرب منه إلى أن تحترق كبدك.

دعا أصحابه، وأخذ الكأس يغرغر لي منها بشدة ملحـا خالصـا مبللا ببعض المـــاء، وأهلي ينظـــرون متأســـفين لحـــالي، ولهـــذه العفاريت التي تسيمني العذاب.

بعد أن شربت من ملحهم ما لو وزعته على أيام حياتي لفاقها صاح في الراقي، وقد رأى مبلغ الجهد الذي صرت إليه: هل تقر من أنت، أم نتخذ وسيلة أخرى؟

قلت: ما هي؟

قال: هذه العصا، ستنكسر على عنقك.

قلت: ارحموني.. أنا إنسي..

ضحك الجميع، وقالوا: أنت تتحدانا.. لقد رأينا كثيرا من أمثالك.. بل كل من رأيناهم لا يختلفون عنك.. ولكنا سنؤدبك كما أدبنا الكل.. فلا ينبغي لذرية إبليس أن تغلب ذرية آدم.

صحت: ارحموني.. والله.. لست إلا أنا..

ابتسموا، وقالوا: هاهو أخيرا بدأ يعترف.

صحت: بم أعترف؟.. لقد قلت لكم: أنا هو أنا.

قالوا: فإذن أنت لن تسمع إلا للعصا..

لم أكن أتصور أنهم سينفذون تهديدهم.. ولكني فوجئت بالعصا تنهال علي.. ولا تترك موضعا إلا وتصيبه بآلامها إلى أن فقدت وعيي..

عندما استفقت في الصباح على آثار تلك الآلام التي خلفتها ابتسامتي فوجئت بنفسي بجنب أولئك الرقاة الأربعة، والناس يدخلون يسلمون علي، ويباركون لي الشفاء والتخلص من الجن الذي كان يستعمرني، وينحنون مقبلين أيدي الرقاة الذين كانوا جنود المعركة.

قال الأول، وهو يخاطب الجماهير المجتمعة: لم يكن جنيا واحدا.. بل كانوا على الأقل سبعة أو ثمانية.

وقال الثاني: ليتههم كانوا من الجن.. بـل كـانوا من العفـاريت الطيارة.. لا يستسلمون أبدا.

وقال الثالث: لولا العصا ما استسلموا.. بـورك في عصـاك يـا موسى.

كنت محتارا فيما حصـل، إلا أن رابـع الرقـاة وكـاتبهم جـاءني بجريدة، وقد صـورت عليهـا صـورتي، وفيهـا أخبـار مـا حصـل لي، فعجبت، وقلت له: أعرف الناس مستشفى السلام؟

قال: عن أي مستشـفى تتحـدث؟.. أنـا صـحفي أعمـل بهـذه الجريـدة، وقـد نلت اليـوم مكافـأة بسـببك، وبسـبب هـذا السـبق الصـحفي.. فقـد اسـتطعت أن أسـجل كـل مـا دار بين من كـان يستعمرك من الجن، وهـؤلاء الرقـاة.. أبشـر يـا رجـل.. فـأنت الآن أشهر من نار على علم.

قلت: فـادفع لي بعض مـا صـرف لـك من مكافـأة بسـببي أستعين به على بعض ما أصابني.

قال: لا.. أنا لم آتك لأعطيك.. بل أتيتك لتعطيني.

قلت: ما أعطيك؟

قال: لقد قبض أصحابي أموالهم من أهلك، ولم يقسموا لي.

قلت: أقبضوا أموالهم من أهلي!؟.. إذن تركوني فقيرا.

قال: للأسف لم يكن لأهلـك من المـال مـا يكفي، فاقترضـوا من الجيران ما سدد بعض تكاليف الرقية.

قلت، وقد امتلأت انقباضا: وما فعلوا حتى يسـتحقوا كـل هـذا الأجر؟

قال: ألا تعلم يا رجل أنهم خلصوك من سـبع مسـتعمرين من

الجن!؟

قلت: فما تطلب أنت؟

قال: حقي من المال.. فإنه لم يقسم لي.

قلت: وما فعلت أنت؟ لقد ذكرت أنك لم تخـرج الجن معهم.. وذكرت أنك نلت مكافأتك.

قال: ولكني نشرت صورتك واسـمك.. ألا يكفي هـذا لتنيلـني أجري؟

قلت: أقـرنت اسـمي مـع اسـم الجن، ثم تريـد أن أعطيـك أجرا!؟

لاحـظ بعضـهم مـا جـري بيننـا من نقـاش، فقـال: مـا الـذي يحصل؟

قعـد بي المـرض عن شـرح مـا حصـل.. فسـبقني يخـبر بمـا حصل لي.. فقال الحكيم الذي أراد أن يصلح بيننـا: أعطـه حقـه يـا رجل.. ولا تكن بخيلا.. فلولاهم لكنت الآن في عوالم..!؟

كاد عقلي يفلت مني.. ولـولا رحمـة اللـه لي بمـا تعلمتـه من دروس السـلام لواجهتـه بمـا يقضـي على عمـري وعمـره، لكـني سكنت، وقلت: صدقت.. لقد خدمتني خدمة لن أنساها لك، ولكني لن أعطيك مالا، فالمال عرض زائل، وهو أقل من أن يفي بحقـك.. ولهذا سأجعل اسمك، واسم أصحابك من الرقاة، بل اسم كـل من امتهن هذه المهنـة الشـريفة أشـهر من نـار على علم.. أليس هـذا عدلا؟

نطقت الجماعة مكبرين: أجل.. هذا هو العدل.. هذا هو العدل بعينه.. انظروا حكمة الرجل بعد أن فارقته عفاريته!!

***

في ذلك المساء، وبعد أن سكنت نفسي من هول ما أصابني جاءني معلم السلام، وقال: ما فعلت مع أنينك أمس؟

قلت: وكيف عرفت ذلك؟

قال: ما أكثر نسيانك، أنا معك لا أفارقك، فخبرني، ما فعلت أمس مع أنينك؟

قلت: ابتسمت، أول مرة أبتسم فيها من كل قلبي، وأول مرة تتحول آهاتي بسمات وفرحة.. ولكن أنت أدرى بما أصابني بسببها.

قال: لا عليك.. لقد تعلمت أول درس من دروس السلام، فانشر هذه الرسالة بين الناس لينتفعوا بها.

قلت: إذن يرجموني.

قال: لم؟

قلت: يقولون: مدع للنبوة، أو يزعم أنه ملهم، فمن أنت حتى أتقي أذاهم؟

قال: قل لهم:(واعظ)

قلت: أي واعظ، إمام أي مسجد أنت؟

قال: إمام مساجد القلوب.

قلت: وهل للقلوب مساجد؟

قال: ليست المساجد إلا في القلوب.

قلت: أريد خبر معصوم ينبئ عنك لأتقي ما قد يرميني به قومي من الحجارة.

قال: اقرأ عليهم قوله ﷺ:(إذا أراد الله تعالى بعبد خيرا

جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه)[1] فأنا ذلك الواعظ.

قلت: فإن قالوا: الحديث ضعيف، فما عساي أقول لهم؟

قال: قل لهم: هو السلام، فإنه لا يعلم السلام إلا السلام.

قلت: يقولون: السلام معنى، والمعنى لا يتجسم.

قال: قل لهم: فقد قال ﷺ:(لـو كـان الحيـاء رجلا لكـان رجلا صالحا، وإن الفحش من الفجور، وإن الفجـور في النـار، ولـو كـان الفحش رجلا لكان رجلا سوءا)[2]

قلت: سيقولون:(لو) هنا تعني الافتراض، ولا تعني الوجود.

قال: قل لهم: فقد قال ﷺ:(يأتي القرآن وأهلـه الـذين كـانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران، يأتيان كأنهما غيايتـان وبينهمـا شـرق، أو كأنهمـا غمامتـان سـوداوان، أو كأنهمـا ظلتان من طير صواف يجادلان عن صاحبهما)[3]

قلت: سيقولون ذلك في الآخرة.. أنا أعلم أنهم لن يقبلوا هذا، ولن يسلموا به، ولو أتيتهم بجميع أحـاديث الـدنيا، فـاذكر لهم شـيئا آخر تهضمه عقولهم.

قال: قل لهم هو:(اللمة)

قلت: أي لمة؟

قال: ألم تسمع قول رسول الله ﷺ:(إن للشـيطان لمـة بـابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكـذيب بـالحق، وأما لمـة الملـك فإيعـاد بـالخير وتصـديق بـالحق، فمن وجـد ذلـك

1) الديلمي في مسند الفردوس.

2) البيهقي في الشعب.

3) أحمد ومسلم والترمذي.

فليعلم أنه من الله فليحمد اللـه، ومن وجـد الأخـرى فليتعـوذ باللـه من الشيطان)(1)

قلت: فإن لم يفهموا ذلك؟

قال: قل لهم: هو القرين.

قلت: سيفهمون، ولكني لن ألقاك بعدها أبدا.

فقال: كيف؟.. ولماذا؟

قلت: لأنهم سيحملونني إلى الرقاة، ولعلهم يقومون بحرقك.. وسأنال من الهراوات ما نلته ليلة أمس.

قال: لا.. لم أقصد قرين الجن، بل قصدت قـول رسـول اللـه ﷺ:(ما منكم من أحد إلا وقد وكل بـه قرينـه من الجن وقرينـه من الملائكة قالوا: وإياك قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسـلم فلا يأمرني إلا بخير)(2)

قلت: هم لا يؤمنون إلا بقرين الجن.

قال: فإن أعجبهم ذلك، فقل لهم: هو قرين صالح من الجن.

قلت: فسيقبلون هذا.. ويستبشرون.. لقـد أمرتـني بنشـرها، فبم أسميها؟

قال: هل ابتسمت أمس لأنينك؟

قلت: أجل، ولله الحمد والمنة، ولك الشكر والفضل.

قال: فسمها (ابتسامة الأنين)

---

1) الترمذي والنسائي ابن حبان.

2) أحمد ومسلم.

هذا الكتاب

تحاول هذه الرسالة أن تعـالج جـراح الـروح الـتي أحـدثها ألم الجسد.. لتحول من أنين الجسد ابتسامة للروح ثقة بربهـا، وسـلاما معه، ومع نظامه الذي أبدعه، ومقاديره التي قدرها.

وقد قاد الرحلة في هذه الرسـالة (معلم السـلام) الـذي أخـذ تلميذه المتألم المصارع إلى (مستشفى السلام) ليرى كيف يحــول أهل السلام من الألم أملا، ومن الأنين ابتسامة، ومن الحــزن صــلة مع الله، ومن المصائب جسورا للوصـول إلى فضـل اللـه ورحمتـه التي وسعت كل شيء.

وهذه الرسالة تحاول كذلك أن تصحح المفاهيم حـول الرؤيـة الشرعية للطب الروحاني، فهو طب معقـول المعـنى، لا ينكـره علماء النفس، ولا غيرهم من العلماء، لأنه يعتمد على زرع الثقة في نفس المريض بربه، وتجعله يستهين بـالآلام الـتي تـنزل بـه لرؤيتــه مــا هــو أعظم منهــا وأفضــل، وهي بــذلك تــرد على التشــويهات الخطـيرة الـتي أحــدثها الــدجالون والمشــعوذون والخرافيون الذين يسـمون أنفسـهم رقـاة، فشـوهوا الـدين في هذا المجال كما شوهوه في غيره من المجالات.